الفصل الأول
دوافع الزهد عند الشعراء المجان

اختلفت دوافع الزهد عند الشعراء المجان ، واختلفت درجات هذا الزهد فى أشعارهم . وهذه نتيجة طبيعية لانتشار دوافع متنوعة ، كان من شأنها أن تعمل على بعث تيار الزهد ونموه فى المجتمع العباسى عامة . وعند الشعراء المجان خاصة .

إن تيار الزهد فى المجتمع العباسى ، لم ينشأ نتيجة عامل واحد ، بل تعاونت عوامل كثيرة على ظهوره وعلى نموه وتطوره واستمراره . منها عوامل مذهبية ومنها عوامل سياسية ، وأخرى اجتماعية أو اقتصادية ، إلى آخر تلك العوامل التى تعرض لها البحث بالإشارة فى تمهيده للدراسة .

إن اختلاف طبيعة الشاعر ، واختلاف نزعاته النفسية ، واستعداده فضلا عن اختلاف الظروف التى سيطرت عليه ، أو التى وقع تحت تأثيرها ، كان لذلك كله تأثير فى توبة الشاعر واستغفاره ، وإقلاعه عن المجون ، ويؤكد ذلك اختلاف دوافع الزهد عندهم ، وتباينها فى أشعارهم .

وقد يشترك أكثر من دافع فى زهد شاعر ماجن ، وقد يشترك أكثر من شاعر ماجن فى التأثر بعامل واحد ، أو بدافع واحد من دوافع الزهد هذه .

ومن الطبيعى ، أن هذه العوامل التى أدت إلى انتشار تيار الزهد فى المجتمع العباسى ، هى بالضرورة العوامل - ذاتها - التى دفعت شعراء المجون إلى الإقلاع عن المجون وإعلان التوبة . ولكن العوامل المسئولة عن انتشار الزهد فى المجتمع أسهمت - بلا شك - فى خلق التيار فى المجتمع ، ثم تعاون عوامل أخرى فردية خاصة بالشاعر ، نفسه - وبظروفه الخاصة ، وكانت سببا مباشرا فى توبة الشاعر ، وفى ابتعاده عن المجون .

ومن المؤكد أن قوة الدافع ، وقدرته على السيطرة على الشاعر ، وإلحاحه عليه كان سببا فى تقدير درجة زهد الشاعر أو درجة توبته بين الحدة والخفة ، أوبين العمق والاستواء . وبين الإيمان وإدعاء الإيمان ، كذلك تحدد مقدرة الشاعر على الاستمرار فى توبته أو رغبته فى النكوص والرجوع عنها إلى المجون مرة أخرى ..

إن هذا الفصل - من الدراسة - يختص بالاجابة عن سؤال محدد هو : لماذا زهد الشعراء

المجان ؟ أو لماذا تركوا القول فيما تعودوا القول فيه من فسق ومجون إلى التوبة والاستغفار ؟ أو بطريقة أخرى ما العوامل التى دفعت هؤلاء الشعراء المجان إلى أن يكونوا زهادا تائبين ؟ أو إلى أن يكونوا غير ماجنين ؟ ..

وقد اعتمد البحث على شعر الشاعر نفسه ، وعلى اعترافاته فى أشعاره ، وتصويره لذلك الدافع المباشر ، الذى دفعه إلى أن يقلع عن المجون ، وإلى أن يعلل توبته عن المعاصى ، كما اعتمد البحث - أيضا - على استقراء الأحداث ، والظروف التاريخية العامة ، والأحداث الخاصة التى عاش الشاعر خلالها ، وكانت سببا مباشرا لتوبته .

ويمكن أن تحدد أهم تلك الدوافع التى كان لها عظيم الأثر فى زهد الشعراء المجان بين دور الحاكم أو أمر الخليفة للشاعر بترك المجون وإجباره على التوبة ، ومنها المحنة الخاصة ، أو النائبة الشديدة التى نزلت بالشاعر فدفعته إلى أن يزهد ، ويهجر المجون والقول فيه ، كذلك الشيب أو العجز والشيخوخة ، وعدم القدرة على الاستمرار فى الحياة الماجنة ، فاضطر الشاعر إلى هجره أو بمعنى آخر هجره المجون ، فتاب الشاعر واستغفر .

ومن هذه الدوافع - أيضا - اقتناع الشاعر بفكرة التوبة ، بعد أن شعر بالملل فى حياته الماجنة ، ورغبة فى التجديد والهروب إلى منهج آخر فى حياته ، فقد أحس بالغربة التى باعدت بينه وبين مجتمعه وبين الإحساس بذاته - ومنها الإحساس بالنهاية وقرب المصير وسيطرة فكرة الموت على بعض الشعراء وربما كانت محاولة التجديد الفنى ورغبة الشاعر فى أن ينظم فى فن لم ينظم فيه سببا فى قول بعض المجان شعرا يدل على التوبة أو الاستغفار .

وقد يأتى دور الحاكم أو الخليفة فى مقدمة هذه الدوافع التى دفعت شعراء المجون إلى الزهد أو إلى نظم شعر التوبة والإستغفار .

أولا : أمر الخليفة

إهتم خلفاء بنى العباس بالأدب والأدباء ، واهتموا بالشعر والشعراء ، وقربوا الشعراء فى مجالسهم ، وجالسوهم ونادموهم ، وناظروهم وأجزلوا لهم العطاء .

لقد آمن الخلفاء العباسيون بخطورة الدور الذى يلعبه الشعراء على مسرح السياسة والحياة فى المجتمع العباسى ، وآمنوا بدور بعضهم فى الدعوة إلى خلافتهم فى بدايتها ، لتأصيل حكمهم ، وترويج مبادئهم ، ومدح قضيتهم ، وحاول الخلفاء كسب الشعراء بجانبهم ، يتغنون بأفضالهم ، ويشيدون بأمجادهم ويدعون لدعوتهم ، ويكونون من رجال بلاطهم ، حتى يردوا على الشعراء المعارضين ، من شعراء الفرق الاسلامية ، ومن الشعراء الذين ينتمون إلى الأحزاب السياسية الأخرى ، التى كانت تندد دائما بالحكم العباسى ، وتدعو لغيره ، وتحاوره فى أحقيته فى الخلافة ، وفى أحقية العلويين الضائعة فى الحكم .

لم يكن الشاعر بعيدا عن الخليفة ، ولم يكن الخليفة فى معزل عن الشعر والشعراء . إن الشاعر فى حاجة إلى خليفة يمدحه ، ويجالسه ، ويجزل له العطاء ، ليحقق رغباته الماجنة ، وآماله الطموحة فى أموال الخلفاء ، نظير مدائحه لهم ، والخليفة –هو الآخر – فى حاجة إلى شاعر يسجل أمجاده ، ويتغنى ببطولاته ، ويشيد بفضائله ، ويروج لدعوته .

وكان لبعض الخلفاء من بنى العباس ميول أدبية ، ومحبة خاصة للشعر وكان لبعضهم محاولات فى نظم الشعر ، وحفظ الجيد منه ، والتمثل بخيره ، والاستشهاد بعيونه ، حبا فى الأدب ، وتظاهرا بمظهر الثقافة ، وتشجيعا لحركة الأدب فى المجتمع العربى العباسى .

وكان من الخلفاء من يتشدد فى المحافظة على أمور الدين ، والتمسك به – ويتشدد فى تطبيق شعائر الله ، إنهم يحافظون على سلامة البناء الأخلاقى للمجتمع ، ويحاربون معاول الهدم فى صرح الخلق العربى ، حتى ولو وصل بهم الأمر إلى قتل من يحاولون إضعاف الشرائع أو يحاولون زعزعة العقيدة الإسلامية . واهتزاز الكيان الأخلاقى العربى .

وكان من الخلفاء من يتساهل فى مثل هذه القضايا ، ويتبسط مع الشعراء ، بل نرى منهم من يشجع المجان من الشعراء ، ويشاركهم مجونهم ، بل وصل الأمر – أحيانا – إلى أن يعاقب الخليفة شاعرا ، ترك المجون ، وأعلن توبته ، كما وقع بين الرشيد وأبى العتاهية .

إن شخصية الخليفة ، وطبيعة الدور الذى فرض عليه أن يؤديه ، وظروف المجتمع العباسى من حوله ، وكيان الدولة واستقرارها ، من الأمور التى شكلت دور الحاكم فى الأخذ بشدة على

يد المجان ، أو ركوب موجة اللهو والمجون معهم ، بل وتشجيعهم على المجون .

وقد يعاصر الخليفة أكثر من شاعر ماجن ، ويكون له دور واضح وملموس فى توبة هذا الشاعر ، سواء أكان مؤمنا بها أم مدعيا ، وقد يحدث - أيضا - أن يعاصر شاعر ماجن أكثر من خليفة ، قد يشجعه أحدهم على الخوض فى المجون ، وقد يعنفه الآخر ، فيضطر الشاعر إلى أن يجارى الحالتين ، وقد يعود الشاعر إلى ما كان عليه من مجون ، بزوال السبب الذى أدى إلى تحوله من الزهد الى المجون ، وقد يبقى الشاعر على توبته التى دخل إليها مضطرا ، بعد أن ذاق حلاوة الإيمان ، وبدأ فى الندم على حياته الأولى الفاجرة الماجنة ..

وربما كان الدافع - أحيانا - عند بعض الخلفاء ، الخوف من الشعوبية ، التى كانت مسئولة عن انتشار تيار المجون ، مثلما كان عند بشار فى بعض حالاته الماجنة ، وكان الدافع عند بعض الخلفاء إلى التشدد مع الشعراء المجان هو الرغبة على المحافظة على المكانة الدينية ، والسمعة الأخلاقية ، والقدوة الحسنة ، خاصة فى بدايات الدولة العباسية ، التى اعتمدت على عناصر دينية ، فى محاولة للتأكيد على الرابطة القوية بآل البيت وبالعباس عم النبى عليه السلام ، وقد دفع الخلفاء إلى موقفهم مع الشعراء المجان إلى الكراهية المتأصلة فى نفوسهم للمجون ، والنفور منه ، ومن أهله ، وحب الالتزام ، والتماس الجادة فى القول وفى السلوك .

ومن هؤلاء الخلفاء الذين كان لهم عظيم الأثر فى توبة المجان من الشعراء أو فى مجونهم فى العصر العباسى ، الخليفة المنصور ، والخليفة المهدى ، والخليفة هارون الرشيد ، والأمين والمأمون ، والمتوكل ..

وكان للخليفة **المنصور** تأثير مباشر فى شاعرين معاصرين له وهما إبراهيم بن هرمة ، ومطيع ابن إياس .. وكان للخليفة **المهدى** أكبر الأثر وأعظمه فى توبة الماجنين ، وفى الضرب بشدة على أيدى المنحرفين ، وكان أثره واضحا مع الشاعر بشار بن برد ، والشاعر صالح بن عبد القدوس ، ومع الشاعر ابن دلامة ، والشاعر آدم بن عبد العزيز ، والشاعر الحسين بن مطير .

وكان لهارون **الرشيد** دوره فى تشجيع المجون ، وفى التساهل مع شعراه ، كما تروى الأخبار ، واتضح ذلك مع أبى العتاهية ومع أبى نواس ، كذلك كان الخليفة **الأمين** مع الشاعر أبو نواس ، فقد ساعده على التغنى بالمجون ، وجالسه ونادمه فى قصوره وفى حرّاقاته على سطح ماء دجلة ، وعلى أمواجها ، أما الخليفة **المأمون** فقد نهى أبا نواس عن المجون ، وألزمه بالتوبة ، وأمره بهجر المعاصى ، والبعد عن المحرمات ، كذلك فعل المأمون مع الشاعر على بن جبله المعروف بالعكوّك .

أما الخليفة **المتوكل** فقد انحصر دوره مع الشاعر على بن الجهم .

وقد استمد البحث فى تقييمه لهذه العلاقة بين الخلفاء والشعراء المجان من مصدرين أساسيين

هما : أخبار التاريخ المروية فى مصادر المؤرخين ، الذين اهتموا بتسجيل هذه الحقبة ، ومن شعر الشعراء الذين صوروا هذه الصحوة التى ألمت بحياتهم الماجنة .

وقد شكا بعض الشعراء المجان من الإجبار على ترك المجون ، وتحايلوا على أمر الخليفة ، وحاولوا استعطاف الخلفاء ، للتخفف من أمرهم ، ولكنهم اضطروا للامتثال لأوامرهم وإطاعتها ، وقد شكر بعضهم الخليفة على موقفه المتشدد منه ، ومدحه بالتدين والتقى . وقد مزج البعض بين المجون والتوبة فى صور فنيه واحدة ، حيث كان إقتناعهم بالتوبة ضعيفا ، والخوف هو الباعث الأوحد .

أما عن المنصور وعلاقته بابن هرمة ، ومطيع بن إياس ، فتروى لنا الأخبار التى صورت حياة ابن هرمة وشعره ، وهى متناثرة فى الأغانى وفى الشعر والشعراء وفى زهر الآداب وفى العقد الفريد ، وفى غيرها من المصادر .

وقد اجتمعت هذه المصادر على مجون ابن هرمة ، وعلى حبه للخمر ، وتعلقه بها ، واجتمعت على سخره من نفسه ، وعلى استخفافه بقومه ، وعلى استهزائه بالحياة حوله ، وعلى شغفه بالسكر ، ورغبته فى أن يعيش سكرانا لا يفيق .

ان أحلى مايتمنى ابن هرمة سماعه هو صياح الصبية خلفه ياسكران ياسكران « فقد كان ابن هرمة محبا للخمر وللسكر حتى يترنح فى الطرقات ، ويطارده الصغار مرددين : سكران ، سكران »[1] .

ومن قوله فى ذلك :

اسأل الله سكرة قبل موتى وصياح الصبيان : ياسكران[2]

وإذا أعوزه ثمن الخمر ، باع ثيابه ليشتريها ، أو ليشتريها لصديق ينادمه ، ويشاركه فى شربها ، ثم يعود فيسخر من فقره وضياعه فى شعر ساخر فكه .

لقد كان لابن هرمة ، نفس مازحة وروح فكهة ، وهى شخصية لا تبالى كثيرا بكرامة قومها ، ويعلل د . الشكعة ذلك فى قوله : « إن خصومة أو ثأرا ربما كانت بينه وبين قومه »[3] ولكنه لم يحدد طبيعة هذه الخصومة ، بينما يقول الشاعر عن نفسه كما روى صاحب الأغانى « أنا ألأم العرب ، دعى أدعياء »[4] .

---

(١) الأغانى - جـ ٤ - ص ٣٩٧ .

(٢) المصدر السابق - جـ ٤ - ص ٣٩٧ .

(٣) د. مصطفى الشكعة - رحلة الشعر من الأموية إلى العباسية . عالم الكتب بيروت - الطبعة الثالثة (١٩٧٩) ص ٥٢٧ .

(٤) الأغانى - جـ ٤ ص ٣٦٨ .

ويرى د . الشكعة أن ابن هرمة « فارس فى ميدان الخمر ، وفروسيته ليست فروسية شعر ، ولكنها فروسية شرب ، إن شعره فى الخمر قليل ، ولكن معاقرته لها كثيرة ، وهو حد الشعراء الذين نفذ عليهم حد الشرب على زمانة »[٥] .

ولقد « جلده خثيم بن عراك صاحب شرطة المدينة »[٦] .

ويروى الحصرى القيروانى فى زهر الآداب ، خبرا يصور تعلق ابن هرمة بالخمر ، وموقف المنصور منه ، فلقد تحايل ابن هرمة على شرب الخمر ، فقد تعارضت رغبته مع نهى المنصور له ، ورأى فى أمر الخليفة عسرا على نفسه الشغوفة بالشراب ، ومن العسير على نفسه أيضا أن يقام عليه الحد فيجلد . فمدح ابن هرمة المنصور ، ويطلب منه المنصور أن يسأله حاجة ، فيطلب منه أن يكتب إلى عامل المدينة ألا يقيم عليه الحد إذا جيء به سكرانا ، « فيقول له أبو جعفر هذا حد من حدود الله تعالى ، لا يجوز أن أعطله ، فيقول ابن هرمة : احتل يا أمير المؤمنين ، فيكتب المنصور إلى عامل المدينة ، من أتاك بابن هرمة سكران فاجلده مائة جلدة واجلد ابن هرمه ثمانين ، فكان الشرطة يجدون ابن هرمة مطروحا من السكر فى سكك المدينة ، فيقولون : من يشترى مائة بثمانين »[٧] .

ويشتد أمير المدينة الحسين بن زيد فى طلب ابن هرمة ، وتعقبه ، ويبدو أن خبر المنصور كان مداعبة ، أو لم يكن ملزما لأمير المدينة لتنفيذه ، وربما كانت المدحة التى نظمها ابن هرمة فى المنصور ، جعلت الخليفة يغفل عنه فترة ما ، ولكن أمير المدينة لا يغفل عنه ، وينتقد السلوك الشائن ، ويحتج على طلبه له ، ولا يعجبه تحايل المنصور الذى كانت حاجاته إلى المدح أكثر من حاجته إلى الالتزام بأمور الدين ، فيقول الحسن بن زيد لإبن هرمة « لست كمن باع لك دينه رجاء مدحتك ، أقسم لئن أتيت بك سكران لأضربنك حدا للخمر ، وحدا للشعر ، ولأزيدن موضع حرمتك منى ، فليكن تركك لها لله عز وجل ، تعن عليه »[٨] .

وينظم ابن هرمة فى هذا الموقف شعرا ، يصور فيه توبته التى أجبر عليها ، ويصور زهده المصطنع ورفضه ، فيقول :

نهانى ابن الرسول عن المدام ... وأدبنى بآداب الكرام
وقال لى اصطبر عنها ودعها ... لخوف الله لا خوف الأنام

---

(٥) د. الشكعة - رحلة الشعر - ص ٥٣١ .

(٦) ابن قتيبة - الشعر والشعراء ص ٧٥٣ .

(٧) الحصرى القيروانى - زهر الآداب وثمر الألباب . ط . دار إحياء الكتب العربية - القاهرة ١٩٥٣ ص ٨٨ . والأغانى ٤ / ٣٧٥ ، والعقد ٦ / ٣٥٢ .

(٨) الأغانى جـ ٤ ص ٣٧٥ .

وكيف تصبـــرى عنهـا وحبىّ لهـا حب تمكن من عـظامى
أرى طيف الخيال على خبث وطيب العيش فى خبث الحرام[٩]

وأبيات ابن هرمة تصور واقعه ، لا ادعاء فيها أو احتيال ، فقد اعترف الشاعر بتأديب الخليفة له ، وبأمره بالابتعاد عن الشراب ، والصبر على ذلك ، خوفا من الله ، وخشية عذابه ، لاخوفا من الخلق ، فما أكثر التائبين المجبرين على التوبة فى عصره ، خوفا من الخليفة ، وخوفا من الحد ، لا خوفا من الله ، ولذلك يطلب الخليفة من ابن هرمة أن يزهد فى الشراب خشية الله وخشية عباده .

والشاعر لا يحتمل على بعادها صبرا ، ولا يطيق لها هجرا ، فقد تمكن حب الخمر من عظامه ، وسرى فى دمه ، واقتنع الشاعر بأن حياته لا تقوم بدونها ، وقد اعتقد بطيب العيش فى خبث الحرام ، ويعود الشاعر ابن هرمة ليمدح الخليفة المنصور ، ويشيد بتقواه وبتمسكه بالحق ، فيقول :

خليفـة حق لا خليفة بـاطل رمى عن قناة الدين حتى أقامها[١٠]

ويرتدى ابن هرمة ثياب الزهد المجبر على ارتدائها ، فتسخر منه الجوارى ، فلم يتعودوا منه ذلك ، فيقول ابن هرمة فى ذلك :

عجبت أثيلة أن رأتنى مخلقـا ثكلتك أمك أى ذاك يروع
قد يدرك الشرف الفتى وردآؤه خلق وجيب قميصـه مرقـوع
فلرب ليلة لـذة قـد بِتهـا وحـرامها بحـلالهـا مـدفـوع[١١]

إن مجون ابن هرمة يفوق حكمته ، ويطغى على توبته ، ويبدو أن موقف المنصور منه لم يكن متشددا ، بفضل مدائح ابن هرمة فيه أو حاجة المنصور إلى هذه المدائح ، التى تشيد به ، وبدولته وانتصاراته ، ولكن أمير المدينة يأخذه بالشدة ، فيضطر إلى توبته ، توبة المضطر .

ومن الشعراء الذين كان لهم للمنصور صلة ، وكان للمنصور معهم دور فى الإقلاع عن المجون ، والتوبة . الشاعر مطيع بن إياس[١٢] . ويبدو أن موقف المنصور لم يكن ذلك الموقف المتشدد فى الضرب على أيدى الشعراء المجان .

ومطيع بن إياس ، ولد بالكوفة ، ونشأ بها ، وتوفى بعد ثلاثة أشهر من خلافة الرشيد

---

(٩) الأغانى - جـ ٤ - ص ٣٩٦ .
(١٠) المصدر السابق - جـ ٤ - ص ٣٩٦ .
(١١) ابن قتيبة - الشعر والشعراء ص ٧٥٤ .
(١٢) يراجع فى أخبار مطيع بن إياس الأغانى جـ ١٣ ص ٢٧٤ - ٣٣٦ - ت بغداد ج ١٣/٢٢٥ - ٢٢٦ بروكلمان / ٧١ .

١٧٨ هـ ، ومدح وهو شاب الوليد بن يزيد ، تربى فى بلاطه اعترافا بفنه « ولما أفضت الخلافة إلى بنى العباس ، مدح المنصور ، فقربه إليه وجعل يجالسه ، ولكنه اتهم بعد ذلك عند المنصور بالزندقة ، ووشى إليه بأنه أضلّ جعفر المنصور ، فأمر المنصور بحبسه ، ثم أخلى سبيله بعد أيام ، وجعله وليا على صدقة البصرة ، ليبعده عن دار الخلافة ، ثم عفا عنه بعد ذلك »[١٣] .

ويبدو أن حاجة المنصور إلى المدائح ، كانت أقوى من حاجته إلى الشاعر الجاد ، البرىء من التهالك واللذة المحرمة ، ولكن الخليفة كان يعنف الشاعر الماجن ، ولا يشتد فى تعنيفه ، فيبعده عن دار الخلافة ، أو يحبسه فترة قصيرة ، ثم يعفو عنه بعدها ، فيطلق سراحه ، وقد يسند إليه منصبا ، حتى لو كان الاتهام هو الزندقة ، وليس شرب الخمر ومعاقرتها .

إن المنصور لايزال فى بدايات الدولة ، يجمع حولها أنصاره من الشعراء ليمدحوه ، ويدعو لدولته ولدعوته .

ومن الشعراء الذين يربطهم بالمنصور علاقة ، الشاعر أبو دلامة واسمه زند بن الجون « وكان مطبوعا مغلقا ظريفا ، كثير النوادر فى الشعر ، ينفرد فى وصف الشراب والرياض ، وغير ذلك بما لا يجرون معه »[١٤] .

إن حدة درجة المجون عند أبى دلامة ، لم تجعله يمتثل لأمر المنصور أو لغيره ، وأن توبته التى تظاهر بها أحيانا لم تكن - بالطبع - صادقة ، وإن موقف المنصور منه ، لم يتغير عن موقفه من إبن هرمه ومطيع بن إياس ، فالخليفة المنصور ، يأمر المعروف ، وينهى عن المنكر ، ويدعو الشاعر الماجن إلى الاقلاع عن المجون ، دون أن يتشدد فى ذلك ، أو يعاقبه العقاب الرادع .

وقد عرض على أبى دلامة أن يحج ، ودفع له مبلغا كبيرا ، ولكنه رفض أن يؤدى المناسك ، وذهب يبحث عن حانات الخمارين فى شعاب مكة . ويأمر الخليفة المنصور بالصلاة ، ويلزمه بها ، ويشكو أبو دلامة من أداء فرائضها ، فيأمر المنصور بإخلاء سبيله ، ويتركه مع الفاسقين والمجان أمثاله .

ويروى ابن المعتز فى طبقاته خبرا عن أبى دلامة مع موسى بن داود بن على بن عبد الله ابن عباس ، حين رغب موسى فى أن يقلع أبو دلامة عن المجون ، ويصحبه معه للحج « تأهب للخروج معى إلى هذا الوجه المبارك ، فإنما هو الحج ، وأعطاه عشرة آلاف درهم ، فأخذ المال وفتش عن أمره ، فقيل له أنه بسواد مكة يتقلب فى حانات الخمارين ، فقال موسى : اتركوه

---

(١٣) كارل بروكلمان - تاريخ الأدب العربى . ت : د. عبدالحليم النجار . دار المعارف - الطبعة الخامسة ١٩٨٣ الجزء الثانى ص ١٢ .

(١٤) عبدالله ابن المعتز . طبقات الشعراء المحدثين . دار المعارف - القاهرة . ت : عبدالستار فراج الثالثة ص ٥٦ .

إلى لعنة الله ، ثم قابله فقال : ائتونى بعدو الله الفاسق ، هرب من الحق إلى الباطل ، ومن الحج إلى حانات الخمارين ، فجيء به إليه ، فقيده ، فقال أبو دلامة :

يا أيها الناس قولوا أجمعين معا ... صلى الاله على موسى بن داود
نبئت أن طريق الحج معطشة ... من الطلاء وما شربى بتصديد
والله ما بى من خير فيطلبنى ... فى المسلمين وما دينى بمحمود[15]
أنى أعـوذ بـداود وتـربتـه ... من أن أحج بكره يابن داود

فقد صرح الشاعر بعدم رغبته فى الحج مكرها ، كما صرح للمنصور بعدم رغبته فى الصلاة مجبرا ، فقد كان أبو دلامة خليعا ماجنا ، وكان يهرب من أبى العباس إلى حانات الخمارين ، ويتجنب مجالس العلم والخلفاء ، وكان يرى فى ذلك مشقة على نفسه ، فعاتبه أبو العباس على ذلك ، وألزمه ألا يبرح حضرته ، وكان يجبره على أداء الصلوات كلها معه .

ويصور أبو دلامة الضرر الذى أصابه من ذلك لعدم إيمانه ، وضعف عقيدته فيقول :

ألم تعلمى أن الخليفـة لـزنى ... بمسجده والقصر ، مالى وللقصر
أصلى به الأولى مع العصر دائبا ... فويلى من الأولى وويلى من العصر
ويحبسنى عن مجـلس استـلذه ... أعلل فيه بالسمـاع وبالخمـر
ووالله ما بى نية فى صـلاته ... ولا البر والاحسان والخير من أمرى
ومـا ضره والله يصلح أمـره ... لو أن ذنوب العالمين على ظهرى[16]

ويسمع أبو العباس أبيات أبى دلامة ، فيقول : والله ما يفلح هذا أبدا ، فذروه وأصحابه .

ولعل حياة أبى دلامة ونشأته ، جعلت منه مسامرا خليعا ، متهتكا بأمور الدين ، فقد كان أبو دلامة عبدا أسودا ، وكان مولى لبنى أسد بالكوفة ، وقيل أنه كان يقاتل بنى أمية مع العباسيين ، فحظى بعد ذلك بمنادمة السفاح والمنصور والمهدى « وكان أبو دلامة ممن ساء إسلامهم ، ولكنه لم يكن يصدر فى ذلك عن عقيدة الزندقة ، بل عن الكسل والتهاون بشعائر الدين ، والجرأة فى إدمان الشراب ، وكان كثير الدعابة ، قليل الحياء فى التسول والاستجداء »[17] .

ولم يكن أبو دلامة من الشعراء المجان الذين تابوا ، ولكنه من الشعراء الذين حاول الخلفاء إجبارهم على التوبة ، ومنعهم من المجون ، ولم يتشدد الحكام معه ، وهو موقف عام يسيطر على

---

(١٥) ابن المعتز . طبقات الشعراء ص ٦١ .
(١٦) ابن المعتز . طبقات الشعراء . ص ٦١ .
(١٧) بروكلمان . تاريخ الأدب العربى – جـ ٢ ص ١٨ .

المنصور وعلى علاقته بغيره من الشعراء المتماجنين ، ولكنه كان ينصح بالكف عن المجون والإقلاع عن المعاصى .

لقد بدت سخرية أبى دلامة بالدين واستخفافه به ، حين يصرح بمكانته عند زوجته ، التى تشك فى دينه ، وتسخر منه إذا ذكر كتاب الله فيقول :

ناشدتها بكتاب الله حرمتنا ولم تكن بكتاب الله ترتدع
فاخرنطمت ثم قالت وهى مغضبة أأنت تتلو كتاب الله يالكع[١٨]

وفى ابنة له يقول ساخرا من أمها ومن نفسه ..

فما ولدتك مريم أم عيسى ولم يكفلك لقمان الحكيم[١٩]

ويزداد استهتار أبى دلامة الماجن بدينه ، حين يعرض لذكر الله سبحانه وتعالى ولموسى وعيسى ومحمد والقرآن ، ويقسم بذلك كله أنه لن يهجر شرب الخمر ، حتى لو كان علقما ، ويبدو أنه لم يجد من يردعه ، وينزل عليه العقاب الحاسم ، فتمادى فى غيه ، ولم تفلح معه محاولات المنصور غير الجدية . فيقول :

أما والذى نادى من الطور عبده وكرم بالانجيل عيسى ابن مريما
وخص بآيات القرآن محمدا نبى الهدى صلى عليه وسلما
سأشرب كأسيك اللتين سقيتنى وان كانتا والله صابا وعلقما[٢٠]

وفى مقتل أبى مسلم ، حين قتله المنصور ، يقول أبو دلامة :

أبا مجرم ما غير الله نعمة على عبده حتى يغيرها العبد[٢١]

ويموت الخليفة المنصور ، فيرثيه أبو دلامة ، ويهنىء الخليفة المهدى ، فى بيتين ، يقول فيهما :

عينان : واحدة ترى مسرورة بإمامها جذلى وأخرى تذرف
تبكى وتضحك مرة ، ويسوءها ما أبصرت ويسرها ما تعرف[٢٢]

لقد حاول المنصور ، ولكنه لم يكن متشددا ، وأمر الشعراء بالبعد عن المجون ، وعن القول فيه ، منعهم ، بالأمر ، وبالحبس ، وبالابعاد عن القصر ، وعن مجلسه ، ولكنه لم يكن متشددا ، ويبدو أنه كان فى حاجة إلى الشعراء يمدحونه ، فجمع الشعراء حوله ، يدعون إلى دعوته ، وربما كان لهم فضل فى قتال بنى أمية ، بالهجاء ، ولكن المنصور لم يترك باب المجون مفتوحا ، بل كثيرا ما نصح بالتوبة ، وأمر بها ، كما فعل مع ابن هرمة ومطيع بن إياس ومع أبى دلامة .

---

(١٨) ابن المعتز - طبقات الشعراء - ص ٦٢ .
(١٩) المصدر السابق - ص ٦٢ .
(٢٠) ابن المعتز - طبقات الشعراء - ص ٦٢ .
(٢١) ابن المعتز - طبقات الشعراء - ص ٦٢ .
(٢٢) المصدر السابق - ص ٦٠ .

والشعراء حين لم يجدوا العقاب الرادع ، لم يخففوا من مجونهم ، بل ظلوا فى غيهم سادرين ، فغلب مجونهم محاولة توبتهم ، وتكاد تكون التوبة اختفت تماما ، وهذا يرجع إلى موقف الحاكم منهم ، وتشدده ، أو تساهله . لقد رغب المنصور فى توبتهم . ولكن المجان لم يرغبوا فيها ، بل رغبوا عنها ، وتمادوا فى مجونهم .

ويأتى الخليفة المهدى ، ويحتل مكانة بارزة بين خلفاء بنى العباس ، فلقد كان له تأثير ملموس وواضح فى توبة الكثيرين من الشعراء المجان ، وفى هجرهم المجون راغبين أو غير طائعين ، ولكنهم يمتثلون لأوامره ، خوفا من عقابه ومن بطشه ، فد حرم الغزل ، وحرم العاطفة المشبوبة والتصريح بها ، وتعقب الزنادقة ، وجعل لهم ديوانا ، عليه صاحب الزنادقة ، وأمر بقتل من أتهم بها ، وثبت عليه الاتهام ، فخشى المجان من الشعراء على حياتهم وخاف المستهترون بالدين والخلق من بطش الخليفة المهدى .

ومن أوائل الشعراء الذين ارتبطت بعض أخبارهم بأخبار المهدى ، وكان للمهدى دور - كحاكم عربى مسلم - فى إرغامهم على هجر المجون وتجنبه ، الشاعر آدم بن عبد العزيز[٢٣]، وصالح بن عبد القدوس ، والحسين بن مطير ، والشاعر بشار بن برد .

ويأتى الشاعر آدم بن عبد العزيز ، فى مقدمة هؤلاء الشعراء المجان ، الذين كان للمهدى فضل واضح فى توبتهم ، وفى إقلاعهم عن المجون .

والشاعر آدم بن عبد العزيز من الشعراء المجان ، الذين زهدوا ، وتابوا ، بعدما عرف عنهم ، حب الخلاعة والمجون ، فقد تنسك وتصوف ، وتداخلت بعض أشعاره فى الحب الإلهى مع أشعار رابعة العدوية .

ويروى أبو الفرج فى الأغانى أن آدم « كان فى أول أمره خليعا ماجنا منهمكا فى الشراب ، ثم تنسك ، بعدها عمر ، ومات على طريقة محمودة »[٢٤] .

وقد اتفق الرواة على أن آدم بن عبد العزيز عمر طويلا ، وأنه لم يرجع عن مجونه إلا فى أواخر حياته ، ولم يكن الدافع إلى زهده وتوبته كبر سنه ، ولكن الدافع إلى ذلك موقف الخليفة المهدى منه ، فهو الذى ردعه ، واضطره إلى الزهد فى المجون ، وتجنب الغواية وطريقها .

لقد كان لآدم شعر فى الخمر ، وقد تجاوزه فى بعض مضامينه . وتخطى بها الحدود التى يمكن أن يصرح بها شاعر خمريات ، وقد شك فى عقيدته ، واتهم بالزندقة ، فبعث إليه المهدى ، وأمر بضربه ثلاثمائة سوطا ، حتى يقر بالزندقة ، ولكنه أبى ذلك وأجاب على تهمة الخليفة المهدى له بقوله : « والله ما أشركت بالله طرفة عين ، ومتى رأيت قرشيا تزندق ، ولكنى كنت فتى من

---

(٢٣) يراجع فى أخبار آدم الأغانى جـ ٥ ٢٨٦١ - ٢٩٧ - ت بغداد جـ ٧ ٢٥ - ٢٧ .

(٢٤) الأصفهانى - الأغانى - جـ ١٥ ص ٢٨٥ .

فتيان قريش ، أشرب النبيذ ، وأقول ما قلت على سبيل المجون ، والله ما كفرت بالله قط ولا شككت فيه فخلى سبيله ، ورق له »[٢٥] .

وتعددت مظاهر المجون فى شعر آدم بن عبد العزيز ، بين الخمر ، وبين الاستخفاف ، والتفكه بالآخرين ، والسخرية والاستهزاء ، إلى درجة دفعت الآخرين إلى الاستغاثة بالمهدى ، يستجيرون به من هجاء آدم الساخر ، ومن مزاحه الثقيل ، ولكن المهدى لم يكن المتزمت المتشدد ، الذى يحارب الشعر الساخر ، ويمنع الشعراء من القول المستخف ، ولكنه كان يحافظ على الدين ، والدين فقط ، يمنع القول فى الخمر ، ويحارب ويقاتل الزنادقة ، ويتحقق ممن تثبت التهمة عليهم ، أما ما عرف من ظرف ودعابة عند بعض الشعراء ، فلم تشغل بال المهدى ، بل كان المهدى يجالسهم ، وينادمهم ويقربهم إليه .

لم يستجب المهدى لمن طلب منه أن يكف آدم عن قوله الساخر فيه ، مثلماجاء قوله فى سليمان بن المختار ، وسخريته من لحيته :

قد استوجب فى الحكم سليمان بن مختار
بما طول من لحيته جزا بمنشار
أو السيف أو الحلق أو التحريق بالنار[٢٦]

ويطلب أحد الحاضرين من المهدى ، أن يكف هذا الماجن عن الناس .

ومن الطبيعى أن الخمر وشربها ، وروح الدعابة التى تمتع بها آدم بن عبد العزيز كانت وراء اتجاهه إلى السخرية من الآخرين والاستخفاف بهم ، حتى فى مجالس الخلفاء .

ويبدو أن محاولات منع آدم بن عبد العزيز عن القول فى الخمر أو شربها تعددت ، وصدرت فى معظمها عن فقهاء ، ولم يستمع آدم إلى نصح الناصحين ، وظل معارضا للومهم ، حتى زاد به القول إلى حد الشك فى إيمانه ، وهنا يتدخل المهدى بسياطه ، وتهديده بالقتل ، ليرد على الماجن ، الذى تاب بعد هذا الموقف الحازم من الخليفة المهدى .

ومن قول آدم فى الخمر . معارضا لوم اللائمين ، ونصح الناصحين :

اسقنى واسقى خليلى فى مدى الليل الطويل
فى لسان المرء منها مثل طعم الزنجبيل
حتى ينل منها ثلاثا ينسى منهاج السبيل
فمتى ما نال خمسا تركته كالقتيل
إن سمعى عن كلام الـ ـلائمى فيها الثقيل

---

(٢٥) الأصفهانى - الأغانى - جـ ١٥ ص ٢٨٥ .
(٢٦) الأصفهانى - الأغانى - جـ ١٥ ص ٢٩١ .

لشديد الوقر إنى غير مطواع ذليل
قل لمن يلحاك فيها من فقيه أو نبيل
نعطس اليوم ونسقى فى غد نعت الطلول[٢٧]

ولولا تهديد المهدى للشاعر الماجن آدم بن عبد العزيز ، وخوف الشاعر من سياط المهدى ، ومن التهديد بالقتل إذا ثبتت زندقته ، وماأرتدع آدم . ولقد جاءت توبته فى كبير سنه ، واتخذت شكل مناجاة الذات الإلهية بعد ذلك ، حتى قيل عنه أنه تصوف ، وذلك لبعض أبيات يوردها له الأصفهانى فى أغانيه ، يقول فيها آدم بن عبد العزيز :

أحبك حبين لى واحد وآخر أنك أهل لذاكا
فأما الذي هو حب الطباع فشىء خصصت به عن سواكا
وأما الذى هو حب الجمال فلست أرى ذاك حتى أراك
ولست أمن بهذا عليك لك المن فى ذا وهذا وذاك[٢٨]

والواضح – للوهلة الأولى – أن أبيات آدم السابقة ، تتفق فى كثير من ألفاظها ومعانيها وموسيقاها وقافيتها مع أبيات لرابعة العدوية ، ولا يحتمل الموقف الشك فى نسبة الأبيات لأيهما ، فإن الاختلاف وإن كان بسيطا بين الشاعر والشاعرة ، يضعف من شبهة الانتحال لأحدهما .

ومن المعروف أن آدم مات سنة ١٦٠ هـ ، بينما ماتت رابعة فى سنة ١٨٥ هـ وقد عرفت رابعة بالتصوف ، وحب الذات الإلهية ، ولها من أشعار التصوف الكثير ، وربما استمعت رابعة إلى أبيات آدم . فكتبت على نهجها ، وعلى موسيقاها ، وتأثرت ببعض كلماتها ، أو كتبتها على الطريقة المعارضة ، وقد جاء فى أبيات رابعة :

أحبك حبين حب الهوى وحبا لأنك أهل لذاك
فأما الذى هوحب الهوى فشغلى بذكرك عمن سواكا
وأما الذى أنت أهل له فكشفك لى الحجب حتى أراكا
فلا الحمد فى ذا ولا ذاك ولكن الحمد فى ذا وذاكا

إن شعراء المهدى كثيرون ، التفوا من حوله ، واتسع صدره لهم ، كما اتسع مجلسه ، وشملهم كرمه ، فقد كان محبا للأدب ، يسمع له ، ويحفظ جيده ، ويتمثل به ، وينقد الماجن منه ، ولم يكن موقفه من الشعراء المجان أمرا فحسب بل تهديدا صارما ، إذا لم يقلع الشاعر الماجن عن مجونه ، وإذا لم يكف عن غيه .

---

(٢٧) الأصفهانى – الأغانى – جـ ١٥ ٢٨٧ ، ٢٨٨ .
(٢٨) الأصفهانى – الأغانى – جـ ١٥ ٢٨٧ ، ٢٩١ .

وقد ارتبط المهدى بالشعراء بروابط أدبية وفكرية متينة ، وإن موضوع شعراء المهدى من الموضوعات الشيقة التى لاتزال فى حاجة إلى دراسة أدبية مبتكرة حول علاقات الشعراء بالمهدى ودوره معهم فى التأثر والتأثير .

وكان المهدى يعجب بالشاعر ، وبوعظه وبحكمته ، حتى ولو لم يكن الشاعر مؤمنا بما يقول ، أو مقتنعا به تمام الاقتناع ، ويأمر بقتله أو يقتله بيده ، إذا انحرف الشاعر ، وصحت زندقته .

وفى مجالسة المهدى للشعراء ، إلزام واجبار لبعض الشعراء على ترك المجون دون أمر ، أو تهديد ، احتراما لمجالسته ، وحفاظا على منادمته ، وتأثرا بشخصيته ، وتفهما لها . حتى لا يحرموا من عطفه وتكريمه وتشجيعه .

ومن الشعراء الذين تابوا ، وأقلعوا عن مجونهم ، الشاعر الحسين بن مطير[٢٩] سنة ١٦٩ هـ ، فقد أحبه المهدى وقربه إليه ، ورأى فيه أداة قوية ، تمدح العباسيين ، وتدعو لدعوتهم ، وتناصر دولتهم فيستمع له ويجزل العطاء .

وفى طبقات الشعراء لابن المعتز ، وزهر الآداب للحصرى أشعار للحسين بن مطير ، يعبر فيها عن توبته ، وعن إقلاعه عن المجون ، يقول فيها :

خليلى ما بالعيش عيب لو أننا ... وجدنا لأيام الصبا من يعيدها
هل الله عاف عن ذنوب تسلفت ... أم الله أن لم يعف عنها معيدها[٣٠]

ويزداد الحسين بن مطير قربا من المهدى ، ويصدر فى شعره عن حكمة ، وخبرة ناضجة بالحياة ، ويدعو إلى تجنب الحرام ، ويعجب المهدى بشعره ، فيقول للمفضل الضبى « أسهرتنى البارحة أبيات الحسين بن مطير الأسدى ، قال : وما هى يا أمير المؤمنين ، قال : قوله :

وقد تغدر الدنيا فيضحى ... فقيرا ويغنى بعد بؤس فقيرها
فلا تقرب الأمر الحرام فإنه ... حلاوته تفنى ويبقى مريرها
وكم قد رأينا من تغير عيشه ... وأخرى صفا بعد إكدرار غديرها

فيجيبه المفضل الضبى ، مثل هذا فليسهرك يا أمير المؤمنين[٣١] .

ومن الشعراء الذين كان للمهدى دور واضح فى حياتهم ، الشاعر صالح بن

---

(٢٩) يراجع فى أخبار الحسين - طبقات ابن المعتز ١١٤ - ١١٩ - الأغانى جـ ١٦ ص ١٦ - ٢٧ - معجم الأدباء فوات الوفيات ١ : ١٨٥ جـ ١٠ ص ١٦٦ .

(٣٠) الحصرى القيروانى - زهر الآداب ٩٨ . وطبقات ابن المعتز ص ١١٧ .

(٣١) الأصفهانى - الأغانى جـ ١٦ ص ٢٠ .

عبد القدوس[٣٢] ، وكان صالح ممن وافق بشار فى عقيدته ، وإن لن يدرك شأوه فى الشعر ، « وكان يلقى دروسا بالبصرة فى فضائل مذهب الثنوية الفارسى ، ثم رحل إلى دمشق هربا من أعدائه ، فبعث المهدى فى طلبه ، وأمر بصلبه لاتهامه بالزندقة سنة ١٦٧»[٣٣] .

وقد اتهم صالح بن عبد القدوس - كما رأينا - بالزندقة ، وقد تكاثرت الأخبار التى تؤكد فساد دينه ، وضياع عقيدته ، وأنه كان يحارب أهل البلد فى دينهم ، دون أن يعتقد به ، فقد روى ابن المعتز عن مجون صالح وفساد عقيدته خبرا يقول فيه « اجتمع قوم يتناشدون الأشعار ، إلى أن حانت الصلاة، فقام القوم إلى ذلك ، وقام صالح فتوضأ وأحسن ثم صلى أتم صلاة وأحسنها ، فقال بعضهم : أتصلى هذه الصلاة ، ومذهبك ما تذكر ، فقال : إنما هو رسم البلد ، وعادة الجسد »[٣٤] .

ولصالح بن عبد القدوس أشعار كثيرة فى الحث على الزهد ، وتجنب الدنيا ، والترغيب فى الجنة ، والدعوة إلى طاعة الله عز وجل ، والتحلى بمحامد الأخلاق ، وذكر الموت والعبر ، وكان معظم شعره أمثالا وحكما ومنه ما يرويه ابن المعتز فى طبقاته :

تـأوبنى هم فبت أخـاطبـه ... وبت أراعى النجم ، ثم أراقبه
لما رابنى من ريب دهر أضرنى ... فـأنيـابـه يبـريـنى ومخـالبـه
وأسهـرنى طول التفكـر أننى ... عجيب لدهر ما تقضى عجائبه[٣٥]

ويبدى المهدى إعجابه بعلم صالح بن عبد القدوس وبغزارته ، ولا يمنعه هذا الإعجاب من أن يأمر بقتله ، وبصلبه لزندقته ، فقد صرح صالح بن عبد القدوس بأن أخلاق الانسان تظل معه ، حتى يوارى قبره ، ولو ادعى تركها ، وتظاهر بغيرها ، فيقول ابن المعتز « أخذ صالح بن عبد القدوس فى الزندقة ، فأدخل على المهدى ، فلما خاطبه أعجب به ، لغزارة أدبه ، وعلمه وبراعته ، ثم أمر فضربت عنقه ، وصلب على الجسر لقوله :

والشيـخ لا يتـرك أخـلاقـه ... حتى يوارى فى ثرى رمسه[٣٦]

ويتعجب ابن المعتز لحكمة صالح ، ويتعجب من اتهامه بالزندقة ، ويورد بعض أشعار صالح

---

(٣٢) يراجع فى أخبار صالح طبقات ابن المعتز ص ٩٠ - ت بغداد ص ٣٠٣ - معجم الأدباء ١٢ - ٦ - ١٠ .
(٣٣) بروكلمان - تاريخ الأدب العربى . جـ ٢ . ص ١٧ .
(٣٤) ابن المعتز - طبقات الشعراء - ٩٠ .
(٣٥) ابن المعتز - المصدر السابق - ٩١ .
(٣٦) ابن المعتز - طبقات الشعراء . ص ٩١ .

ابن عبدالقدوس ، التي تدل على زهده ، وعلى توبته ، وعلى عدم إصراره على ذنبه ، مثلما جاء في قوله :

فوحق من سمك السماء بقدرة ... والأرض صير للعباد مهادا
إن المصر على الذنوب لهالك ... صدقت قولي أو أردت عنادا[٣٧]

ومما يزيد من حيرة ابن المعتز ، ومن حيرة باحثين آخرين ، تلك الأقوال المنسوبة إلى صالح بن عبد القدوس ، وتبرئه من الاتهام بالزندقة ، وتؤكد صحة عقيدته ، وتسرع المهدى في قتله ، ومنها قول صالح :

أرى عاجزا يدعى جليدا لغشمه ... ولو كلف التقوى لفكت مضاربه
وعفا يسمى عاجزا لعفافه ... ولولا التقى ما أعجزته مذاهبه
وأحمق مصنوعا له في أموره ... يسوده إخوانه وأقاربه
على غير حزم في الأمور ولا تقى ... ولا نائل جزل تعد مواهبه
إذا أكمل الرحمن للمرء عقله ... فقد كملت أخلاقه ومناقبه[٣٨]

ويعلق ابن المعتز على الأبيات بقوله « فيا عجبا كيف يمكن أن يقول زنديق مثل هذا القول ؟ وكيف يكون قائله زنديقا »[٣٩] .

ويروى ابن المعتز أيضا ، أن أحمد بن ابراهيم المعبّر قال : « رأيت صالح بن عبد القدوس في المنام ضاحكا مستبشرا ، فقلت له ، ما فعل الله بك ؟ وكيف نجوت مما كنت فيه ؟ فقال : إني وردت على رب لا تخفى عليه خافية ، فاستقبلني برحمته ، وقال : قد علمت براءتك مما كنت تعرف به وترمى باعتقاده »[٤٠] .

ولسنا بصدد الدفاع عن زندقة صالح ، أو اتهامه بها ، إنما يعنينا موقف الخليفة المهدى من الشعراء المجان ، ولعله لم ير في توبة صالح صدقا ، وإنه كان يتظاهر بها ، ولعل من يتخذ موقف الدفاع عن صالح وعن عقيدته يأتي بالأبيات التي تدل على الحكمة والموعظة الحسنة ، ويبعد عن الأبيات التي تثير الشكوك والشبهات حول صحة عقيدة صالح .

وكان لتصرف المهدى مع صالح ، وقتله له ، أثر بارز في ردع الشعراء المجان ، وخوفهم من تهمة الزندقة ، وخشية أن يصيبهم ما أصاب صالح ، فأعلنوا توبتهم ، وثابوا إلى إيمانهم ، فكان لعقاب المهدى لواحد منهم خير درس للآخرين ، فلما قتل صالح عبد القدوس ، أعلن الشاعر على بن الخليل توبته ، وعاد إلى إيمانه ، وصحت عقيدته ، فيقول على بن الخليل :

---

(٣٧) ابن المعتز - المصدر السابق . ص ٩١ .
(٣٨) ابن المعتز - المصدر السابق . ص ٩١ .
(٣٩) المصدر السابق - ص ٩١ .
(٤٠) ابن المعتز - طبقات الشعراء - ص ٩٢ .

على اللذات والراح السلام تقضى العهد وانقطع الذمام
مضى عهد الصبا وخرجت منه كما من غمده خرج الحسام
وقرت على المشيب فليس منى وصال الغانيات ولا المدام
وولى اللهو والقينات عنى كما ولى عن الصبح الظلام[41]

ولم يكن الخليفة المهدى متسرعا فى اتهامه ، أو فى عقابة فلم يأمر بقتل شاعر زنديق إلا بعد أن يتأكد من التهمة ، وثبوتها عليه فما أكثر من اتهم بالزندقة من الشعراء فى عصر المهدى ، وعفا المهدى عن الكثير ، وأمر بقتل بعضهم .

ومن هؤلاء الشعراء ، الذين أحضروا للمهدى بتهمة الزندقة ، وتأكد المهدى من براءته ، فلم يعاقبه ، وعفا عنه ، الشاعر ابراهيم بن سيابه .

وكان ابراهيم بن سيابه يرمى بالزندقة ، « وأحضر المهدى كتبه ، فلم يجد فيها شيء من ذلك ، فآمنه واستكتبه ، وكان يكتب فى مجلسه ، وبين يديه ، ثم صح عنده أن فيه شيئا مما كان اتهم به ، فاطرحه وأقصاه ، فساءت بعد ذلك حاله ، واحتاج إلى مسألة الناس ..

ويقول ابن سيابه فى ذلك :

قد كنت قبل اليوم ادعى مسلما واليوم صار الكفر من أسمائى
ولكن الزمان برى عظامى ومالى كالدراهم من دواء[42]

ويكفى أن يتهم الشاعر حتى يبعده المهدى من مجلسه ومن مجالسته . ويتكرر الموقف مع حماد عجرد ، ولم يكن اتهامه زندقة ، إنما كان فى هذه المرة اتهام بالشرب والسكر « فقد شرب حماد عجرد مع أبى دلامة يوما ، فسكرا من الخمر فطلبوهما ، فأما أبو دلامة فهرب ، وأما حماد فأخذ ، فأتى به المهدى ، فقال : استنكهوه . ففعلوا فشموا منه رائحة الخمر . فأحب أن يعبث به ، فقال : يا عدو الله ، أتشرب الخمر وتسكر ؟ أنى سأقيم عليك الحد ولا تأخذنى فى الله لومة لائم ، وقال احبسوه حتى يصحو ، فمضى به إلى بيت فيه دجاج فكتب إلى المهدى :

أمير المؤمنين فدتك نفسى علام حبستنى وخرقت تاجى
أقاد إلى السجون بغير ذنب كأنى بعض عمال الخراج
أمن صهباء ريح المسك منها ترقرق فى الأناء لدى المزاج
وقد طبخت بنار الله حتى لقد كانت من النطف النضاج
على أنى ولن لاقيت شرا لخيرك بعد ذاك الشر ناج[43]

---

(٤١) الأصفهانى - الأغانى جـ ١٣ ص ١٤ .
(٤٢) طبقات الشعراء - ص ٩١ .
(٤٣) ابن المعتز - طبقات الشعراء . ص ٧١ .

وحماد عجرد من الموالى ، نشأ بالكوفة ، وكان أبوه نبالا ، يبرى النبل ، وكان يمجن مع يحيى بن زياد ، وكان ابن زياد خليعا ماجنا ، اتهم بالزندقة ، وقيل أنه تاب وأناب بآخره ، وهجا حمادا ، فكتب إليه حماد :

إن كـان نسكـك لا يتـــ ـم بغـير شتمى وانتقـاصي
فـعليـك فـاشـتـم آتـنـا كـل الآمـان من القصـاص
فـلطالمـا زكـيـتـنى وأنـا المقيم عـلى المعـاصى[44]

ومن المؤكد أن يحيى بن زياد خشى تهديد المهدى ، وخشى من عقابه ، للزنادقة ، فقطع صلته بحماد ، وأعلن توبته .

إن موقف المهدى من شعراء المجون ، لم يتخذ شكلا داميا ، وإنما كان يتشكل حسب درجة مجون الشاعر ، وحدة المجون وخطورته ، وكان المهدى محبا للأدب ، وقد تعلم على يد المفضل الضبى ، ولم يخف عليه قول الشعراء تظرفا واستهتارا وسخرية ، أو قولهم استخفافا بالدين .

ومن مواقف المهدى مع الشعراء المجان ، ألا يجالسهم ولا ينادمهم، حتى ولو أعجب ببعض أشعارهم ، ومن أمثلة ذلك موقف المهدى مع الشاعر والبة بن الحباب ، فقد أعجب المهدى بشعره وبسعة حفظه ، ولكنه امتنع عن منادمته ، لاستهتاره ولما عرف عنه من مجون .

وقد روى عن والبة قوله : « رأيت إبليس فيما يرى النائم كأنه أتانى فقال لى : ترى غلامك الحسن بن هانىء هذا ؟ إنه له شأنا . والله لأغوين به أمة محمد عليه السلام ، ولألقين محبته فى قلوبهم[45] .

ويقول ابن المعتز فى طبقاته : « إن المهدى ذكره ذات يوم فقال : ماأشعره وأملح شعره ، وهو مع ذلك أديب واسع الحفظ ، فقيل له ، ما يمنعك من منادمته ، فقال قوله ...»[46] .

ومن أشهر المجان من الشعراء ، الذين كان لهم دور بارز مع الخليفة المهدى ، الشاعر (بشار بن برد) :

وقد تعددت الاتهامات التى وجهت إلى بشار ، وتضاربت الآراء حول مواقفه مع المهدى . واختلفت الروايات حول هذه الاتهامات التى أثيرت حول عقيدة بشار . وظهر هذا الاختلاف واضحا فى آراء رواة الأخبار المعاصرين لبشار ، والتالين لعصره ، وفى أخبار مؤرخى الآداب ، وفى تراجمهم ، وفى آراء الباحثين المحدثين - أيضا .

إن جانب المجون فى حياة بشار وفى شعره ليس فى حاجة إلى تأكيد ، ولكن جانب التوبة فى حياته وفى شعره هو الجانب الذى يحق للباحثين توضيحه .

---

(٤٤) الأغانى - جـ ١٥ ص ٢٨١ .
(٤٥) ابن المعتز - طبقات الشعراء ص ٨٧ .
(٤٦) المصدر السابق ص ٨٨ .

لقد كان بشار غزلا ، فاجرا مستهترا ، لا يقيم للعفة وزنا ، وكان يتهم النساء بالعهر والفحش ، كما كان بشار صاحب خمر ، يتغنى بها ، وينظم فيها أشعارا كثيرة ، كما اتهم بسوء العقيدة ، واتهم بالكفر والالحاد مع الزندقة ، والخروج على الدين ، وإنكاره ، لكثير من الأصول والشرائع .

ولبشار أبيات تؤكد تفضيله النار على الطين ، وتفضيله إبليس على البشر ، وله أشعار أخرى يستخف فيها بالعبادات الاسلامية ، ويسخر من القائمين عليها ، ومن المتمسكين بها ..

وكان المهدى يقرب بشار منه – فى أول أمره – ويستمع إليه ، ويعجب ببعض شعره ، ويجزل له العطاء ، وكان بشار يعظ المهدى حين موت ابنته البانوقة ، كما يروى الحصرى فى زهر الآداب .

ويتطور موقف المهدى مع بشار بعد ذلك ليأخذ نمطا آخر ، حين يحذر المهدى بشاراً من الغزل الفاجر ، ويأمره بالاقلاع عن القول فيه ، ويأخذ موقف المهدى شكلا آخرا متشددا جادا حين ، يتأكد من زندقة بشار ، فيأمر بقتله ، ويضربه بالسياط حتى الموت .

وقيل أن المهدى تأثر بعد قتله بشار ، وقد فتش فى كتبه فلم يجد فيها ، دافعا إلى عقابه وقتله .

إن موقف الخليفة المهدى من بشار ، دفع بشار إلى التوبة دفعا ، ويعلن بشار توبته خوفا من عقاب المهدى ، ويتحايل للرجوع إلى المجون ، ويتحايل ليخرج من توبته المجبر عليها إجبارا ، ويكثر من الثناء على المهدى .

ومن الذين أدانوا بشارا ، واتهموه بالرجعة الجاحظ ، فى قوله « إن بشارا كان يدين بالرجعة » وهى الايمان بالرجوع بعد الموت فى الدنيا ، ويكفر جميع الأمة .[٤٧] وينشد له أشعارا يحبذ فيها رأى إبليس فى تقديم النار على الطين .

ويروى الأصفهانى قولا لداود بن رزين جاء فيه « أتينا بشارا فأذن لنا ، والمائدة بين يديه ، ولم يدعنا إلى الطعام ، فجلسنا فحضر الظهر والعصر والمغرب ، فلم يصل ، ودعا بطست فبال فى حضرتنا »[٤٨] .

ويؤكد الشريف المرتضى زندقة بشار ، ويقول إنه كان دهريا « وهم قوم ذهبوا إلى قدم الدهر ، وإسناد الحوادث إليه ، ولا يؤمنون بالآخرة »[٤٩] ويعد الأصفهانى بشارا من رجال الكلام الستة وهم « عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء ، وبشار الأعمى ، وصالح بن

---

(٤٧) الجاحظ . البيان والتبين جـ ١ ص ٢٤ . والحصرى فى زهر الآداب ص ٤٢٤ .

(٤٨) الأغانى جـ ٣ . ص ١٨٦ .

(٤٩) القالى (أبو على القالى البغدادى) الأمالى – ط القاهرة – جـ ١ ص ٢٤٨ .

عبد القدوس ، وعبد الكريم بن أبى العوجاء ، وجرير بن حازم »[٥٠] وقد قتل منهم ثلاثة وهم عبد الكريم بن أبى العوجاء وصالح بن عبد القدوس ، وبشار..

وفى طبقات الشعراء المحدثين ، يروى ابن المعتز أن بشارا « كان يمدح المهدى ويحضر مجلسه ، وكان يأنس به ، ويدنيه ، ويجزل له فى العطاء ، وكان صاحب صوت حسن ومنادمة ، وكان إذا حضر المهدى فى مجلس مع جواريه ، بعث إليه لأجل المسامرة والمحادثة » .

ويصور هذا الخبر أدنى درجات التعامل بين المهدى وبشار ، وهى درجة التقرب والرضا والمسامرة ، وفيها لم يكن بشار قد خرج عن حدود اللياقة فى غزله ، ولم تثبت عليه بعد تهمة الخروج عن الدين ، وفساد العقيدة .

وفى هذه المرحلة أيضا - من مراحل التعامل بين بشار والمهدى - يعظ بشار المهدى فى موت ابنته البانوقة فيقول له ، كما يروى الحافظ البغدادى فى تاريخ بغداد « يا ابن معدن الملك ، وثمرة العلم ، إنما الخلق للخالق ، وإنما الشكر للمنعم ، ولابد مما هو كائن ، كتاب الله عظتنا ، ورسول الله أسوتنا فأية عظة بعد كتاب الله ، وأية أسوة بعد رسول الله ﷺ ، مات فما أحسن الموت بعده »[٥١] .

ومن أقوال بشار ما روى فى غرر الخصائص الواضحة « لقد عشت فى زمان ، وأدركت أقواما ، لو احتفلت الدنيا ما تجمعت إلا بهم ، وإنى الآن لفى زمان ، ما أرى فيه عاقلا حصيفا ، ولا فاتكا ظريفا ، ولا ناسكا عفيفا ، ولا جوادا شريفا ، ولا خادما نظيفا ، ولا جليسا خفيفا ، ولا من يساوى على الخبرة رغيفا .

فما الناس بالناس الذين عرفتهم ولا الدار بالدار التى كنت أعرف

وقال له الأصمعى : يا أبا معاذ ، إن الناس يعجبون من أبياتك فى المشورة ، فقال له يا أبا سعيد ، إن المشاور بين صواب يفوز بثمرته ، أو خطأ يشارك فى مكروهه ، قال : قلت له : أنت والله فى قولك هذا أشعر منك فى شعرك »[٥٢] .

إن هذه اللمحات الفكرية ، التى بدت فى نثر بشار وفى شعره ، قربته من المهدى فى بداية تعارفهما ، وجعلته من جلسائه ، فقد كان لبشار من مصادر الثقافة العامة والخاصة ، ما أمدته بالمعنى الحكيم . مما ساعده على اختيار الكلمة المؤثرة ، فى معنى موحى ، مع بديهة تمده بالطريف فى المعنى وفى اللفظ .

فقد عاش بشار فى مجتمع يضم العلماء والمفكرين ، ويضم الوعاظ والقصاص . وكان يجلس

---

(٥٠) الأصفهانى - الأغانى جـ ٣ ص ١٤٦ .

(٥١) الحافظ البغدادى - تاريخ بغداد - دار الكتاب العربى - بيروت - جـ ٧ ص ١١٨ .

(٥٢) الأصفهانى - الأغانى جـ ٣ ص ١٤٧ .

إلى واصل بن عطاء ، ويستمع إليه ، ويحاوره ، قبل أن ينقلب عليه ، وقد مثل بشار فى بعض نثره ، وفى بعض شعره جانبا واحدا من جوانب المجتمع البصرى ، الذى جمع بين الزهد والمجون .

وفى الحلقة الثانية من حلقات التعامل بين المهدى وبشار ، كان الشاعر فيها أسرف فى غزله الفاجر ، فأمره المهدى بالكف عن هذا اللون من الغزل المكشوف . حتى قيل أن من أسباب قتل المهدى له قوله فى الغزل ، وقد روى هذا القول ابن المعتز فى طبقاته ، حين قال : « والصحيح عند أهل العلم أن المهدى قتله بهجوه يعقوب بن داود وزيره لقوله :

ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا خليفة الله بين الزق والعود

وقال قوم بل قتله على قوله :

لا يـوئسنـك من مخبـأة قـول تـغلظه وإن قـبحـا
عسر النسـاء إلى ميـاسرة والصعب يمكن بعد مـاجمحا

فقال المهدى : رميت جميع نساء العالمين بالفاحشة[٥٣] .

ويقول أبو الفرج الأصفهانى « قدم بشار على المهدى بالرصافة ، فدخل عليه فى البستان ، فأنشده مديحا فيه تشبيب ، فنهاه المهدى عن التشبيب ، لغيرة شديدة كانت فيه ، وفى ذلك يقول بشار :

تحاللت عن فهر وعن جارتى فهر وودعت نعمى بالسلام وبالبشر
ومنها تركت لمهدى الأنام وصالها وراعيت عهدا بيننا ليس بالختر
ولـولا أمـير المؤمنـين محمـد لقبلت فاها أو لكان بها قطرى[٥٤]

ولم يكن الدافع إلى قتل بشار هو الهجاء أو الغزل ، فقد أمره المهدى بالاقلاع عن قول الغزل ، فامتثل الشاعر لأمر الخليفة بعض الوقت ، ثم عاوده الحنين إلى الغزل مرة أخرى ، وكثيرا ما كان بشار يشير إلى ذلك فى مثل قوله :

قال الخليفة لا تنسب بجارية إياك اياك أن تشقى بعصيانه[٥٥]

وقوله :

لـولا أمـير المؤمنين سقيتهـا أو أما يناجينا بها حيث صلت[٥٦]

---

(٥٣) ابن المعتز - طبقات الشعراء - ص ٢٤ .
(٥٤) ديوان بشار جـ ٣ ص ٤٥ .
(٥٥) ديوان بشار جـ ٤ ص ٣٦ .
(٥٦) ديوان بشار جـ ١ ص ٤٥ .

ولم يكن المهدى أول خليفة مسلم ، يمنع شاعرا من الغزل الفاجر ، فقد سبقه فى ذلك عمر ابن الخطاب « فقد روى عبد الله بن السيد البطليوسى فى الاقتضاب فى أدب الكاتب فى الجزء الثالث أن عمر بن الخطاب عهد إلى الشعراء ألا يتشبب رجل منهم بإمرأة ، وتوعدهم على ذلك ، فكان الشعراء يكنون عن النساء بالشجر ، ولذلك قال حميد بن ثور :

سقى السرحة المملاك والأبرق الذى ... به السرى غيث دائم وبروق
وهل أنا إن عللت نفسى بسرحة ... من السرح مأخوذ إلى طريق
أبى الله إلا أن سرحة مالك ... على كل أفنان العضاة تروق[٥٧]

ولم يكن موقف المهدى من غزل بشار مأخوذا من موقف أمير المؤمنين عمر ، ولم يكنى بشار عن النساء بالشجر ، ولم يكن حميد بن ثور - أيضا - أول من كنى عن النساء بالشجر ، فقد ذكر الجرجانى فى كتابه الكنايات « أن التكنية بالشجر وغيره عن المرأة قديمة فى كلام العرب من عصر الجاهلية »[٥٨] ولكن المهدى اتخذ موقفه من طبيعة الأمور التى تجرى من حوله ، ومن طبيعته الخاصة وغيرته على نساء المسلمين ، فمنع بشار من القول غير المشروع ، بعد أن تطاول بشار فى قوله ، فقد كان بشار فاتكا جسورا متطاولا على أعراض المسلمين « يكثر من القول البذىء الخادش للحياء ، ففتح بابا للشعر الذى يشكك فى عفة النساء ، مما دفع المهدى إلى منعه من الغزل كله ، فقد كان شعره يعتبر خطرا على الحرائر ، وكان لبعض شعر بشار أثر فى الإفساد »[٥٩] .

ومما يؤكد نفى قتل بشار لقوله « لايؤيسنك من مخبأة ...» أن هذه الأبيات - بعينها - هى التى أغاظت المهدى ، وجعله يأمر بشار بعدم القول فى الغزل ، وظل بشار يعتذر عن ذلك كثيرا فى بعض أشعاره ، التى يشير فيها إلى أمر الخليفة . ويقول الحصرى القيروانى « أن ذلك بلغ المهدى فغاظه ، وقال يحرض النساء على الفجور ، ويسهل السبيل إليه ، فأمر المهدى ألا يتغزل[٦٠] فقال بشار :

يا منظرا حسنا رأيته ... فى وجه جارية فديته
بعثت إلى تسومنى ... ثوب الشباب وقد طويته
والله رب محمد ... ما أن غدرت ولا نويته
إن الخليفة قد أبى ... وإذا أبى شيئا أبيته
ويشوقنى بيت الحبيـ ... ـب إذا غدوت وأين بيته

---

(٥٧) ديوان بشار جـ ٣ ص ٤٦ .
(٥٨) ديوان بشار ص ٤١ .
(٥٩) د. مصطفى الشكعة - رحلة الشعر من الأموية إلى العباسية - بيروت - ص ٥٥٣ .
(٦٠) الحصرى القيروانى - زهر الآداب - جـ ١ ص ٤١٨ .

قـام الخـليـفـة دونـه فصبرت عنه وما قليته
ونهانى الملك الهما م عن النساء فما عصيته[٦١]

لقد نجح بشار فى جعل نهى الخليفة موضوعا جديدا من موضوعات شعره ، يظهر فيه امتثاله لأمر الخليفة ، ولكنه يتغزل فى النساء وبطريقة مبتكرة ، ويخالف فيها طريقته الأولى ، ويخالف فيها طرق السابقين والمعاصرين له من شعراء الغزل .

إن بشار يتغزل ، ويذكر النساء ، ويصرح بأسمائهن - فى كثير من الأحيان - ويصور شوقه إلى حبيبته ، ويعبر عن عاطفة متكلفة ، وعن حنين مصطنع ، ولكنه يتغزل ، فهى حسنة المنظر ، جميلة هذه الجارية ، ولكنه معذور فلا يستطيع إليها سبيلا ، فهو مقيد بأمر المهدى ، لا يقدر تجاوزه ، ولا يمكنه التحلل من عهود له ..

إن الشاعر فى هذا اللون الجديد من ألوان غزله ، يشكل موضوعه من مضامين جديدة عناصرها التوبة ، والغزل ، ومدح الخليفة . فقد جعل بشار من مدح المهدى جانبا بارزا من جوانب هذا اللون الجديد ، فهو يمدح المهدى بالجد والالتزام والخوف على صالح المسلمين ، ويمدح بدوره فى تنقية جو المجتمع من الشرور ومن النساء ، ومن الأقوال التى تخدش الحياء . وهو مدح بطريق غير مباشر ، لجأ الشاعر إليها كثيرا ، فى مقطوعاته التى تكرر فيهاتصويره لأمر الخليفة .

المهدى لا يتدخل فى هذا اللون من قول بشار، فالشاعر يذكره بالخير، والشاعر بدا ذكيا فى محاولاته هذه ، فهو يقول فى المرأة ، ولكنه يلتزم جانب العفة ، ويعتذر لها ولنفسه وللخليفة - أيضا - ، فقد أضحى - الخليفة حائلا بين الشاعر وبين رغبته فى القول الفاجر ، وهو لا يستطيع أن يقول فى المرأة دون أن يذكر المهدى وأمره له ، ودون أن يصور امتثاله وطاعته للخليفة ، والاستجابة لصوت أمير المؤمنين المجاب :

أفنيت عمرى وتقضى الشباب بين الحميا والجوارى العذاب
فـالآن شفعت إمـام الهـدى وربمـا طـبت لحـب وطـاب
لهـوت حـتى راعنى راعـيـا صوت أمير المؤمنـين المجاب
لبيـك لبيـك هجـرت الصبـا ونـام عذالى ومـات العتـاب
أبصرت رشدى وتـركت المنى وربما ذلت لهن الـرقـاب[٦٢]

إن توبة بشار عن القول فى الغزل الفاجر ، سارت فى خطوات متتابعة ، الخطوة الأولى تمثلت فى تلك الشكوى اللطيفة ، التى قدمها بشار فى ألفاظ رشيقة يقدم الشاعر من خلالها

---

(٦١) ديوان بشار جـ ٢ ص ٢٠ .
(٦٢) ديوان بشار جـ ١ ص ٢٩٦ ، وزهر الآداب جـ ١ ٤١٩ ، ٤٢٠ .

اعتذاره للجاريات عن وصالهن ، ويلقى بالذنب على الخليفة ، لا عليه ، والخطوة الثانية ، يذكر فيها المرأة ويربط بينها وبين أمر الخليفة له ، والثالثة ، يمدح فيها المهدى فقد أرشده طريق الهدى ، وأبعده عن طريق الغواية ، فذاق طعم التقى ، ويشكره على موقفه منه . حتى مزج الشاعر بين الغزل وبين مدح المهدى ، كما مزج بين مدح المهدى وأمره له بالبعد عن الغزل المكشوف .

إن هذا الموقف قد دفع الشاعر دفعا ، إلى أن يعلن زهده فى النساء ، ويعلن توبته عن القول الفاجر ، وهى توبة مصطنعة ، وزهد متكلف ، وربما كان غزله هو الآخر مصطنع ، وإن كان الفجر فى القول دون السلوك ، كذلك كان الزهد والتوبة فى القول دون الاعتقاد أو الإيمان بهما .

ويصرّح بشار بتوبته ، وزهده فى لقاء النساء فيقول :

لوت حاجتى عن اللقاء وأنكرت ... مواعيد قد صامت بهن وصلت
ولولا أمير المؤمنين سقيتها ... أو أما يناجينا لها حيث حلت[٦٣]

يعنى لولا نهى الخليفة إياه عن الغزل ، لم يزل يقول فيها الشعر حتى يرسخ فى نفسها ، فلا تنسى محبته ، حيث انتقلت .

وترد الحكمة فى أبسط صورها ، فى تعبير بشار عن موقف المهدى ، فيقول بشار فى شعره :

ليس من قابل الأمور وحيدا ... بحليم فيها ولا بمصيب
فاستشر ناصحا أريبا فإن الـ ... ـحظ فى طاعة النصيح الأريب
قد يصيب الفتى أطاع أخاه ... ومطيع النساء غير مصيب
غير أن الإمام أمسكنى عنـ ... ـك فقولى فى ذنبه لا ذنوبى[٦٤]

وتتغير طريقة بشار فى غزله ، بعد أمر الخليفة ، ولم يعد ذلك الجسور الجرىء ، بل ينفى عن نفسه الإثم والذنوب ، وإن علاقاته بالنساء لم يقع فيها خلوة أو حدث غير شرعى ، ولذلك فمن أى شىء يتوب ، ما دام لم يذنب ، ولم يرتكب إثما .. فيقول :

وقائلة : إن كنت فى طلب الصبى ... فلابد أن تحصى عليك ذنوب
فرم توبة قبل الممات فإننى ... أخاف عليك الله حين تؤوب
تكلف إرشادى وقد شاب مفرقى ... وحملنى أهلى فليس أريب
فقلت لها : لم أجن فى الحب بينا ... أثاما على نفسى ، فمم أتوب
أرانا قريبا فى الجوار ونلتقى ... مرارا ولا نخلو ، وذاك عجيب[٦٥]

(٦٣) ديوان بشار جـ ٢ ص ٨ . (أواما العطش) .
(٦٤) ديوان بشار جـ ١ ص ٢٢٤ .
(٦٥) ديوان بشار جـ ١ ص ٢٠٦ .

ويصور أمر الخليفة ، وأن الموت أيسر له من ترك النساء ، ولكنه مجبر على التوبة ، ومضطر إلى الزهد فى النساء ، فقد تاب وشرع فى السير فى طريق التقوى والدين والصلاح ، فيقول بشار :

نهانى الخليفة عن ذكرها ... وكنت بما سره أكدح
فأعرضت عن حاجتى عندها ... وللموت من تركها أروح
فهذا أوان انقضت شرتى ... وشرعت فى الدين لا أطلع[٦٦]

ويشتد خوف الشاعر من المهدى ، يصوره فى هيئة الأسد الذى يفتح فاه ليلتهمه ، إذا تغزل فى النساء ، ولولا هذا الخوف مازهد فى الغزل ، ولا تاب عن قوله فيهن ، فيقول بشار :

تمثل لى وجه الخليفة دونها ... فقل فى حبيب دونه أسد شاح[٦٧]

ومن الأفكار التى اشتملت عليها غزليات بشار بعد توبته المجبر عليها ، ترقب الخليفه له ، وتوقيعه غدر بشار ، وتحلله من عهده الذى قطعه عليه ، وكذلك خوف بشار من ضعف النفس ، ومحاولتها التردى إلى ما كانت عليه من مجون ، والعودة مرة أخرى إلى الغزل وإلى النساء ، وعندما يشتد خوفه ، ويشعر بعجزه وبضعفه ، وبشدة المهدى وقسوة عقابه يضطر إلى فلسفة الموقف ، وإلى البحث عن مبرر لبعده عن النساء ، فيمدح المهدى ويشكره ، ويتوب ويستغفر من ذنوبه ، ويعترف بما ارتكبه من آثام ، ويعلن توبته منها :

وفى ترقب المهدى له ، ومتابعة موقفه ، وتوقعه مخالفته ، يقول بشار :

وقد نهانى الإمام فانصرفت ... نفس له والإمام يرتقب[٦٨]

لقد كان بشار مدفوعا إلى التوبة بأمر الخليفة ، لا بأمر عقله أو كبر سنه ، ولولا نهى المهدى لرجع بشار إلى مجونه ، وإلى قوله الفاجر فى النساء ، وفى هذه المعانى يقول بشار :

إذا فرغت كأس امرىء خر ساجدا ... وصب لنا صفراء فى طيب تفاح
على ذاك حتى ردنى عن جهالة ... وما الناس إلا طالب اللهو أوصاح
ولولا أمير المؤمنين محمد ... رجعت بأخرى .. ومن الناس ملواح
فآليت ألا آلو الخليفة طاعة ... ولا أبتغى أذنا على ذات أوشاح
تركت تجارات المعازف رائحا ... وأعرضت عن رواح وعن قينتى راح[٦٩]

ويقسم بشار الناس إلى مجان أو تائبين عن المجون ، ويعلن توبته وبعده عن الخمر وعن

---

(٦٦) ديوان بشار جـ ٢ ص ٨١ .
(٦٧) ديوان بشار جـ ٢ ص ٨٧ (شاح : فاغر فاه) .
(٦٨) ديوان بشار جـ ١ ص ٢٦٤ .
(٦٩) ديوان بشار جـ ٢ ص ٨٨ .

النساء ، ويهجر اللهو ، فقد أقسم ألا يعصى أمر الخليفة المهدى ، ويمدحه ليشير إلى النساء وإلى بعده عنهم :

يا مالك الناس فى مسيرهم ... وفى المقام المطير من رهبه
لا تخشى عذرى ولا مخالفتى ... كل إمرىء راجع إلى حسبه
كشفت عن مرتع وجنته ... عودا وكنت الطيب من وصبه[٧٠]

والأبيات تصور خوف بشار من عقاب الخليفة وتصويره لأمره له ، بالبعد عن مغازلة النساء وهو لا يحتاج إلى من يذكره بأمر الخليفة حتى لا يهتم بعدم الامتثال ، وبعصيان المهدى .

ويحمد الله على توبته ، وعلى زهده فى مجونه ، فقد قضى الإمام المهدى بذلك ، وهو له من الطائعين . فيقول بشار :

قضى الامام المهدى طعنة ... عن رأس أخرى كانت على أربه
فالحمد لله لا أساعف بالـ ... ـهو ، ولا انتهى بكتنبه[٧١]

ان العهد الذى أخذه المهدى على بشار كان غليظا موثقا ، لم يستطع بشار التحلل منه ، ومن الواضح أن المهدى كان يفهم نفسية بشار جيدا ، ويتوقع احتمال عودة بشار إلى المجون مرة أخرى ، فيعيد المهدى عليه أمره ، أكثر من مرة ، ولا ييأس من تهديده له ، والشاعر يؤكد التزامه الدائم ، فقد تاب عن مجونه ، وزهد فيه فيقول :

وقد تبت فاقبل توبتى يابن هاشم ... فإن الذى بينى وبينك مدمج[٧٢]

ويصور بشار توبته – فقد يأس من العودة إلى المجون ، فيكثر من الموعظة فى شعره ، ومن الاستغفار عن ذنوبه ، فإن الموت قريب منه ، يرصد حركته ، وليس للانسان إلا ما قدم من فعل الخير ، وإن المجون الذى ارتكبه بشار كان عن جهالة ، وها هو ذا يزهد فى مجونه ، ويتوب عنه . فيقول :

حتام أدعو الصبى وأتبعه ... والموت دان والله بالرصد ؟
كل امرىء تارك أحبته ... وصائر تربة من البلد ؟
لا تعجل الأمر قبل موقته ... ما حم آت والنفس فى كبد
قد تبت مما كرهت فاحتسبى ... غفران ما جنت غير معتمد
ما للفتى غير ما أعطى الاله وما ... يمنع فذلك بشىء غير موجود[٧٣]

---

(٧٠) ديوان بشار جـ ١ ص ١٨٢ / ١٨٣ .
(٧١) ديوان بشار جـ ١ ص ٢٧٣ .
(٧٢) ديوان بشار جـ ٢ ص ١٧ ، (مدمج : محكم الربط والفتل) .
(٧٣) ديوان بشار جـ ٢ ص ١٣٢ .

ويدعو بشار إلى الزهد ، والبعد عن المجون ، فيقول :

فـدع الـغـوى وذنـبـه فعليه ليس عليك ذنبه[٧٤]

ويصور تغير النفس ، وتبدلها من حالة إلى أخرى ، فيقول :

إذا ينست نفس امرىء من قرينة تبدل أخرى مركب بعد مركب[٧٥]

وتمثل الحلقة الثالثة من حلقات التعامل بين بشار والمهدى ، أشد هذه الحلقات وأخطرها ، وهى مرحلة اتهام الشاعر فى دينه ، والتأكد من زندقته ، وأمر المهدى بقتله .

ويختلف الباحثون بين مؤكد لزندقة بشار ، وبين منكر لها ، ويرى البعض أن ما قاله كان من باب الظرف والدعابة والاستخفاف ، ويحاول آخرون تلمس بعض المبررات لتطرفه فى القول ، ويرجعون ذلك إلى عوامل سياسية أو شعبية ، أو شخصية تجسدت فى كراهية بشار لوزير المهدى ، وفى هجائه ، مما أوغر صدره عليه ، وعجل بنهاية بشار .

ويرتبط غزل بشار الماجن ، بسوء عقيدته ، وضعف إيمانه ، فقد ربط الشاعر بين المجون والعبادات ، واستهزأ من شعائر الحج ، وجاء ذلك كله فى معرض حديثه عن المرأة ، مما أكد لخصومه زندقته .

إن بشار يعلن أنه يصلى من أجل المرأة ، ويصوم من أجلها أيضا ، وأن المرأة هى حديثه فى صلاته ، وهو مشغول بها ، فيقول :

فـإذا قـمـت أصـلـى عـرضـت لى فى صـلاتى
ليـتـنى أعـطـيـت مـنـهـا لـيـلة فى حـسـنـاتى[٧٦]

وفى المرأة وفى انشغاله بها ، وقت الصلاة ، يقول بشار :

قـل لحـبـى قـربـيـنى أنـت نـفـسـى وحـيـاتى
وهـمـومـى حـين أغـدو وحـديـثـى فى صـلاتى[٧٧]

ويقول فى عبده :

حدثتنى العيون عنها فخالفـ ـت المصلى أدعو لها مكباً[٧٨]

ويسهو فى صلاته ، يفكر فيها ، وينسى عدد ما أتم من ركعات ، ويعد سجداته بالحصى ، لانشغاله بها ، فيقول :

---

(٧٤) ديوان بشار جـ ١ ص ١٩٦ .
(٧٥) ديوان بشار جـ ١ ص ١٩٧ .
(٧٦) ديوان بشار جـ ٢ ص ٩٣ .
(٧٧) ديوان بشار جـ ٢ ص ٢٨ .
(٧٨) ديوان بشار جـ ١ ص ٣٩٣ .

أعد سجودى بالحصى وتلومنى ولولا الهوى أو هت بعض سجودى
كان بقلبى جنة تستفزه بنسيان ما صليت غير عديد[٧٩]

ويرى بشار فى تقبيل خديها ، وفى مص لسانها ، حلاوة تفوق بكاء الحجيج فى عرفات ، وذلك فى قوله :

لتقبيل خديها ومص لسانها ألذ من الباكين فى عرفات[٨٠]

ويصورها بالحجر الأسود ، ويتمنى تقبيله ، مستخفا بشعيرة الحج ، فى قوله :

وأنت الحجر الأسو د لو يخلو لقبلته
وصومى لك عنهن ولولا أنت ماصمته[٨١]

ويتطاول بشار فى قوله ، فيستهزأ بقارىء القرآن ، والعابد ربه ، الواعظ غيره ، فيستعين به على حبها ، ويستفتيه ، فيجيبه بأحقية ما تفعل ، ما دام لا يتعدى الحديث فقط ، فيقول بشار :

أيها القارىء المذكر بالله ترى فى وصال حب جناحا
قال : لا بأس بالحديث إذا ما لم يزيدا على الحديث جماحا[٨٢]

ويشغله الحب عن الصوم وعن الصلاة :

ولو يتركنى الحب لقد صمت وصليت[٨٣]

ويتعلق بحب المرأة ، تعلق النصارى بالصليب .

ولقد شغفت بحبها شغف النصارى بالصليب[٨٤]

إن هذا التطرف الظاهر على غزل بشار ، يصور استخفافه بأمور الدين ، وكان ذلك أكبر العوامل التى شجعت على إتهامه بالزندقة ، وعجلت بعقابه وبنهايته بالقتل ، فى مجتمع يدعو إلى الدين الاسلامى فى ظل خليفة جاد ملتزم لا يشترك فى المجون ، ولا يساعد على وجوده أو حمايته وحماية أصحابه .

وكان المهدى ذكيا ، لم يخدعه قول بشار فى الحكمة وفى الموعظة الحسنة ، ولم ينخدع فى مدائحه ، فقد لمس فيها نفاقا وكذبا ، ولمس فى توبته إصطناعا وتكلفا ، وتجنبا للصدق وللحقيقة ، ودفع ذلك كله المهدى إلى أن يحرم بشار من جوائزه على مديحه فيه ، فقد ذكر

---

(٧٩) ديوان بشار جـ ٢ ص ١١٦ .
(٨٠) ديوان بشار جـ ٢ ص ٤٣ .
(٨١) ديوان بشار جـ ٢ ص ٧٣ .
(٨٢) ديوان بشار جـ ٣ ص ٦٥ .
(٨٣) ديوان بشار جـ ٢ ص ٩٣ .
(٨٤) ديوان بشار جـ ١ ص ١٩٩ .

صاحب معاهد التنصيص « أن بشارا مدح المهدى بقصيدة ، فحرمه الجائزة ، فقيل لبشار : حرمك أمير المؤمنين ، فقال والله لقد مدحته بشعر لو مدح به الدهر ما ضر صرفه على أحد ولكننى كذبت فى العمل ، فكذبت فى الأمل »[٨٥] .

ويتوسط أشراف المجتمع عند المهدى ليشتد فى عقاب بشار ، ويحول بينه وبين الاستخفاف بالدين وبأركان الدين ، « كما ثار المصلحون أمثال واصل بن عطاء ومالك بن دينار وسوار بن عبد الله ويزيد بن المنصور – خال المهدى – فأضطر المهدى إلى أن يأمر بشار وينعه »[٨٦] .

ومن الباحثين الذين أكدوا على زندقة بشار ، الجاحظ فقد أكد أنه يدين بالرجعة ، وأنه يكفر جميع الأمة – كما سبق ذكره ، وأتهمه بسخطه على الدين عامة ، وبإيمانه بالتناسخ ، وتفضيله النار على الطين ، ساعده على تأكيده هذا ، ما نظمه بشار من أشعار يستخف فيها بالإسلام .

ويرى ابن المعتز غير ما رآه غيره فى مسألة قتل بشار ، فيذكر ابن المعتز فى طبقاته أنه « قد وشى به بعض من يبغضه إلى المهدى بأنه يدين بدين الخوارج فقتله المهدى ، وقيل بل قيل للمهدى ، إنه يهجوك فقتله ، والذى صح من الأخبار فى قتل بشار ، أنه كان يمدح المهدى ، والمهدى ينعم عليه ، فرمى بالزندقة فقتله ، وقيل : ضربه سبعين سوطا فمات ، وحكى أن المهدى لما قتل بشار ندم على قتله »[٨٧] .

ويعجب ابن المعتز من رمى بشار بالزندقة ، وهو القائل :

كيف يبكى لمحبس فى طلوع من سيبكى لحبس يوم طويل
إن فى البعث والحساب لشغلا عن وقوف برسم دار محيل[٨٨]

ويعلق ابن المعتز على البيتين بقوله « أنهما يدلان على صحة إيمانه بالبعث » .

ويتفق مع ابن المعتز الطاهر بن عاشور ، جامع شعر بشار ، ومحقق ديوانه ، حيث يؤكد رواية ابن المعتز التى جاء فيها « أن المهدى لما قتل بشار ندم على قتله ، فقد فتش فى كتب بشار ، وفى تراثه الذى تركه ، فلم يجد فيهما شيئا يدل على ما كانوا يرمونه به »[٨٩] .

ويرى عاشور وبعض الباحثين المحدثين ومنهم د . الشكعة[٩٠] أن قتل بشار يرجع إلى كثرة الناقمين عليه لحسد أو هجاء أو فحش ، فلم يجد الذين لحقهم أذى بشار وهجاؤه مسلكا إلى

---

(٨٥) ديوان بشار جـ ١ ص ١٤ .
(٨٦) الأغانى جـ ٣ ص ٢٤١ .
(٨٧) ابن المعتز – طبقات الشعراء ص ٢٠ .
(٨٨) ابن المعتز – طبقات الشعراء ص ٢٤ .
(٨٩) ديوان بشار جـ ١ .
(٩٠) د. الشكعة – رحلة الشعر بين الأموية والعباسية ص ٥١٤ .

الانتقام لأنفسهم منه ، لذلك أغاروا عليه من جانب سوء العقيدة ، وأول من أشاع ذلك عليه واصل بن عطاء وأصحابه المعتزلة .

ويرى بروكلمان فى تاريخ الأدب العربى[٩١] ، أن جرأة بشار حملته على هجاء الخليفة ووزيره يعقوب بن داود ، فتوجه الخليفة إلى البصرة ، « وأمر بإحضار بشار إلى سفينته ، وضربه سبعين سوطا ، فظل بشار يُضرب حتى مات سنة ١٦٧ هـ .

ويرى الطاهر بن عاشور فى مقدمة ديوان بشار ، أن أبيات النار مدسوسة على بشار وينفى عنه الإلحاد ، وإن كان قالها فمن باب المزح والهزل ، وأن أبياته فى هجاء المهدى ووزيره كانت سببا مباشرا فى قتله ، وليس الإلحاد ، وذلك حين قال :

بنى أمية هبوا طال نومكم إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الناى والعود[٩٢]

ومن يميل إلى إيمان بشار ، وينفى عنه تهمة الزندقة ، يستشهد ببعض أبياته التى يؤمن فيها بالمعاد ومنها :

وعجب نكث الكريم وللنفس ن معاد وللحياة إنقضاء[٩٣]

ويدعو إلى الطهر ، ويصف الحرائر من الصبا بالمسلمات :

أنس غرائر ما همن بريبة كظباء قلة صيدهن حرام
يحسبن من أنس الحديث زوانيا ويصدهن عن الخنا الإسلام[٩٤]

ويصحب بشار واصل بن عطاء مؤسس مذهب الاعتزال ، وتميل هذه الآراء التى تنفى عن بشار إلحاده ، إلى اختلاف بشار مع واصل بن عطاء ، حتى أغضبه وكان واصل كبير علماء البصرة ، وشيخ المعتزلة ، فأوغر قلبه ، وحاربه وكفره .

ويؤكد الطاهر بن عاشور على براءة بشار من الزندقة ، ويرى أن من يقرأ أخباره ، يراه ملتزما بعقد الإيمان الصحيح ، مخبرا عن نفسه بأداء الصلاة والصوم والحج ، متمسكا بشرائع الاسلام ، ومن هذه الأبيات قول بشار :

فى ليلة خلف شهر الصوم ناقصة تسعا وعشرين قد أحصيتها عددا
حتى ارتقيت إليها فى مشيدة دون السماء تناغى ظلها صعدا[٩٥]

---

(٩١) بروكلمان - تاريخ الأدب العربى - جـ ٢ ص ١٣ .
(٩٢) د. الشكعة رحلة الشعر - ص ٦١٠ .
(٩٣) ديوان بشار جـ ١ ص ٣٨ .
(٩٤) د. الشكعة - رحلة الشعر ص ٦١٠ .
(٩٥) ديوان بشار جـ ١ ص ٣٨ .

وقول بشار أيضا :

إنى حلفت يمينا غير كاذبة عند المقام ولم أقرب له فندا[٩٦]

وكذلك فى قوله :

وملوك إن تعرضت لهم عرضوا دينى وشيكا للعطب[٩٧]

ونرى الطاهر بن عاشور يعلق على بيت لبشار يقول فيه :

يصدق فى دينه وموعده نعم ويعطى الندى على كذبه[٩٨]

فيقول الطاهر « إنه يعترف بالمعاد ، فقد كان يريد نفسه » إن الموعد الذى يريده بشار ليس الميعاد ، وهو الآخرة والبعث ، الذى يقصده الطاهر بن عاشور ، إن الموعد هنا وعد المهدى له بالعطاء ، كما أن الشاعر لا يريد نفسه كما يقول الطاهر ، إنما يريد الخليفة المهدى كما جاء فى الأغانى وفى غيرها ..

وأما ما جاء فى قوله :

ولى كل يوم عبرة لا أفيضها لأحظى بصبر أو بحط ذنوب[٩٩]

فإن بشار لا يقصد صحة إيمانه ، وسلامة عقيدته ، كما يرى صاحب ديوانه ، ولكنه يعترف بذنوبه ، وَيُقِرّ بها .

ومن العجيب أن يروى جامع شعره أن الرواة اتفقوا على أن بشار مات مقتولا من ضرب ضربه على التهمة بالزندقة ، ويروى خبرا جاء فى كثير من مصادر الأدب « أن حياته كانت أثقل شىء على الناس ، ولم يكن له بها صديق ، وقد تباشر عامة أهل البصرة بموته ، وهنأ بعضهم بعضا ، وتصدقوا ، ولم يتبع جنازته أحد غير أمة سوداء سندية ، تصيح : واسيداه ، واسيداه[١٠٠] .

ويكتب أبو هشام الباهلى على قبر بشار ، وقبر حماد عجرد الذى قتل هو الآخر بتهمة الزندقة سنة ١٦٦ هـ .

قد تبع الأعمى قفا عجرد فأصبحا جارين فى دار
صارا جميعا فى يدى مالك فى النار والكافر فى النار
قالت بقاع الأرض لا مرحبا بقرب حماد وبشار[١٠١]

---

(٩٦) ديوان بشار جـ ١ ص ٣٨ .
(٩٧) ديوان بشار جـ ١ ص ٧٤ .
(٩٨) ديوان بشار جـ ٢ ص ٣٩ .
(٩٩) ديوان بشار جـ ١ ص ١٦٧ .
(١٠٠) ديوان بشار جـ ١ ص ٣٩ .
(١٠١) الأغانى جـ ٣ ص ١١٧ .

ان هذه الروايات جميعها تؤكد خروج بشار على الدين ، وتخطيه شرائعه وتجاوزه حدوده ، فقد ثار الوعاظ والمتكلمون ورجال الدين عليه ، وطالبوا برأسه ، ورموه بالزندقة ، وكان من الواجب على الباحثين أن يحددوا الدوافع التى دفعته إلى زندقته ، وخروجه على الدين ، وذلك ثابت فى أشعاره ، سواء أكان يؤمن بما يقول ، أم يقوله على سبيل المزاح والتفكه - كما يرى البعض - .

ولا يعقل أن يكون فى الدين تفكه ، وفى التمسك بشرائعه ظرف ودعابة ، وإن المتعصبين لبشار ، والمدافعين عنه ، يدفعون عنه الزندقة ، ربما لإعجابهم بشعره ، وإعجابهم بطريقته الفنية ، وبجزالة القول ورصانته ، وتقديرهم لما أضفاه بشار على الشعر العباسى من تجديد ، ومن مسايرة للعصر . فقد حمل بشار راية التجديد ، وكانت له بصمات فنية واضحة فى فترة الخضرمة بين الأموية والعباسية .

ولا يمنع ذلك كله من أن يكون ضعيف الدين ، مشكوك فى عقيدته ، وإن كان بشار متسخفا مداعبا ، فذلك فى تظاهره بالزهد والتقوى وليس فى استخفافه بالدين ، واستهتاره به ، وبشرائعه .

ويزداد تعصب الطاهر بن عاشور لبشار حين يرى « أن الموجود فى شعر بشار من جانب الاعتقاد هو ما يجرى على عقائد المسلمين الخالصين »[١٠٢] ويثبت له الطاهر عقيدة اسلامية خالصة من أية شائبة ويرى - أيضا - أن أبيات بشار التى دفعت المهدى إلى التصدى له ، كانت مصنوعة « قصد بها أعداؤه إلحاق الأذى به فى حياته ، أو تبرير صنيع الذين فتكوا به فى مماته »[١٠٣] .

ويجعل الطاهر بن عاشور الاتهام بالزندقة أمرا عاما على جميع أبناء الفرس ، الذين دخلوا الاسلام ، ويرى أن الرمى بالزندقة قد بلغ أشده فى عصر بشار ، « وكانوا يصمون أبناء الفرس بالزندقة ، ويتهمونهم بأنهم يسرون عقيدة دينهم الأول ، ولذلك سموا الإسرار بالكفر زندقة ، المشتقة من اسم الزندو ، وهو كتاب دين الفرس القديم »[١٠٤] .

ويرى الطاهر أن الزندقة لون من النفاق ، حتى يخفف من حدتها ومن ضررها ، ويتضح أنها لم تكن تستحق عقاب المهدى لبشار بالقتل ، وأنها اعتقاد بدين الفرس القديم ، وبما جاء فى الزندو فشتا . « فالزنديق يرادف المنافق وخصوا المنافق الذى يبطن الكفر ، فى زمن الرسول عليه السلام ، والزنديق يبطن الكفر بعد ذلك الزمن »[١٠٥] .

---

(١٠٢) ديوان بشار جـ ١ ص ٢٥ .
(١٠٣) ديوان بشار جـ ١ ص ٢٥ .
(١٠٤) ديوان بشار جـ ١ ص ٢٦ .
(١٠٥) ديوان بشار جـ ١ ص ٢٨ .

ويقترب رأى ابن عاشور من رأى أبى العلاء المعرى فى رسالة القارح الذى جاء فيها « وإنما نسبوا بشار إلى دين المانوية لأنه فى الأصل فارسى يتعصب للفرس فى أحوالهم ، وأن معظم شيعة الأموية من العرب يغارون منهم أن جاءوهم فاتحين مع بنى العباس ، وأن المهدى حارب الزنادقة لأن الخلافة العباسية تتحفز إلى قطع شوكة الفرس تخلصا من إدلالهم على الخلافة ، وطمعهم فى وضع الخليفة تحت نير تصرفهم »[١٠٦].

ويرى الطاهر أن المهدى أراد أن يظهر فى مظهر المؤيد للدين ، فتشدد فى تقصى الزندقة ، « حتى يتصوروا أن المهدى مجدد الدين ، ومالىء الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا ، حتى تردد بينهم حديث صنعوه نصه « المهدى منا ، واسمه يواطىء اسمى ، واسم أبيه يواطىء اسم أبى »[١٠٧] .

وهذا الرأى بعيد عن الحقيقة ، فليس تشدد المهدى هو الدافع إلى قتل بشار ، وإنما عوامل كثيرة ، منها أنه فارسى الأصل ، يؤمن بالشعوبية . ويبغض العرب ، وأنه من أهل الخلاعة والمجون ، وأنه استخف كثيرا بأمور الدين ، وأنكر كثيرا من أصوله ، ولا يعتد بالقرآن ، ولا يقدسه ، وتعارض مع المعتزلة ، وأغضب واصل بن عطاء ، وأثار العلماء والوعاظ ، وخرج على تعاليم الدين وفرائضه ، واتصل بالشيعة المتطرفة ، حتى أتهم بأنه كان رافضيا يدين بالرجعة .

والرجعة - بفتح الراء عند جمهور أهل اللغة - ، وحكى عياض فى شرح صحيح مسلم[١٠٨] فى المقدمة جواز كسر الراء ، وفسروها بأنها قول الرافضة بأن عليا رضى الله عنه فى السحاب ، وأنه لا يجوز الخروج مع أحد من أبنائه وولده ، حتى ينادى من السماء أن أخرجوا مع فلان ..

ونسب بشار - أيضا - إلى الرفض ، وأنه كان من الكاملين وهم أصحاب أبى كامل الذى كان يدين بتكفير الصحابة لتركهم بيعة على ، ويتكفير على لتركه قتالهم ..

ويرى من يدافع عن عقيدة بشار ، أن الذين اتهموه بفساد العقيدة ، يختلفون فى ذلك « فمنهم من ينسب إليه التظاهر بما نسبه هو إليه ، ومنهم من ينسب إليه الأسرار بذلك فى باطنه ، فقد نسبوا بشار إلى دين الثنوية والمجوسية والبرهمية والسمنية ، وإلى الرفض وإلى الشعوبية ..

والحقيقة فى نظر ابن عاشور بشأن عقيدة بشار « أنه كان مستهترا غير محترز ، فى أقواله

---

(١٠٦) ديوان بشار جـ ١ ص ٥٣ .
(١٠٧) ديوان بشار جـ ١ ص ٤٣ .
(١٠٨) صحيح مسلم (المقدمة) .

وفى مجالسه من لوازم مفضية إلى الالحاد ، يجرى ذلك منه مجرى المزح والغزل ، كما يجرى لأبى نواس وابن هانىء الأندلسى»[١٠٩] .

وإن فى اتهام بشار لغيره بالالحاد ، أمثال حماد عجرد وأبى العوجاء ما يبرر للمدافعين عنه صحة إيمانه ، وسلامة عقيدته .

ولم يكن المهدى متعمدا قتل بشار ، ولم يكن متصنعا الشدة ، ولم يكن متسرعا فى حكمه على بشار ، فقد حاكم غيره من الزنادقة ، وكان قبل المهدى من تصدي للزنادقة ، ففى حوادث سنة ١٥٥ هـ يحكى ابن الأثير « أن عبد الكريم بن أبى العوجاء حبس بالكوفة على الزندقة فى زمن أبى جعفر المنصور ، فقد حبسه عامل الكوفه محمد بن سليمان بن على بن عبد الله بن عباس ، ثم قتله بدون أمر المنصور ، وغضب المنصور على عامله وعزله »[١١٠] .

وكان المهدى متريثا فى حكمه على الزنادقة من الشعراء ومن غير الشعراء وحين تثبت براءة الشاعر أو غير الشاعر يطلق المهدى سراحه ، وفى الأغانى « أن على بن الخليل الشاعر رمى بالزندقة لاتصاله بصالح بن عبد القدوس ، ثم ثبتت براءته فأطلق ، وقتل المهدى صالح بن عبد القدوس الشاعر فى ١٦٧ هـ على تهمة الزندقة .

وفى حوادث سنة ١٦٣ هـ خرج المهدى إلى غزو الروم وبلغ حلب « وأرسل فجمع الزنادقة ، فقتلهم وقطع كتبهم بالسكاكين ، وأقام المهدى لهذه الأعمال خطة سمى صاحبها صاحب الزنادقة ، وقد وليها عثمان بن نهيك ، وعمر الكواذانى ، ومحمد بن عيسى بن حمدويه ، فقتل من الزنادقة خلقا كثير »[١١١] .

وفى حوادث سنة ١٦٦ هـ يؤكد إطلاق المهدى سراح الزنادقة الذين لم تثبت عليهم التهمة « فقد أخذ المهدى داود بن روح بن حاتم ، واسماعيل بن مجالد ، ومحمد بن أيوب المكى ، ومحمد بن طيفور ، فاستتابهم ، وخلى سبيلهم ، وبعث داود إلى أبيه وهو بالبصرة ، وأمره بتأديبه »[١١٢] .

ويرى د . شوقى ضيف أن بشارا كان ملحدا زنديقا يكفر بالعرب ، وأن بشارا كان يستطيل على العرب ، وعلى دينهم الحنيف »[١١٣] .

وفى الأغانى « أن بشارا كان لا يؤمن إلا بالعيان ، وما شهده الحس فهو لا يؤمن بجنة ولا نار ولا ببعث ولا حساب ، ويعارض ما يذهب إليه المعتزلة من أن الإنسان يخلق أفعاله ،

---

(١٠٩) ديوان بشار جـ ١ ص ٢٤ .
(١١٠) الأصفهانى - الأغانى جـ ٣ ص ١٤١ .
(١١١) ابن الأثير - الكامل فى التاريخ - حوادث سنة ١٦٣ هـ .
(١١٢) ابن الأثير - الكامل فى التاريخ حوادث سنة ١٦٦ هـ .
(١١٣) د. شوقى ضيف . العصر العباسى الأول ص ٢٠٨ .

ويقول أنه جبرى ، بل لا شيء سوى الجبر وتعطيل الإرادة الإنسانية »[١١٤] .

أن موقف بشار كان نتيجة عوامل ذاتية وعوامل خارجية ، وجد الشاعر نفسه رهينا لها ، فقد كان فارسى الأب ، رومى الأم ، ولد أعمى ، وولد على الرق ، قبل أن يعتق برد ، وكان أبوه طيانا ، يعيش على الشظف ، وحين شب بشار ظل يكثر من الاختلاف إلى حلقات المتكلمين ومجالسهم .

وفى الأغانى « أنه كان يحضر مجالس واصل ويستمع إلى محاضراته[١١٥] ويقول د . شوقى ضيف « وأكبر الظن أنه تسرب إليه من هذه المجالس وما يماثلها من مجالس المتكلمين شيء من الفلسفة ومن المنطق »[١١٦] .

وإذا أضفنا إلى ذلك إحساس بشار بالضياع والخذلان فى حياته ، وتمتعه بروح يائسة متشائمة ساخرة من الناس ، ومن كل من هم حوله ، لوقفنا على أهم الدوافع إلى خروج بشار على الدين ، ويضيف د . هدارة إلى ما سبق قوله « وذلك فضلا عن إطلاعه على الثقافات الأجنبية ، واتصاله بأفكار وآراء المذاهب والنحل المنتشرة فى مجتمعه ومخالطة ألوان مختلفة من العقليات والجنسيات والشخصيات ، إنه صاحب نفس يائسة متبرمة قلقة ساخطة »[١١٧] .

إن موقف المهدى من بشار يؤكد عدل الخليفة فى تعامله مع الشاعر ، فقد قربه إليه – كما رأينا – وحظى بجوائزه ، واستمع المهدى إلى مدائحه ، حتى فشا غزل بشار الفاجر ، فأمره بالكف عن القول فيه ، وادعى بشار توبة ، ولكن أشعاره تؤكد غير ذلك .

ولقد بدا فى توبة بشار المتكلفة ، وفى زهده المصطنع حنينا دائما إلى المجون ، وإذ ندم على أمور كبيرة فى حياته ، فإنه لم يندم على مجونه ، بل ندم على أنه اضطر إلى تركه ..

على الغزلى سلام الله منى ... وإن صنع الخليفة ما يشاء
فهذا حين تبت من الجوارى ... ومن راح به مسك وماء
وأن أك قد صحوت فرب يوم ... يهز الكأس رأسى والغناء[١١٨]

ويعنى الشاعر بقوله (على الغزلى سلام الله) أنه لا يزال يحبها ، ويذكرها بحسن الذكر ، وقوله (وإن صنع الخليفة مايشاء) أنه لم يزل يحن إليها ، ولكنه ترك الغزل طاعة للخليفة ، أما تذكره لها ، فلا يفتأ عنه ، وأن الخليفة قد نهاه عن الغزل لا عن اسمه ، وهو يذكره لشوقه إليه .

---

(١١٤) الأصفهانى – الأغانى جـ ٣ ص ١٨٢ .
(١١٥) الأصفهانى – الأغانى جـ ٣ ص ١٤٦ .
(١١٦) د. شوقى ضيف – العصر العباسى الأول ص ٢٠٢ .
(١١٧) د. محمد مصطفى هدارة – اتجاهات الشعر العربى ص ٢٨ .
(١١٨) ديوان بشار جـ ١ ص ١٣٠ .

ومما روى لبشار فى زهده فى المال قوله :

إنى وأن كان جمع المال يعجبنى ما يعدل المال عندى صحة الجسد
المال زين وفى الأولاد مكرمة والسقم ينسيك ذكر المال والولد[١١٩]

ويأتى فى مدحه ليزيد بن حاتم ، ما ينم عن لون من التوبة والزهد المصطنع .

ليس لنا فى شجن تخيير
والحزن لا يبقى ولا السرور
قد صرح الحق ومات الزور
آب التقى واللهو خيتعور
لا شىء إلا المسلم والتفكير
أو صالح من عملها مذخور[١٢٠]

ويودع المجون ، ويتوب عنه ، ويزهد فيه ، فيقول :

لما رأيت الدين حظا وافرا
قلت لقلبى ناهيا وآمرا
سلم على اللهو ودعه دائرا
أصبحت للعب الغوانى هاجرا
وأكرم حى أولاً وآخرا
ولا ترى مثلى مجارى غادرا
إذا قدرت أن أكون الضائرا
حلمت والحلم يزين القادرا
إياك يابن القوم أن تفاخرا
واصبر فقد كان أبوك صابرا
لا ينكر الموت ولا المصائرا[١٢١]

ويشكل بشار موقفه بما يرضى أمر المهدى ، فيتظاهر بالعفة وبالتوبة عن المجون ، ويأمر بالصبر ، وبالايمان بالمعاد والحساب .

ويرى بشار فى توبته أن اللذة يعقبها ألم ، وأن الغى آخره ندم ، وأن حديث الرجال خير من حديث النساء . فيقول :

---

(١١٩) ديوان بشار جـ ٣ ص ١١٨ .
(١٢٠) ديوان بشار جـ ٣ ص ١٦١ .
(١٢١) ديوان بشار جـ ٣ ص ٢١٦ .

ليس كل السرور يبقى نعيما ... رب غى يدب تحت السرور
ذهبت لذة النساء ، فلا ألـ ... ـقى نعيما إلا حديث الذكور[١٢٢]

وأخذ بشار يعنف غيره من المجان على ترك الصلاة ، فنراه يهجو أبا هشام الباهلى ، فى قوله :

ومجنت حتى ما تصلى ركعة ... ونسيت ما قال النبى محمد[١٢٣]

ويوبخ حماد عجرد على مجونه ، وعلى شربه الخمر ، وترك الصلاة ، وتجنب عبادات الله ، فيقول بشار :

إذا قدم الشرب إبريقهم ... ظلت لإبريقهم تسجد
وتعبد رأسا تصلى له ... وأما الأله فلا تعبد[١٢٤]

وقد كان بشار يظهر التوبة بين الحين والآخر ، ولم ينس الشاعر أن يشكر المهدى الذى دفعه إلى طريق الزهد عن المجون ، وتجنب طريق الغواية ، فقد خفف المهدى من ثقل الذنوب على ظهر الشاعر ، كما أنه أصلح الفاسد منه ، بل أصلح الفساد الموجود فى المجتمع العباسى كله ، كما يرى الشاعر فى قوله :

والله أصلح بالمهدى فاسدنا ... سرنا إليه وكان الناس قد فسدوا[١٢٥]

وفى قوله أيضا :

جزى الله مهدى الصلاة كرامة ... لقد فل عن دينى وخفف عن ظهرى[١٢٦]

ويعد موقف المهدى من بشار من أنصع مواقف الخلفاء مع الشعراء المجان أنه موقف يدل على إيجابية واضحة بين الطرفين ، والخليفة لم يكن ظالما للشاعر أو متجنيا عليه ، إنما هو يحافظ على الدين ، ويحارب المجون حين يفرط الشاعر فيه ، ويسرف فى القول ، ويدعو إلى غير ما يدعو إليه الله سبحانه وتعالى فقد كان المهدى يجالس بشارا ويعجب به ، ثم يمنعه من قول الغزل ، ثم يتأكد من زندقته فيقتله .

ويؤيد موقف المهدى باحثون ويعارضه آخرون ، وإن كان التأييد أقرب إلى التصديق وإلى الحق من غيره .

إن الشاعر لم يرعو إلا قليلا ، ولم يخلص فى زهده ، ولم يتب عن إيمان ، وكان استغفاره استخفافا ، بينما كان استخفافه بالدين ينم عن نفس ضعيفة الإيمان ، سيئة الاعتقاد .

---

(١٢٢) ديوان بشار جـ ٢ ص ١٨٧ .
(١٢٣) ديوان بشار جـ ٢ ص ٢٢٥ .
(١٢٤) الأغانى . جـ ٣ ص ١٢٧ .
(١٢٥) ديوان بشار جـ ٢ ص ٢٠٠ .
(١٢٦) ديوان بشار جـ ٣ ص ٢٥٨ .

ومهما اختلفت الأسباب التى دفعت المهدى إلى وضع حد لمجونه ، بل لحياته كلها ، فإن مجونه كان فى القول وفى السلوك ، وإن موقف المهدى كان موقف الخليفة الملتزم ، الذى يستجيب إلى الواقع ، وإلى دعوة العلماء راغبا فى تنقية الجو العباسى من الفسق والمجون .

ومن شعراء المهدى - أيضا - الذين كان لهم دور معه ، وكان للخليفة تأثير فى زهدهم وتحولهم من المجون إلى التوبة والاستغفار الشاعر (أبو العتاهية) ١٣٠ - ٢١٠هـ ٧٤٨ - ٨٢٦ م .

وربما كان موقف المهدى من المبررات لزهد أبى العتاهية ، مع مبررات أخرى ودافع مختلفة مسئولة عن زهد أبى العتاهية ، وعن توبته واستغفاره ، فلم يكن أبو العتاهية شاعرا للزهد فحسب ، لم يعرف شيئا عن المجون ، ولكنه كان ماجنا قبل أن يزهد ، وتحول من المجون إلى الزهد ، وتاب إلى ربه واستغفر من ذنبه ، وهجر القول فى الغزل ، وفى الخمر ، وأكثر من نظمه فى الزهد وفى القناعة .

وقد أخبر المسعودى فى مروج الذهب « أن أبا نواس اجتمع مع جماعة من الشعراء ، ودعا أحدهم بماء فشربه وقال : عذب الماء وطابا .. ثم قال لهم : أجيزوا ، فترددوا ، ولم يحضر أحد منهم ما يجانسه فى سهولته وقرب مأخذه ، حتى طلع أبو العتاهية فقالوا : هذا ذلك . قال : فيم أنتم ؟ قالوا قد أخذنا نصف بيت ، ونحن نخبط فى تمامه ، قال : وما ذاك ؟ قالوا : عذب الماء وطابا - فقال أبو العتاهية من فوره (حبذا الماء شرابا)[١٢٧] .

ومن قول أبى العتاهية فى غزله :

ولقد صبوت إليك ، حتى صار من فرط التصابى
يجد الجليس ، إذا دنا ريح التصابى فى ثيابى[١٢٨]

وأبو العتاهية هو اسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان ، وقيل فى سبب كنيته بأبى العتاهية قولان ، يتعلق أحدهما بالخليفة المهدى ، الذى قال له يوما : « أنت إنسان متحذلق معته » والقول الثانى لمحمد بن يحى قال : كنى بأبى العتاهية إذا كان يحب الشهرة والمجون والتعته »[١٢٩] .

وليس من الغريب أن تستوى له هذه الكنية ، فقد كان فى شبابه يعاشر الخلعاء ، ويحمل زاملة المخنثين ، ويظهر من صفته أنه كان إلى الأنوثة أميل منه إلى الرجولة ، فقد كان قضيفا ، أبيض اللون ، أسود الشعر ، له وفرة جعدة وهيئة حسنة ولباقة .

---

(١٢٧) المسعودى - مروج الذهب ص ١١٧ .

(١٢٨) ديوان أبى العتاهية - تحقيق كرم البستانى - دار صادر للطباعة والنشر - بيروت ١٩٦٤ ص ٦٣ .

(١٢٩) الأصفهانى - الأغانى جـ ٤ ص ٦٣ .

وكان موقف المهدى من أبى العتاهية ، واضحا مباشرا ، فقد عرف عن أبى العتاهية ، تعلقه بعتبة جارية المهدى ، الذى شغف قلبه بها ، وأخذ يتغنى بحبها ، مما أثار المهدى عليه ، فغضب منه لتعرضه لحرمه ، وجوارى قصره ، وأمر بضربه مائة سوط وسجنه ، وقد ظل يذكرها ويتغنى بها ، ويرسل أبو العتاهية إلى المهدى من يتوسط له فى حبه لجاريته عتبه .

ويروى الحصرى فى زهر الآداب ، أن يزيد بن حوراء المغنى قال : « كلمنى أبو العتاهية أن أكلم له المهدى فى عتبة ، فقلت له ، إن الكلام لا يمكننى ، ولكن قل شعرا أغنيه إياه ، فقال :

نفس بشيء من الدنيا معلقة ... الله والقائم المهدى يكفيها
إنى لا أيأس منها ثم يطمعنى ... فيها احتقارك للدنيا وما فيها[١٣٠]

ويعلل الحصرى القيروانى ضرب المهدى لأبى العتاهية مائة سوط لقوله :

ألا أن ظبيا للخليفة ، صادنى ... ومالى على ظبى الخليفة من عدو[١٣١]

وقال المهدى : أبى يتمرس ، ولحرمى يتعرض ، وبنسائى يعبث ، ونفاه إلى الكوفة[١٣٢] .

وفى ضرب المهدى لأبى العتاهية ، يقول الشاعر أبو دهمان :

لولا الذى أحدث الخليفة للعشا ... ق من ضربهم إذا عشقوا
لبحت باسم الذى أحب ولكنى ... أمرؤ قد تنالنى الفرق[١٣٣]

ويرحل أبو العتاهية ، بعد أن نفى إلى الكوفة ، ويكنى باسم عتبة ، فلم يستطع لاسمها ذكرا ، خوفا من المهدى وبطشه ، وفى ذلك يقول أبو العتاهية :

قل لمن لست اسمى ... بأبى أنت وأمى
بأبى أنت لقد أصـ ... ـبحت من ذكر همى
من يكن يجهل ما ألقا ... ه فان الحب سقمى
إن روحى ببغدا ... د وفى الكوفة جسمى[١٣٤]

وحين تقدم عتبة إلى بغداد ، يقدم معها أبو العتاهية أيضا ، ويلتقى بالمهدى ، فيقول المهدى لأبى العتاهية « إن شئت أدبناك بضرب وجيع ، لإقدامك على ما نهيت عنه ، وأعطيناك ثلاثين ألف درهم جائزة على مدحك لنا ، وإن شئت عفونا عنك فقط ، فيقول أبو العتاهية : بل

---

(١٣٠) الحصرى القيراوني - زهر الآداب وثمر الألباب . جـ ١ ص ٣٢٦ .
(١٣١) المصدر السابق . جـ ١ ص ٣٢٧ .
(١٣٢) المصدر السابق ١ / ٣٢٧ .
(١٣٣) الأصفهانى - الأغانى ٤ / ٦٤ .
(١٣٤) الحصرى القيروانى - زهر الآداب - جـ ١ ص ٣٢٧ .

يضيف أمير المؤمنين إلى كريم عفوه جميل معروفه ، ومكرمتان أكثر من واحدة ، فأمر له بثلاثين ألف درهم وعفا عنه »[١٣٥] .

ويلتقى أبو العتاهية بمطيع بن إياس ، ووالبة بن الحباب ، وبأبى نواس ، وبغيرهم من الشعراء المجان ، ويلهو أبو العتاهية كما يلهون ، ويشرب معهم الخمر فى مجالسهم ، وفى دار القراطيسى ..

وكان اسماعيل القراطيسى يصحب الشعراء إلى منزله ، ويقيم معهم مجالس للشرب والغناء والمجون ورواية الأشعار .

ويصور أبو العتاهية هذه الفترة من حياته الماجنة قبل أن يزهد فيقول :

طالما أحلولى معاشى وطابا ... طالما سحبت خلفى الثيابا
طالما طاوعت جهلى وعقلى ... طالما نزعت صحبى الشرابا
طالما كنت أحب التصابى ... فرمانى سهمه وأصابا[١٣٦]

ويموت المهدى ، ويأتى الهادى ، ويعود أبو العتاهية إلى مجونه وشربه وغزله ، وينادمه .

ويأتى الخليفة (الرشيد) (١٧٠ - ١٩٣ هـ) .

ويلزم أبو العتاهية الرشيد ، لا يفارقه ، « وكان الرشيد يجرى عليه فى كل سنة خمسين ألف درهم سوى الجوائز والصلات السنية »[١٣٧] .

وما يلبث أبو العتاهية أن يترك منادمة الرشيد ، ويعدل عن قول الشعر فى الخمر وفى الغزل ، وذلك حين ينزل الرشيد الرقة فى سنة ١٨٠ هـ ، ويلبس أبو العتاهية الصوف ، ويكسر جرار الخمر ، ويتزهد ، ويكثر من ذكر الموت وأهواله ، والفناء وأحواله ، « ويترك حضور المنادمة وقول الغزل ، فيأمر الرشيد بحبسه ، ليحمله على الغزل فلم يفعل »[١٣٨] .

ويختلف موقف الرشيد من الشعراء عن موقف المهدى منهم ، ويتعامل الرشيد مع الشعراء المجان بطريقة تتعارض مع المهدى ، وإذا كان المهدى ينهى أبا العتاهية عن الغزل ، وينفيه ، ويأمر بضربه ، ثم استتابه ، فعفا عنه فإن الرشيد حين يرى أبا العتاهية يتنسك ، ويتزهد ، ويلبس الصوف ، يأمره أن يقول شعرا فى الغزل ، فيمتنع أبو العتاهية ، « فيأمر الرشيد بضربه ستين عصا ، وحلف ألا يخرج من حبسه حتى يقول شعرا فى الغزل »[١٣٩] .

---

(١٣٥) الحصرى القيروانى - زهر الآداب - جـ ١ ص ٣٢٩ .
(١٣٦) ديوان أبى العتاهية ص ٦٤ .
(١٣٧) الأصفهانى - الأغانى - جـ ٤ ص ٦٣ .
(١٣٨) كارل بروكلمان - تاريخ الأدب العربى - ت . عبدالحليم النجار جـ ٢ ص ٣٤ .
(١٣٩) الأصفهانى - الأغانى جـ ٤ ص ٦١ .

ويحبس الرشيد أبا العتاهية لتزهده ، ولانقطاعه على مجلسه ، ولهجره المجون ، وتركه منادمته ، ويظل أبو العتاهية مدة يسترضيه ، ويكتب له أشعارا ، يقرؤها الرشيد فيقول : قولوا له : لا بأس عليك ، فكتب إليه أبو العتاهية :

أمين الله إن الحبس بأس وقد وقعت ليس عليك بأس

ويعود أبو العتاهية مرة ثانية إلى المجون ، ويترك الزهد ، مرغما ، وخشية الحبس ، ورغبته فى الحرية . فيطلق الرشيد سراحه ، حين يصرح أبو العتاهية باستعداده لصناعة شعر المجون ، فيقول الشاعر فى ذلك :

يا ابن عم النبى ، سمعا وطاعة قد خلعنا الكساء والدراعة
ورجعنا إلى الصناعة ، لما كان سخط الامام ترك الصناعة[١٤١]

وكان الرشيد قد حبس أبا العتاهية فى بيت خمسة أشبار ضيق عليه ، فصاح : الموت أخرجونى ، فأنا أقول كل ما شئتم ، ثم أخذ دواة وقرطاسا وكتب :

من لعبد أذله مولاه ما له شافع إليه سواه
يشتكى ما به إليه ، ويخشا ه ويرجوه مثل ما يخشاه[١٤٢]

وقيل إن الرشيد حبس أبا العتاهية لأنه ذكر الرشيد فى شعره بأمر لم يستحسنه فغضب وقال : سخر منا فعبث ، وأمر بحبسه فدفعه إلى تنجاب صاحب عقوبه ، وكان فظا غليظا ، فقال أبو العتاهية :

تنجاب لا تعجل على فليس ذا من رأيه[١٤٣]

وفى محاولة للتخفيف من موقف الرشيد من زهد أبى العتاهية ، يطفو على السطح سبب آخر غير امتناع الشاعر عن قول الغزل ، ليبرر موقف الرشيد منه ، فجعلوا الشاعر يهجو الرشيد ، ويسخر منه ، حتى يحبسه الخليفة .

ولم يكن الرشيد يريد أن يسمع من أبى العتاهية غير الغزل ، وليس معنى أن الرشيد يحبسه راغبا فى عودته إلى المجون ، أن ترك الشاعر يفعل ما يريده ، بل تطالعنا روايات متعددة تفيد باتهام أبى العتاهية بالزندقة ، وتشدد الرشيد معه ، حفاظا على الدين والعقيدة ، وحماية له من الانحراف ، ويتأكد مما نسب إلى الشاعر ، ويدافع الشاعر عن نفسه ، ويخلى سبيله .

ويروى الاصفهانى فى الأغانى « أن أبا العتاهية قال : قرأت البارحة (عم يتساءلون) ثم

---

(١٤٠) ديوان أبى العتاهية ص ١٦١ .
(١٤١) ديوان أبى العتاهية ص ٢٧٤ .
(١٤٢) ديوان أبى العتاهية ص ٣٠ .
(١٤٣) الأصفهانى - الأغانى - جـ ٤ ص ٥٣ .

قلت قصيدة أحسن منها ، ويقول ابن عمر أن أبا العتاهية زنديق ، أما ترونه لا يذكر فى شعره الجنة ولا النار ، وإنما يذكر الموت فقط ، فقال أبو العتاهية ، يدافع عن نفسه :

يا واعظ الناس قد أصميت فيها إذ عبت فهم أمور أنت تأتيها
فأعظم الأثم بعد الشرك نعلمه فى كل نفس عماها عن مساويها[١٤٤]

ومن هذه الروايات التى تروى عن زندقة أبى العتاهية ما قال صاحب الزنادقة (حمدويه) ورواه الاصفهانى ، فقد سمع حمدوية « من جارية أبى العتاهية أنه يكلم القمر ، فصار إلى منزله وبات وأشرف على أبى العتاهية ورآه يصلى ، ولم يزل يرقبه ، فانصرف خاسئا ، وينفى أبو العتاهية التهمة عن نفسه ، حين يقول زعم الناس أننى زنديق ، فقلت فى التوحيد :

أيا عجبى كيف يعصى الآله أم كيف يجحده الجاحد
وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد[١٤٥]

ويصارح الرشيد أبا العتاهية بما نسب إليه ، وأشيع حول زندقته ، فيقول الرشيد « إن الناس يزعمون إنك زنديق ، فقال : ياسيدى ، كيف أكون زنديقا ، وأنا القائل : أيا عجبى كيف يعصى الإله ...»[١٤٦] .

واتهم أبو العتاهية بالزندقة ، لاستخفافه بذكر الجنة ، وتصويره حور الجنة بالنساء العاريات ، مثلما جاء فى تغزله بعتبة وقد سماها عتابة :

كأن عتابة من حسنها دمية قس فتنت قسها
يا رب لو أنسيتنيها بما فى جنة الفردوس لم أنسها[١٤٧]

ويبدو استهتار أبى العتاهية فى ذكر الجنة وللشاعر أبيات أخرى كثيرة يرى فيها من يتهمه بالزندقة سبيلا إلى تأكيد الاتهام .

أن أبا العتاهية ، شاعر الزهد المعروف ، لم يسلم من تهمة الزندقة ، « فقد نسبه قوم من أهل عصره إلى القول بمذهب الفلاسفة ممن لا يؤمن بالبعث ، ويحتجون بأن شعره إنما هو فى ذكر الموت والفناء ، دون ذكر النشور والمعاد ، ويرون أنه يعتقد بالدهرية ، ولا يؤمن بالبعث والحساب ، ولا يؤمن بالقرآن الكريم ، ولا يقدسه ، وقد شنع عليه منصور بن عمر فى قوله « كان مذهب أبى العتاهية القول بالتوحيد ، وأن الله خلق جوهرين متضادين لا من شىء ، وكان يزعم أن الله سيرد كل شىء إلى الجوهرين المتضادين قبل أن تفنى الأعيان جميعا»[١٤٨] .

---

(١٤٤) الأغانى جـ ٤ ص ٣٤ .
(١٤٥) الأغانى جـ ٢ ص ٢٢٢ .
(١٤٦) فى بغداد ٦ / ٢٥٣ .
(١٤٧) ديوان أبى العتاهية ٢٣٤ .
(١٤٨) الأصفهانى - الأغانى - ٤ / ٥١ .

وينسبه الأصفهانى[١٤٩] إلى مذهب الزيدية البترية ، المبتدعة بالذات . وكل ما روى عن زندقة أبى العتاهية ، وما أشيع حوله ، جعل الرشيد يظن فيه ذلك الظن . ولكن ما يلبث أن يتحقق من عدم ثبوت الزندقة عليه ، فيخلى سبيله .

ولم يصل شعر أبى العتاهية الذى يثير إتهام الزندقة حوله ، إلى درجة غيرت من الشعراء الزنادقة ، وإنما كان أبو العتاهية شاعرا يعيش وسط تيارات عنيفة ومختلفة من الفلسفة والمذاهب ، ويقاوم تيارات ذاتية نابعة منه ، دفعته إلى اتخاذ الزهد شعارا له فى حياته ، وإلى خلع رداء المجون .

ولم يكن أمر الخليفة هو السبب الأوحد فى زهد أبى العتاهية ، ولكن يضاف إليه هجر عتبة له ، وفشله فى حبه ، وكبر سنه ، ورغبته فى التوبة وفى الزهد ، ورغبته فى أن يمثل جانبا فنيا من جوانب التعبير فى الشعر العربى لا ينافسه فيها أحد غيره من الشعراء .

إن أبا العتاهية يقر بالاله الصانع الواحد ، يدفع عن نفسه ما اتهم به من زندقة ، ويطلب من ربه العفو والمغفرة :

إلهى لا تعذبنى فأنى ... مقرّ بالذى قد كان منى
فما لى حيلة إلا رجائى ... بعفوك إن عفوت وحسن ظنى[١٥٠]

ويقول أيضا :

وأنا لفى صنع ظاهر ... يدل على صناع لا يرى[١٥١]

ويسبح ربه ويحمده ، عالم السر ، كاشف الضر :

جل رب أحاط بالأشياء ... واحد ، ماجد بغير خفاء
عالم السر ، كاشف الضر ، يعفو ... عن قبيح الأفعال، يوم الجزاء[١٥٢]

إن عناصر الزهد عند أبى العتاهية ، ومصادر الزهد فى شعره ، تختلف عن عناصر الزهد ومصادره عند غيره من الشعراء المجان الذين زهدوا ، فقد كان لأبى العتاهية طريقته الخاصة ، التى طبعت زهدياته بطوابع صارت معلما واضحا عرف بها ، وسوف يفرغ البحث لتوضيح ذلك فى مكانه - ليحدد طبيعة زهد أبى العتاهية ، ويفسر بخله وحبه للمال مع زهده ودعوته للقناعة . حتى يتحدد زهد أبى العتاهية بين الحقيقة أو الادعاء .

وبعد أن اتضح موقف الخلفاء من الشاعر ، وتباين موقفها ، موقف المهدى وموقف الرشيد من أبى العتاهية ، ومعاملة الرشيد نفسه لأبى العتاهية حين يدعوه إلى الغزل ، وترك لبس

---

(١٤٩) الأغانى ٤ / ٥٣ .
(١٥٠) ديوان أبى العتاهية /٨٦ .
(١٥١) ديوان أبى العتاهية /٢٠ .
(١٥٢) ديوان أبى العتاهية /١٦ .

الصوف ، ثم حين يحاكمه على تهمة الزندقة ، ترى أن الرشيد كان له موقف آخر مع غير أبى العتاهية من الشعراء المجان ، وهو الشاعر (أبو نواس) ..

ولم تطل فترة أبى نواس مع الرشيد ، ولم يكن للرشيد دور واضح فى زهد أبى نواس ، وفى تركه المجون ، فقد اقترن اسم أبى نواس باسم الرشيد ، « بل باسم بغداد فى عصر عزها وازدهارها ورفاهيتها ، وظل اسمه متعاونا مع أقاصيص ألف ليلة وليلة ، يتعاونان على إبقاء بغداد صورة براقة مشرقة مزدانة بالخير والرخاء والجمال والسحر»[١٥٣] .

وقد كثرت الروايات حول أبى نواس ، حتى اضطر الوضاعون إلى تلفيق الأخبار والطرائف فى علاقة أبى نواس بالرشيد ، فأضحى لأبى نواس شخصية شعبية تختلف عن الشخصية الأدبية التاريخية ، عرضت سيرته للوضع والتشويه ، لتؤكد مجونه وخفته وظرفه .

وقد نشر المستشرقون رواية حمزة الاصفهانى ، وهى تشتهر عند القدماء لكثرة ما فيها من منحولات على الشاعر ، وإذا عرفنا أن أبا نواس تحول إلى شخصية شعبية تمثل كل ما كان فى العصر العباسى من مجون ، عرفنا توا خطورة نشر ديوانه من روايات موثقة لديوان هذا الشاعر ...»[١٥٤] .

ونرى أبا نواس يمدح الرشيد بالتقوى وخشية الله ..

إمـام يخاف الله حتى كـأنمـا يراقب لقياه صبـاح مسـاء[١٥٥]

وتزداد حدة المجون عند أبى نواس ، ويكثر من النظم فيه ، ويضفى عليه كثيرا من الظرف والخفة – أحيانا – ، ويستخف بأمور كثيرة ، يحترمها العرب ويقدسونها ، ويستخف بالدين وشعائر الدين ، ويستخف بالعرف العربى وتقاليده ، ويصدر فى شعره – أحيانا – عن نفسية مضطربة ، بعض الشىء تقول ما تريد أن تقوله ، ثم تقول عكسه مرة ثانية ، « وقد يكره العرب ساعة فيقول فيهم ما لا يستطيع أن يقول مثله غيره ، وقد كره الفرس ساعة فيقول فيهم ما لا يقوله غيره أيضا »[١٥٦] .

ويتهم بالشعوبية وكره العرب ، وتفضيل العنصر الفارسى عليهم ، ويتهم بالزندقة ، ويدافع عنه البعض، ويتهمه آخرون .

---

(١٥٣) ديوان أبى نواس . تحقيق الدكتور بهجت الحديثى . دار الرسالة للطباعة – بغداد ١٩٨٠ – تقديم د. جميل سعيد ص ١٠ .

(١٥٤) د. شوقى ضيف – البحث الأدبى . طبيعته – مناهجه – أصوله – مصادره – جـ ١ دار المعارف الطبعة الثانية (١٩٧٦) ص ١٦٥ .

(١٥٥) ديوان أبى نواس / ٣٦٠ .

(١٥٦) د. جميل سعيد – مقدمة ديوان أبى نواس – ت . د. بهجت الحديثى ص ١٠ .

ويذم الحلال ، ويمدح الحرام ، ويعلن ذلك صراحة فى أشعاره ، فيثير الرأى الجاد ضده ، حين يطلب الحرام ، ويسعى إليه ، مثلما جاء فى قوله :

يـلائمنى الحـرام إذا اجتمعنـا وأجفو عن معاشرة الحلال[١٥٧]

وفى قوله :

كـان الشباب مـطية الجهـل ومحسن الضحكـات والهزل[١٥٨]

ويقول أيضا :

اسقيـانى الحرام غـير الحـلال ودعانى من دارسى الأطلال[١٥٩]

ويقول :

أتى شهر الصيام فذاب جسمى لترك الشرب فى شهر الصيام[١٦٠]

كما قال أيضا :

قد مللت الحرام من طول شربى يـا خليلى فـداونى بالحـرام[١٦١]

وتطول صحبة أبى نواس للأمين ، ويسعد كل منهما بزميله ، ويستخلصه الخليفة نديما له ، يسمع شعره ، ويكثر الشاعر من مدائحه ، والاشادة به ، ويجزل الأمين له العطاء ، ويستمر الشاعر فى رفقته ، سادرا فى غيه ..

وفى أخبار أبى نواس لابن منظور ، ما أنشده أبو نواس من خمريات للأمين ، ومنها مدحته له حين وصلت إليه الخلافة ، وعنده الشعراء والخطباء يمدحونه ويهنئونه ، فقال له محمد : ألم أنهك عن شرب الخمر ، قال : بلى : يا أمير المؤمنين ، والله ماشربتها منذ نهيتنى عنها ، ومنعتنى من شربها ، وأنا الذى أقول[١٦٢] :

أيها اللائمـان باللوم لـوما لا أذوق المدام إلا شميما
نـالنى بالمـلام فيهـا إمـام لا أرى له خلافة مستقيما
فاصرفاها إلى سـواى فانى لست إلا على الحديث نديما
جل حظى منها إذا هى دارت أن أرها وأن أشم النسيما[١٦٣]

ويبدو أن الأمين قد منع أبا نواس من قول الخمر ، خاصة بعد أن تولى الأمين خلافة

---

(١٥٧) ديوان أبى نواس – ت : د. بهجت الحديثى ص ١٨٦ .
(١٥٨) ديوان أبى نواس – ص ١٩١ .
(١٥٩) ديوان أبى نواس – ص ١٩٦ .
(١٦٠) ديوان أبى نواس – ص ٢٠٨ .
(١٦١) ديوان أبى نواس – ص ٢٠٩ .
(١٦٢) الحصرى القيروانى – زهر الآداب وثمر الألباب جـ ١ ص ٤١٣ .
(١٦٣) ديوان أبى نواس – ص ١٦٨ .

المسلمين ، وخشى أن يلحق به عار من منادمته للشاعر الماجن ، ويصور أبو نواس فى الأبيات منع الأمين له ، وأنه لا يذوق الخمر إلا عن طريق شم رائحتها ، لأنه يطيع الامام محمد الأمين ، وأن دور الشاعر الماجن يقتصر على الحديث فقط ، دون المشاركة فى شربها ، وحسبه أنه يراها ، وأنه يشم نسيمها .

والشاعر أبو نواس لم يمتثل لأمر الأمين ، ويبرر رغبته فى القول فى الخمر ، بمبرر فنى ، فهى تضفى على مدائحه لونا من الإبتكار ، وتضفى عليها طرافة وتجديدا وأن خمرياته فى مدائحه للأمين ليست من المجون فى شىء - إنما هى - التجديد الفنى ، وليست أيضا من الشعوبية وكراهية العرب ، إنما هو نهج أراد أبو نواس أن يبز فيه غيره من شعراء المديح .

ويروى ابن منظور فى أخبار أبى نواس « أن أبا نواس كان يقول يا أمير المؤمنين ، إن شعراء الملوك قبلى شببوا بالمدر والحجر والشاء والبقر والصوف والعير ، فغلظت طباعهم ، واستغلقت معانيهم ، ولا بصر لهم بامتداح خلفائنا . فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لى بالانشاد فعل ، فقال : قل أذنا لك فأنشده :

ألا دارها بالماء حتى تلينا فلن تكرم الصهباء حتى تهينا[١٦٤]

وكان الأمين « فيه ميل شديد إلى اللهو فحول قصر الخلافة إلى مقصف كبير ، للغناء والرقص ، واتخذ أبا نواس نديما له يمدحه وينظم له ما شاء من غزل وخمر »[١٦٥] .

ويستغل المأمون علاقة الأمين بأبى نواس ، ليفيد منها فى محاربته ، وفى محاولة إسقاطه ، ليتولى مكانه ، فقد وجه المأمون - كما يروى الحصرى فى زهر الآداب[١٦٦] - قائده الطاهر بن الحسين لمحاربته ، وكان يعمل كتبا بعيوب أخيه ، تقرأ على المنابر بخراسان ، فكان ما عابه به أن قال : أنه استخلص رجلا شاعرا ماجنا كافرا ، يقال له الحسن بن هانىء ، واستخلصه ليشرب معه الخمر ، ويرتكب المآثم ، ويهتك المحارم ، ويستشهد بقول أبى نواس فى الخمر :

ألا فاسقنى خمرا وقل لى هى الخمر ولا تسقنى سرا إذا أمكن الجهر
وبح باسم من تهوى ودعنى عن الكنى فلا خير فى اللذات من دونها ستر[١٦٧]

ويصل ذلك إلى الأمين ، فينهى أبا نواس عن النظم فى الخمر ، ويأمر أبا الفضل بن الربيع ، فيحبس أبا نواس ، ويظل أبو نواس من الحبس ، ويشكو منه ، ويستعطف أبا

---

(١٦٤) ابن منظور - أخبار أبى نواس ص ١١٤ .
(١٦٥) د. شوقى ضيف - العصر العباسى الأول - ص ٢٢٥ .
(١٦٦) الحصرى القيروانى - زهر الآداب - جـ ١ ص ٤١٣ .
(١٦٧) ديوان أبى نواس - ص ٦١٨ .

الفضل ، الذى يتأثر بشكواه ، فيكلم الأمين فى أمره ، فيطلق سراحه ، ويأخذ عليه عهدا بألا يشرب خمرا ، ولا يقول فيها شعرا [١٦٨] .

ويروى أن حبسه دام ثلاثة أشهر ، ثم دعا به الأمين ، وحوله (بنو هاشم ، وغيرهم) ودعا بالنطع والسيف ، وأراد قتله ، فأنشأ يقول :

مضت لى شهور قد حبست ثلاثة كأنى قد أذنبت ما ليس يغفر
فإن كنت لم أذنب ففيم حبستنى وإن كنت ذا ذنب فعفوك أكبر[١٦٩]

فلما انتهى قال له الأمين : فإن شربتها ، قال : دمى لك يا أمير المؤمنين فخلى سبيله »[١٧٠] .

ويهجر أبو نواس المجون ، ويتجنب القول فى الخمر لفترة ما ، ولم يكن مؤمنا بذلك أو مقتنعا ، ولكنه مرغما ومجبرا على الامتثال لأمر الأمين ، الذى أراد أن ينفى صورته وأن يحافظ على سمعته أمام خصومه ، ويحتال أبو نواس على القول فى الخمر ، كما تحايل من قبله بشار على الغزل والقول فيه ، فكان بشار - كما رأينا - يشير إلى أمر الخليفة المنصور ، حتى يذكر الغزل والمرأة كذلك فعل أبو نواس ، فقد كان يشير إلى أمر الأمين له ، ويعلن عن عجزه فى أن يتحمل هجر المجون ، ويصرح بأن توبته لفظا لا سلوكا أو اعتقادا ، وهى وأن صحت علانية فإن ضميره غير ذلك ، ولكنه يخشى عين الخليفة الأمين التى ترصده دائما ، ويخشى العودة إلى الحبس ثانية ، وربما القتل إذا عاد إلى مجونه ، ودعا إليه ، وحبذه .

يقول أبو نواس :

عين الخليفة بى موكلة عقد الحذار بطرفها طرفى
صحت علانيتى له وأرى دين الضمير له على صرف
ولئن وعدتك تركها عدة إنى عليك لخائف خلف[١٧١]

ويعد خوف أبى نواس من الأمين من المضامين الظاهرة فى خمرياته ، وربما تسمى باعتذارياته فى الخمريات ، وهى فى الوقت ذاته مدح غير مباشر للأمين الذى يحافظ على دين المسلمين ، ويحافظ على سلامة المجتمع وأخلاقياتها ، ويذكر الشاعر أن الأمين يتشدد فيمن يقول خمرا ، ويعاقب من يشربها ، حتى يظهره فى صورة الخليفة الذى يحارب المجون ، ويدعو إلى تجنبه ..

إن مجون أبى نواس ، لم يكن مجونا عاديا ، وذلك ما دفع المأمون إلى التشنيع على الأمين لمصاحبة أبى نواس ، ويدفع ذلك الأمين إلى ضرورة أخذ موقف يمنع فيه الشاعر عن المجون بالحبس والتهديد بالقتل .

---

(١٦٨) الحصرى القيروانى - زهر الآداب جـ ١ ص ٤١٣ .
(١٦٩) ديوان أبى نواس - ص ٤٦١ .
(١٧٠) ديوان أبى نواس - ص ٤٦١ .
(١٧١) الحصرى القيروانى - زهر الآداب جـ ١ ص ٤١٤ .

فقد انتشرت اشعار أبي نواس فى المجون ، فى الخمريات والغلاميات وفى النساء ، وفى الاستخفاف بالدين ، وكأن الشاعر حمل ذنوب الدهر على كاهله ، وقد اتهم بالزندقة – هو الآخر – كما اتهم غيره من شعراء المجون ، وقيل أنه كان كافرا خليعا ماجنا ، فهو القائل معلنا عصيانه :

يا أحمد المرتجى فى كل نائبة قم سيدى نعص جبار السموات[١٧٢]

ويتخذ من شرب الخمر وسيلة لنسيان الصلاة ، والإهمال فى تأديتها فيقول :

إذا دنا وقت الصلاة رأيتهم يحثونها حتى تفوتهم سكرا[١٧٣]

فقد تجاوز أبو نواس الحد المعقول فى مجونه ، وخاصة حين تلعب الخمر بالرءوس ، فيختلط عليه الأمر ، أو يتظاهر بذلك ، فيبدو مضطرب العقيدة ، مهتز الايمان ، ينكر ما آمنوا به ، ويقر بغير ما يؤمنون به ، وتتعالى الصيحات المؤمنة فى محاولة لإسكات صوت المجون ، وينهض الأمين ليجبره على التوبة وعلى الزهد فى المجون ، ويعتبر أمر الخليفة من الدوافع التى أجبرت الشاعر على نبذ المجون وإعلان توبته ، ولكنه لم يكن صادقا فى توبته ، ولطالما تاب وثاب إلى رشده ، ثم ما يلبث أن يعود إلى غيه ثانية ، وينوى ألا يتوب ثانية ، فهو غير قادر على هجر الجوارى الحسان ، وهجر الملذات غير المشروعة ، وعاجز على الزهد فى الشراب أو على القول فى الخمريات ، والنظم فى فنون المجون المختلفة .

وكان أبو نواس قد تاب مرة أيام الرشيد ، وتنسك وحج إلى بيت الله ، ولكنه عاد ثانية ، وتعددت المرات التى يفيق فيها الشاعر ، ويصحو إلى نفسه ، فتتناثر الحكمة والعظات فى ثنايا أقواله .

وقد تأثر فن الخمر فى شعر أبي نواس بأمر الحاكم ، فيتنازل أبو نواس فى بعض خمرياته عن المقدمات الخمرية ، التى كان له فيها فضل التجديد والتطوير ، وقى نظر البعض إليها على أنها من الشعوبية ، وأن الشاعر أبا نواس يستخف بما يحفل به البدوى ، حين يسخر من الطلول ، ومن القفار ومن الدمن ، ومن الوقوف عليهم ، ويسخر من الناقة والحليب وغيرها ، ويستبدل كل هذه العناصر التراثية بعناصر مبتكرة متطورة من الخمر وأسمائها وآلاتها .

وحين يؤمر بترك القول فى الخمر ، يضطر إلى العودة إلى الطلل ، ليجعله استهلالا لمدائحه ، وبدايات لقصائده ، وافتتاحيات لمقطوعاته ، ولكنه لا يرمى بنفسه فى أحضان الأطلال ، فقد كان الشاعر صادقا مع نفسه ، ومع فنه ، وهو وإن عاد إلى الطلل يصفه لأنه أجبر على ترك الخمر وعلى ترك القول فيها . ويذكر أمر الخليفة ، ويصور نهيه له عن التغنى

---

(١٧٢) ديوان أبي نواس – ص ١٠٩ .

(١٧٣) ديوان أبي نواس – ص ١٤٩ .

بالخمريات ، ولولا ذلك ما عاد إلى وصف الأطلال ، ولظل ينظم مقدماته من خمرياته وكئوسها وسقاتها ومجالسها وشرابها ، ولكنه يستجيب لأمر الخليفة ، وأمر الخليفة مطاع ، لا يستطيع له رفضا ، وإن كان ذلك عسيرا على نفسه ، فقد كلفه أمر الخليفة عسرا ، وأركبه مركبا وعرا ، ولكنه على أية حال أخف من وعورة الحبس أو التهديد بالقتل .

يقول أبو نواس :

أعر شعرك الأطلال والمنزل القفرا ... فقد طال ما أزرى به وصفك الخمرا
دعانى إلى نعت الطلول مسلط ... يضيق ذراعى أن أجوز له أمرا
فسمعا أمير المؤمنين وطاعة ... وإن كنت قد كلفتنى مركبا وعرا[١٧٤]

وهو القائل سابقا قبل أن يخشى العقاب والتهديد :

ولا تأخذ عن الأعراب لهوا ... ولا عيشا فعيشهم جديب
دع الألبان يشربها رجال ... رقيق العيش بينهم غريب
إذا راب الحبيب فبل عليه ... ولا تحرج فى ذاك حوب[١٧٥]

ويشكو الشاعر من أمر الخليفة ، ولكنه لا يعصى له أمرا ، ويهجر المرح ، وتبدو عليه الكآبة ، وتودعه روح الخفة والظرف والدعابة ، فقد كان الشراب ومجالسة الجوارى فى الحانات ، يخفف من روحه ، و يكثر من تفكهه ، أما وقد اضطر إلى هجر المجون ، فلا ينتظر منه تفكه ، لشدة خوفه من أمر الخليفة ، فربما يتفكه فيقع فى العصيان دون أن يدرى ، فيأخذه الخليفة بقوله ، ولذا فهو يأخذ جانب السلامة ، ويتجنب القول غير الجاد - حذر العصيان ، وخشية الوقوع تحت طائلة العقاب بالحبس ، أو التهديد بالقتل . فيقول :

فتزودوا منى مراقبة ... ضرر العصا لم يبق لى مرحا
إن الامام له على يد ... فترقبا المسهد صباحا[١٧٦]

ويلوم المجان أبا نواس على تركه المجون ، وتعاتبه الجوارى ، ويحاول الجميع رجعته إلى مجونه ، فقد خسرت مجالس المجون ظريفا ، وحرمت لسانا رشيقا ، وإن لم تكن حرمت من مجالسته ومن مشاهدته - كما ورد فى شعره - فكان يجلس يرى ويشم الخمر فقط دون أن يشربها ، ولكن أبا نواس يرفض لوم اللوام ، فلا يعود إلى مجونه ، إمتثالا لأمر الخليفة ، وطاعة لأمره .

---

(١٧٤) ديوان أبى نواس - ص ١٥٣ .
(١٧٥) ديوان أبى نواس - ص ١٠٢ .
(١٧٦) ديوان أبى نواس - ص ١١٧ .

يقول أبو نواس :

أعاذل إن اللوم منك رجيع ولى أمرة أعصى بها فأطيع[١٧٧]

ويوجه حديثه إلى اللائم مرة أخرى وربما كان المجان يلومونه ، وربما تخيل ذلك اليوم – وهو الأرجح ، حتى يتخلص من قيد المنع ، فينظم فى فن عشقه وأحبه وأخلص له ، فيذكر أمر الخليفة ، وامتثاله له ، ويرد على لائمته بأنه قد باع الجهل حيث يباع ، سمعا وطاعة لأمر أمير المؤمنين .

فيقول أبو نواس :

أعاذل بعت الجهل حيث يباع وأبرزت رأسا ما عليه قناع
نهانى أمير المؤمنين عن الصبا وأمر أمير المؤمنين مطاع
ولهو لتأنيب الإمام تركته وفيه للاه منظر وسماع
قصرت عليه النفس دون مدامة هى اليوم حرب وهى أمس شياع[١٧٨]

لقد ألزم الشاعر نفسه بأمر أمير المؤمنين ، وكم سعد بلهوه فى أمسه ، مستمتعا بالصوت الحسن والمنظر الجميل ، أما – اليوم – فقد نهاه الأمير عن المجون ، فانتهى ..

ويبدو من أشعار أبى نواس التى نظمها امتثالا لأمر الخليفة ، أن الحظر لم يكن مقصورا على الخمر فحسب – بل كان للمجون بفنونه ، يمنع الشاعر من الخمر والغزل الشاذ والاستخفاف بأمور الدين ، فيدعى توبة مصطنعة ، فى تلك المرحلة التى يمثل فيها أمر الخليفة الدافع إلى زهده ، والباعث لتوبته .

وفى بعض أشعار أبى نواس هجر للظرف وللقصف ، وهجر للشرب وللعزف ، وإدعاء توبة لم يقتنع بها ، فيخالف باطنه ما تظهره علانيته ، وفى ذلك يقول الشاعر :

أطع الخليفة وأعص ذا عزف وتنح عن ظرف وعن قصف
عين الخليفة بى موكلة عقد الحذار بطرفها طرفى
صحت علانيتى له وأرى دين الضمير له على صرف
فلئن وعدتك تركها مدة أن عليك لخائف خلفى
دارت فواقعها بناظرتى متصنع بخلاف مايخفى[١٧٩]

وفى توبة أبى نواس – وإن كان مجبرا عليها – ، صدق وواقعية ، فهو يعبر فيها عن خوفه واضطراره ، ويعبر عن عدم اقتناعه ، ويصرح بنفاقه ، حتى يبدو الشاعر صادقا فى مجونه ، حتى فى نوبات التوبة الإضطرارية ، المدفوع إليها دفعا ، فلا يدعى إيمانا لا يؤمن به ، فهو لم

(١٧٧) ديوان أبى نواس – ص ١٦٨ .
(١٧٨) ديوان أبى نواس – ص ١٦٨ .
(١٧٩) ديوان أبى نواس – ص ١٧٠ .

يكن إلا خائفا مذعورا مضطرا ، فجاءت أبياته التى قالها مصورا أمر الخليفة له فى البعد عن المجون ، صادقة تصور نفسيته أصدق تصوير دون تستر أو التواء .

ويظل أبو نواس يتغنى بالخمر ، ويبدو أن منعه شربها ، والقول فيها ، دفعه ذلك إلى أن يكثر من تصوير حالته التى أصابته ، وتصوير توبته المضطر إليها ، ولكنه لا يعصى للخليفة أمرا ، والشاعر يجالس المجان ، ويحضر جلسات الشراب فى الحانات ، وينظر إلى الخمر بعين كلها أسى واشتياق ، ويتعلق بصره بضوئها الباهر ، وحين يأتيه الساقى ، لا يمد أبو نواس إلى كأسه يدا ، وهو راغب فيها ، ويأمر الساقى أن يتخطاه ، ليسقى من يليه ، فهو يطيع أمير المؤمنين .

وفى هذه المعانى يقول أبو نواس :

أعاذل أعتبت الإمام وأعتبها ... وأعربت عما فى الضمير وأعربا
وقلت لساقينا : أجزها فلم أكن ... ليأبى أمير المؤمنين وأشربا
فجوزها عني عقارا ترى لها ... إلى أشرف الأعلى شعاعا مطنبا[١٨٠]

إن زهد أبى نواس الحقيقى لم يكن فى فترة منع الخليفة له شرب الخمر ، ومنعه النظم فيها ، ولكن زهده سيظهر فى فترات أخرى أعقبت هذه الفترة مباشرة ، أو اتصلت بها مع فارق زمنى بسيط ، علما بأن للشاعر فترات توبه سبقت تحذير الامام .

إن الشاعر كان صادقا فى مجونه ، وفى تصوير سعادته بفنونه ، صادقا فى توبته حين تاب عن اقتناع ، وصادقا - أيضا - حين تصنع التوبة والاستغفار .

عاصر أبو نواس الرشيد ، ومدحه ونادمه وجالسه ، ونهاه الرشيد حين أفرط الشاعر فى القول ، واستخف مما يقدسه العرب ، ويقدسه المجتمع العربى .

وعاصر الأمين ونادمه وقربه وأكرمه . ولكن المأمون عابه على ذلك ، وشهر به فى كتبه ، فانقلب على الشاعر ، ساعده فى ذلك الشطط والغلو الذى وصل إليه أبو نواس فى استخفافه بالعرب وبدين العرب ، فقد تخطى القول حتى اتهم بالزندقة والخروج على الدين ، فحبسه ، وهدده بالقتل ، فخاف الشاعر وأعلن طاعته وتوبته وهجر الملذات ، وتمنى زوال القيد ، ليعود إلى المجون .

ومما لاشك فيه ، أن الفترة التى قضاها الشاعر أبو نواس هاجرا المتعة غير المشروعة وممارسة المجون والنظم فيه ، ساعدته على أن يدخل دائرة التوبة مقتنعا - بعد ذلك - وساعدته على أن يظهر فى زهده فى صورة ناضجة غير فجة ، فقد ألزم نفسه بالزهد فترة ، فذاق حلاوته مجبرا ، وتعود هجر الملذات مرغما ، فتمرس على أن يهجرها ، فكان أمر الخليفة

---

(١٨٠) ديوان أبى نواس ٩٢ . أعتبت : رجعت لك العتبى : الرجوع - أكرمت : أفصحت - أعرب : أصح لى - العتبى : الرضا - أعتبه : أعطاه العتبى ورجع المعرفة - أعرب : أفصح وأبان .

الأمين لأبى نواس من الدوافع المساعدة إلى زهد الماجن أبى نواس ، وإلى أن يكثر من النظم فى شعر التوبة والاستغفار . وذلك بالاضافة إلى دوافع أخرى أهمها كبر السن ، والعجز عن السير فى طريق العصيان ، والشعور بالنهاية ، والرغبة الصادقة فى التوبة ، والإحساس الحقيقى بالندم .

ولقد استطاع أبو نواس أن يستغل أمر الخليفة ، ويجعل منعه عن الخمر والمجون من موضوعات شعره . التى يضيف بها بعدا جديدا يضاف إلى الأبعاد الفنية لخمرياته ..

ولم يطل بأبى نواس العمر بعد وفاة الأمين ، ولم تكن له من أخبار مع المأمون تتعلق بالمجون ، وهو وإن عاصر المأمون إلا أنه لم يكن من ندمائه ، وكيف ذلك وهو الذى انتقد الأمين لمنادمته أبى نواس .

أما عن الخليفة (المأمون) وعن الشعراء المجان الذين كان للمأمون دور فى توبتهم ، وفى رجوعهم عن المجون ، وفى تزهدهم ، فيطالعنا الشاعر (على بن جبلة العكوك)[١٨١] ١٦٠ – ٢١٣ هـ . على قائمة هؤلاء المجان الذين عنفهم الخليفة المأمون ، وأجبرهم على ترك المجون .

وعلى بن جبلة المعروف بالعكوك ، شاعر من الشعراء المكفوفين (السائب بن فروخ ، وأبى العباس الأعمى .. وبشار بن برد ، وصالح بن عبد القدوس ، والخريمى ، والرقى ...) وعرف عنه المجون ، فلم يمنعه العمى من أن يكون شاعرا ماجنا ، فتغنى باللذة الحسية ، واستخف بالقيم الدينية ، وبالغ فى مدح القادة إلى حد وصل به إلى البعد عن دائرة الايمان .

وفى الأغانى للأصفهانى خبر عن العكوك . يفيد أن حياة العكوك انتهت على يد المأمون لمبالغته فى مدح أبى دلف ، الذى جاء فيه .

أنت الذى تنزل الأيام منزلها وتمسك الأرض عن خسف وزلزال
وما مددت مدى طرف إلى أحد إلا قضيت بأرزاق وآجال[١٨٢]

وقد عرف عن العكوك المجون والاستهتار ، وحب الخمر ، مما أثار الوعاظ ورجال الدين عليه ، فأوغروا قلب الخليفة نحوه ، مما أثار المأمون عليه .

ومن أشعاره التى يصور فيها تعلقه بالخمر ، وأنها شغله الشاغل وهمه الوحيد قوله :

دع الدنيا فللدنيا أناس ألذ العيش إبريق وطاس
وصافية لها فى الرأس لين ولكن فى النفوس لها شماس[١٨٣]

---

(١٨١) يراجع فى العكوك طبقات ابن المعتز ٧١ – الأغانى جـ ١٨ / ١٠٠ ت بغداد جـ ١١ ، وفيات الأعيان جـ ٢ شذرات الذهب جـ ٢ بروكلمان ص ١ .

(١٨٢) الأصفهانى – الأغانى جـ ١٨ ص ١١٤ .

(١٨٣) شعر على بن جبله (العكوك) ص ١٦٩ / والأغانى / جـ ١٨ / ١٠٣ .

إن المجون الذى دفع المأمون إلى قتل على بن جبله - كما روى لم يكن مقصورا على الخمر وعلى شربها والنظم فيها ، ولكن مدائح على بن جبله ومبالغته فيها ، كانت تثير الخليفة المأمون ، حين يصور الشاعر الممدوح بالدهر وبالزمان ، ويصور ممدوحه أبا دلف ، أو حميد الطوسى ، بأنه المسير للأحداث ، وأن الله - سبحانه وتعالى - قد خلقه من مادة غير تلك التى خلق منها البشر .

ومن هذه المدائح قول العكوك فى حميد الطوسى :

أنت الزمان الذى يجرى تصرفه ... على الأنام بتشديد وتليين
لو لم تكن كانت الأيام قد فنيت ... بالمكرمات ومات المجد مذ حين
صورك الله من مجد ومن كرم ... وصور الناس من ماء ومن طين[184]

وفى مدحه لعبد الله بن طاهر يقول :

ملك عزمه الزمان وأفعاله الدول[185]

وله فى أبى دلف ، مدحته التى جاء فيها :

له همم لا منتهى إكبارها ... وهمته الصغرى أجل من الدهر[186]

إن مبالغة العكوك فى مدائحه ، أثارت المأمون - كما ذكر - ولكنها لم ترق به إلى درجة الكفر التى اتهمه بها البعض ، إنما عبثه ومجونه ورغبته فى العطاء ، كل ذلك دفعه إلى أن يبالغ فى خلع الصفات على ممدوحيه .

ويظهر فى أشعار على بن جبله إيمان بالآخرة وبالحساب والعقاب . ويبدو أن هذه النفحات التى تحمل شيئا من العظة والحكمة بدأ تظهر فى شعر العكوك فى فترة متأخرة من فترات حياته ، ومن ذلك قول العكوك :

عسى فرجا يكون عسى ... نعلل أنفسنا بعسى
فلا تقنط إذا لاقيـ ... ـت ها يقيض النفسا
فأقرب ما يكون المر ... ء من فرج إذا أيسا[187]

ويصور الدهر ، ويصور رجعته عن المجون ، وتوبته ، وقرب الردى ، وسهام الزمان يرمى بها الإنسان فيقول العكوك :

وأرى الليالى ماطوت من شرتى ... ردته فى عظتى وفى إفهامى

---

(١٨٤) شعر على بن جبله / ١٤٣ .
(١٨٥) الأغانى ١٨ / ١١٧ .
(١٨٦) الأغانى ١٨ / ١٠٦ .
(١٨٧) شعر على بن جبله / ص ١٣٩ .

وعلمت أن المرء من سنن الردى حيث الرمية من سهام الرامى[١٨٨]

ويرفض ابن المعتز فى طبقاته ، كما يرفض أبو الفرج فى أغانيه الرواية التى جاء فيها أن المأمون قتله « حين حمل إليه فأمر باخراج لسانه من قفاه»[١٩٠] وقد نفى ابن المعتز والأصفهانى هذه الرواية ، لما عرف عن المأمون باتساع أفقه ، وسماحة نفسه ، وكرم سجاياه ، وقالا أنه مات (أى العكوك) حتف أنفه .

ومهما يكن من أمر الرواية التى اشترك فيها ابن المعتز وأبو الفرج ، فإنها تؤكد أن المأمون لم يترك الماجن يستخف بأمور الدين فى مدائحه ، ويفرط فى صفات ممدوحيه ، ليفتح بابا من الاستخفاف بالدين ومعتقداته ، وأن العكوك هرب من تهديد المأمون له ، ففر إلى الجزيرة ، وإن كانت بعض أشعاره تبدو فيها لمحات من الحكمة والتوبة فقد دفع إليها العكوك حين هدده المأمون وجد فى طلبه ..

وشاعر عباسى آخر للمأمون دور بارز معه ، وهو الشاعر « دعبل بن على الخزاعى » .

وربما كان فى موقف المأمون مع دعبل ما يدفع عن المأمون اتهامه بقتل العكوك ، فقد حاول أبو سعد المخزومى ، تأليب المأمون على دعبل ، والانتقام منه ، فيدخل أبو سعد على المأمون ، وينشده هجاء دعبل له وللخلفاء ، ويحرضه عليه ، فلم يجد المأمون فى ذاك دافعا للانتقام من الشاعر وكان المأمون يقول :

« الحق فى يدك ، والباطل فى يد غيرك ، والقول لك ممكن ، فقل ما تكذبه به فأما القتل فإنى لست استعمله إلا فيمن عظم ذنبه ، أفا استعمله فى شاعر »[١٩١] .

ولقد تمادى دعبل فى هجاء المأمون ، كما هجا غيره من خلفاء بنى العباس ولم يكن المأمون متهورا فى أحكامه ، أو متسرعا فى عقابه ، ونرى دعبل يشتد غضبا على المأمون ، حين يستبدل شعار العلويين بشعار العباسيين ، ويغير الزى الأخضر إلى الزى الأسود ، مما أغضب الشيعة وعلى رأسهم دعبل ، فيقول فى المأمون :

أيسومنى المأمون خطة عـاجز أو ما رأى بالأمس رأس محمد[١٩٢]

---

(١٨٨) النويرى (نهاية الأرب فى فنون العرب) جـ ٦ ص ٨٩ .
(١٨٩) شعر على بن جبله / ٢١٣ .
(١٩٠) الأغانى ١٨ / ١٦٤ .
(١٩١) الأصفهانى - الأغانى - جـ ٢٠ ص ١٢٣ .
(١٩٢) ديوان دعبل بن على الخزاعى - ت : عبدالصاحب عمران الدجيلى - ط . دار الكتاب لبنان - الطبعة الثانية - بيروت - ١٩٧٢ ص ١٧٥ .

ويشتد غضب دعبل من المأمون ، فيهدده بقوله :

إنى من القوم الذين سيوفهم قتلت أخاك وشرفتك بمقعد[١٩٣]

رفعوا محلك بعد طول خموله واستنقذوك من الحضيض الأوهد

ويحذر الشاعر الخليفة من أن يتمادى فى أعماله التى تتعارض والشيعة فيقول له :

لا تحسبن جهلى كحلم أبى فما حلم المشايخ مثل جهل الأمرد[١٩٤]

كل ذلك بل وأكثر من ذلك ، ولم يأمر المأمون بقتله ، بل كان حليما فى رده على من يوغر قلبه ، بأنه لا يستخدم القتل مع شاعر ، فله من الخيال والتعبير وحرية القول . ما يسقط عنه قيد الخطأ فى نظر المأمون .

ورغما من هجاء دعبل للمأمون ، فقد كان المأمون من أشد المعجبين بشعر دعبل ، يتمثل به فى أسفاره ، ولما قرأ المأمون هجاء دعبل فى ابراهيم بن المهدى ضحك المأمون وصفح عن كل هجاء دعبل فيه ، وكان يقول فيه «قاتله الله ما أغوصه ، وما ألطفه وأدهاه »[١٩٥] .

« ولم يعرف خليفة من بنى العباس فى مرونة المأمون وسعة صدره وحلمه »[١٩٦] .

ثم يأتى دور الخليفة (المتوكل) ٢٣٢ هـ ، ومن الشعراء الذين التقى بهم ، وتعامل معهم ، الشاعر على بن الجهم .

ويختلف دور المتوكل مع الشاعر « على بن الجهم » عن موقف غيره من الخلفاء ، فلقد كان موقف المتوكل من ابن الجهم من العوامل المساعدة على أن يزيد الشاعر من مجونه ، والى أن يسرف فى الشراب ، ليعيش المحنة التى وضعه فيها الخليفة المتوكل .

فقد كان « على بن الجهم » جليسا للمتوكل ، ونديما له ، وكان المتوكل يقربه ويجزل له العطاء ، وكان « على بن الجهم » محبا للفلسفة والمناظرة ومهاجمة المعتزله ، ومجادلة الزنادقة .

وقد حظى « على بن الجهم » فى صدر شبابه بديوان المظالم فى خلافه المعتصم ، وقد عظمت منزلة ابن الجهم عند المتوكل ، فازداد خصومه وحساده ، ونجحوا فى أن يوغروا قلب المتوكل ضده ، وأفسد الحساد كل ما كان بين الخليفة المتوكل والشاعر ابن الجهم فى مودة وصفاء . ونجحوا فى هدفهم ، فأبعده المتوكل عنه سنة ٢٣٩ إلى خراسان « ويكتب المتوكل إلى واليها طاهر بن عبد الله بن طاهر بأن يصلبه من الصباح إلى الليل ، فيصلبه ، ثم يدخله السجن ، وتصادر أمواله »[١٩٧] .

---

(١٩٣) ديوان دعبل بن على الخزاعى . ص ١٧٦ .

(١٩٤) ديوان دعبل بن على الخزاعى . ص ١٧٦ .

(١٩٥) الأغانى جـ ٢٠ - ص ١٠٧ .

(١٩٦) الأغانى جـ ٢٠ - ص ١٠٧ .

(١٩٧) ابن المعتز - طبقات الشعراء ٣١٩ - ٤٢٢ .

ويرق المتوكل له ، بعد أن يستعطفه الشاعر ، فيرضى المتوكل عن ابن الجهم ، فيعود إلى بغداد سنة ٢٤١ هـ ، ويعيش فيها مهملا خاملا ، فيحيا حياة الفسق واللهو والمجون ، وما يلبث أن يهجر مجونه ، ويطيل جلوسه فى المقابر ، ويسأله رجل ، ما يجلسك فى المقابر ، فيقول :

يشتاق كل غريب عند غربته ... ويذكر الأهل والجيران والوطنا
وليس لى وطن أمسيت أذكره ... إلا المقابر إذ صارت لهم وطنا[١٩٨]

وكان على بن الجهم صاحب مجون فى فترات حياته الأولى ، ومن ذلك قوله :

سقى الله ليلا ضمنا بعد فرقة ... وأوفى فؤادا يعد فؤاد معذب
فبتنا جميعًا لو تراق زجاجة ... من الراح فيما بيننا لم تسرب[١٩٩]

ويتحول ابن الجهم من المجون إلى قول الحكمة ، ويكثر من الموعظة فى شعره ، أن تجربة الحبس والصلب التى أمر بها المتوكل فجرت الحكمة فى شعر ابن الجهم ، وأضحى شعره يصدر فى كثير من مقطوعاته عن هذه التجربة القاسية .

ويقول على بن الجهم فى صلبه :

إن المصائب - ما تعدت دينه - ... نعم ، وإن صعبت عليه قليلا
والله ليس بغافل عن أمره ... وكفى بربك ناصرًا ووكيلاً
هل تملكون لدينه ويقينه ... وجنانه وبيانه تبديلا[٢٠٠]

ويقول فى حبسه :

صبرا فإن الصبر يعقب راحة ... ويد الخليفة لا تطاولها يد
والحبس ما لم تفشه لدنية ... شنعاء ، نعم المنزل المتورد[٢٠١]

ويلزم على بن الجهم نفسه بالجهاد فى سبيل الله ، ويخرج مع المجاهدين لغزو الروم ، ويعترضه أعراب من بنى كلب ، فيخرج وهو يصيح فيهم بأشعاره ، فيحمله أصحابه عائدين به إلى بغداد ، ويتوفى على بن الجهم على مقربة من حلب سنة ٢٤٩ هـ فى موضع يقال له « خساف » .

وكان الشاعر قد أكثر من شعر التوبة والاستغفار ، ومن الحكم والمواعظ فى أشعاره ، وتمنى

---

(١٩٨) الأصفهانى - الأغانى جـ ١٠ - ٢٢٤ .

(١٩٩) ديوان على بن الجهم - ت : خليل مردم - دمشق - المجمع العلمى العربى ١٩٤٩ ص ٢١٧ (يراجع فى على بن الجهم ديوانه ، وطبقات ابن المعتز ، وت بغداد ١١ / ٣٦٧ - ٣٦٩ - والأغانى ١٠ / ٢٠٣ - ٢٣٤ ووفيات الأعيان ٢ / ٣٩ - ٤١ - وبروكلمان ١ / ٧٨ ، وزيدان ٢ / ٨٩ - ٩١ .

(٢٠٠) ديوان على بن الجهم - ت : خليل مردم - دمشق المجمع العلمى العربى ١٩٤٩ - ص ٢١٧ .

(٢٠١) ديوان على بن الجهم - ١٠٧ .

الاستشهاد فمات شهيدًا ، وهو يقاتل أعداء الله ، فقد جعلته النكبة التى دبرها له الخليفة يكثر من التأمل فى الحياة وفى سلوك البشر ..

وعلى ضوء دراسة بعض مواقف الخلفاء العباسيين من الشعراء المجان يظهر مدى خطورة هذا الدافع فى تحول كثير من الشعراء المجان إلى الزهد ، أو إلى اصطناعه ، وإلى الإكثار من شعر التوبة والاستغفار ، وحتى لو لم ينجح الخليفة فى هدفه - فى توبة الماجن - فإنه يضطر إلى حبسه أو إلى قتله ، حتى يخمد صوت صاحبه الذى يدعو إلى الفجر والفسق .

إن هذا الدافع وهو أمر الحاكم عمل على تهدئة تيار المجون ، والتخفيف منه ، وعمل على تهيئة تيار الزهد والدعوة إلى التوبة والاستغفار .

ولقد تباينت مواقف الخلفاء بين الشدة والالتزام وبين الاعتدال والتساهل والتصنع فى أخذ المجان بشدة ، للمحافظة على المكانة السياسية ، والهيبة الاجتماعية للحاكم وإسكات الأصوات التى تطالب بالقضاء على المجون وعلى أصحابه ، وتبين أيضًا اختلاف درجات المجون عند الشعراء ، ومدى تقدير الحاكم لخطورة درجة المجون عند الشاعر ، بين تهديد أو أمر ونهى أو حبس .

وقد تعامل الخليفة مع أكثر من شاعر ، واختلفت مواقفه معهم ، كما تعامل بعض الشعراء مع أكثر من خليفة واحد ، واختلفت درجات زهدهم فى المجون ، أو توبتهم حسب مواقف الخلفاء ..

إن الخلفاء يحافظون على الدين ، وعلى القيم ، أو هكذا يجب أن يكونوا ، وإن الأساس الدينى يعد من أهم أسس بناء الدولة العباسية ، والدعوة إلى تأييدها وتأصيلها ، وكان العلويون والوعاظ للحكام بالمرصاد ، يطالبون الولاة والخلفاء بالإصلاح ومحاربة الفساد ، ويتصيدون لهم الثغرات الأخلاقية وغيرها فى المجتمع العباسى ، والخلفاء طامعون بالطبع فى البقاء ، وفى تهيئة المناخ السليم ، وتنقية الجو العربى من الشوائب غير الأخلاقية ، مما جعل موقف الحاكم من أبرز المواقف التى دفعت الكثير من الشعراء المجان ، إلى التخلى عن المجون وهجره ، ودفعهم إلى التوبة والاستغفار والزهد ، وذلك حسب تقدير الخليفة لخطورة مجون الشاعر وأثره فى زعزعة الكيان الاجتماعى ، أو اهتزاز صورة الحاكم ، وحسب عقلية الخليفة بين التشدد والمرونة ..

ولم يكن الخلفاء الذين تعرضت لهم الدراسة هم كل خلفاء بنى العباس الذين كان لهم دور فى دفع المجان إلى التوبة ، ولم يكن الشعراء المجان الذين تعرضت لهم الدراسة هم كل المجان الذين تابوا على يد الحاكم ، ولكن الدراسة تعرضت لأبرز المواقف بين الحكام والشعراء المجان .

ثانيًا : (المحنة)

تعددت العوامل التى أسهمت فى دفع الشعراء المجان إلى هجر المجون ، وتعد المحن والنوازل التى ألمت ببعض الشعراء المُجَان من أبرز هذه العوامل التى دفعت بعضهم إلى الزهد فى المجون ، وإلى الندم على الماضى ، وإلى التوبة ، والإكثار من الاستغفار .

وقد تاب كثير من شعراء المجون عن مجونهم ، بعد الكوارث التى ألمت بهم ، وقد تاب بعضهم ، حتى زال أثر المحنة من نفسه فعاود مجونه ثانية .

وتباينت حدة المصائب التى أصابت الشعراء المجان ، فقد جعلت هذه المصائب المجان يرون الحقيقة بعين تختلف عن تلك التى كانوا ينظرون بها فى مجونهم ، قبل الكوارث التى ألمت بهم ، فأضحوا يرون حقيقة الحياة ، ويتأملون العواقب ، ويتدبرون فى الأمور ، ويراقبون من حولهم ، ويرتقبون المصير ، ويغيرون طرائق معايشهم ، ومسالك حياتهم .

وقد تدفع المحنة - أحيانًا - أصحابها من الشعراء إلى الإفراط فى المجون ، والمبالغة فى الاستهتار ، والتمادى فى ارتكاب غير المشروع ، ولعله - دوما - شرب الخمر حتى يستعلى على همه ، وينسى مصيبته ، ويفقد وعيه ، وتفقد المحنة حدتها .

والمحنة مسئولة عن زهد بعض المجان ، كما تعد مشاركة لدوافع أخرى مساعدة على زهد المجان ، فقد يجمع الشاعر فى تحوله من المجون إلى الزهد ، بين أكثر من دافع ، حسب ظروفه الخاصة ، وحسب ما تعرض له فى حياته ، فقد يكون مع أمر الخليفة محنة ، وقد تكون المحنة مع الكبر والعجز والشيخوخة والشيب ، وقد تكون المحنة مع فلسفة واعتقاد بالزهد ، واقتناع بالتوبة .

وتنوعت ألوان المحن ، التى صادفت الشعراء المجان ، بين موت عزيز ، أو فقد صديق ، أو حبس وتقييد حرية ، أو زوال نعمة ، أو الغيرة والشك فى المحبوبة حتى القتل ، وتبدل النعيم شقاء ، وتبدل الصفاء إلى كدرة ..

ومن أشهر الشعراء الذين تابوا عن مجونهم ، وتغيرت طريقة حياتهم ، الشاعر (**ديك الجن الحمصى**)[٢٠٢] ١٦١ هـ - ٢٣٥ هـ (٨٧٧ م) ، (٩٤٩ م) .

---

(٢٠٢) يراجع فى ديك الجن ، ديوان ديك الجن الحمصى - حققه أحمد مطلوب وعبدالله الجبورى - بيروت - دار الثقافة ١٩٦٤ م - ديك الجن الحمصى - تأليف يعقوب العويدات - مصر ١٩٤٨ - الأغانى جـ ١٤ - ٥١ - ٦٧ - وفيات الأعيان ١ / ٥٢٥ - ٥٢٧ - بروكلمان ١ / ١٣٧ ، زيدان ٢ / ٩٦ - ٩٧ .

وديك الجن « شاعر مجيد ، وهو رأس المذهب الشامى ، وكان فى أيامه شاعر الشام إلا أنه لم يذكر مع أبى تمام إلا مجازا »[٢٠٣] وفنون شعره المدح والرثاء والهجاء والخمريات والغزل مؤنثا ومذكرا .

ولد ديك الجن فى حمص ١٦١ هـ وفيها نشأ خليعا ماجنا ، عاكفا على الملذات ، وكان لديك الجن جارية اسمها ورد ، وكان شديد الحب لها ، فاتهم بها غلاما له ، (وقيل بل اتهم بها أخاه)[٢٠٤] وكان ديك الجن قد تزوجها ، فقتلها بيديه ، ثم تكشفت له براءتها ، فظل نادما معتزلا الحياةوالناس ، يستغفر ويتوب ، ويكثر من الحكمة فى شعره ، ويتجنب البشر ، وينظم كثيرا من شعره من تجربته القاسية المريرة .

إن مجون ديك الجن ليس فى حاجة إلى تأكيد ، ففى أشعاره خمريات ، يتغنى فيها بالخمر ، ويصور مجالسها ، وسقاتها ، وفى أشعاره غزليات ، لا تقل عن خمرياته ، وقد قيل فى سبب تسميته بديك الجن رواية يرويها الدميرى تقول « أنه سمى بديك الجن وكان اسمه عبدالسلام ابن رغبان لخروجه إلى البساتين كثيرا ومعاقرته الخمر »[٢٠٥] ويقول ابن خلكان فى وفيات الأعيان أنه « كان ماجنا خليعا عاكفا على القصف واللهو متلافا لما ورثه »[٢٠٦] .

ويروى أبو الفرج الأصفهانى خبرا يصور خلاعة ديك الجن ومجونه جاء فيه أن ابن أخ لديك الجن يقال له أبو وهب الحمصى قال : « كان عمى خليعا ماجنا معتكفا على القصف واللهو ، متلافا لما ورث عن آبائه ، وكان له ابن عم يكنى أبا الطيب يعظه وينهاه ، عما يفعله ، ويحول بينه وبين مايؤثر ويرتكبه من لذاته ، وربما هجم عليه وعنده قوم من السفهاء والمجان وأهل الخلاعة ، يستخف بهم وبه »[٢٠٧] .

ومن شعر ديك الجن فى مجونه . قوله :

مولاتنا يا غلام مبتكره ... فباكر الكأس لى بلا نظرة
غدت إلى اللهو والمجون على ... أن الفتاة الحيّية الخفرة
ما ذقت منها سوى مقبلها ... وضم تلك الفروع منحدرة[٢٠٨]

---

(٢٠٣) ابن رشيق – العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده – جـ ١ . دار الجيل – بيروت – لبنان تحقيق . محمد محيى الدين عبدالحميد – الطبعة الرابعة – جزءان ١٩٧٢ ٢ / ٢٧ ، ٢٨ .
(٢٠٤) العمدة / ٢ / ١٤٢ ، ٢٤١ .
(٢٠٥) الدميرى – حياة الحيوان الكبرى ١ / ٤٨٨ .
(٢٠٦) وفيات الأعيان بروكلمان ٢ / ٣٥٦ .
(٢٠٧) الأصفهانى – الأغانى ١٤ / ٥٢ .
(٢٠٨) ديوان ديك الجن . ت : عبدالله الجبورى . ص ٨٠ .

ويصور ديك الجن سورة الخمر ، ولعبها برأسه ، فيقول :

ثم انثنت سورة الخمار بنا خلال تلك الغدائر الخمره
وليلة أشرفت بكلكلها على كالطيلسان معتجره
فتقت ديجورها إلى قمر أثوابه بالعفاف مستتره[٢٠٩]

ويهجر ديك الجن المجون ، والخمر وجلساته ، بل الحياة كلها ، ويلزم نفسه داره ، لا يبرحها ، ولا يقابل أحدا ، ويتهرب من زواره ، وقد حجب نفسه عن لقاء أبى نواس ، ودعبل الخزاعى وغيرهما .

ويعزى هذا التحول من المجون إلى الزهد ، إلى تلك المحنة التى ألمت به ، فقد تعرف على فتاة نصرانية جميلة تدعى « ورد بنت الناعمة » فيدعوها إلى الإسلام ، فتلبى دعوته ، وتسلم على يديه ، فيتزوجها ، ويرحل ديك الجن مرة خارج حمص ، ويدبر ابن عمه مكيدة فيذيع أن وردا تهوى غلاما له ، وينشر الخبر ، ويعرف ديك الجن عند عودته فيسرع دون تريث فيستل سيفه ، ويضربها ، فيقتلها .

ويعلم ديك الجن – بعد ذلك – حقيقة المكيدة الحاقدة ، التى دبرها ابن العم ، فيندم ندما شديدا ، ويظل شهرا لا يفيق من البكاء ، ولا يطعم من الطعام إلا ما يحفظ حياته .

وتكثر الحكمة فى شعر الديك ، ويصور فيها حقيقة الحياة كما رآها بعد محنته ، كل هذا فى أسلوب يغلب عليه الندم والحزن الشديد ، « ونستطيع أن نعزو إحجام ديك الجن عن الظهور فى الحياة العامة ، والمشاركة الاجتماعية فى الأضواء الأدبية إلى تلك المأساة التى ألمت به مع زوجته ، التى أحبها حبا ملك قلبه ، وانتهى بكارثة حطمت حياته »[٢١٠] .

ويتمرد ديك الجن على هوى الغوانى ، ويرميهن بالكذب فى عواطفهن وبالنفاق فى مشاعرهن . فيقول :

أيها القلب لا تعد لهوى البيض ثانية[٢١١]

ويصور الشاعر حزنه وندمه فى قوله :

لو كان يدرى الميت ماذا بعده بالحى حل ، بكى له فى قبره
غصص تكاد تفيض منها نفسه وتكاد تخرج قلبه من صدره[٢١٢]

وفى قوله أيضا :

سوف آسى طول الحياة وأبكـ ـيك على ما فعلت لا ما فعلت[٢١٣]

---

(٢٠٩) ديوان ديك الجن – ٨٠ .
(٢١٠) د. على أبو زيد – ديك الجن حياته من شعره . مجلة كلية آداب المنصورة العدد الثالث ١٩٨٢ .
(٢١١) ديوان ديك الجن ١١٣ .
(٢١٢) ديوان ديك الجن ٩٣ . (٢١٣) ديوان ديك الجن ٨٧ .

وينصح ديك الجن بتجنب المجون ، والزهد فى هوى الغانيات ، ولن يعقل ذلك إلا كل صاحب رأى وتدبير ، فيقول :

أخا الرأى والتدبير لا تركب الهوى ... فإن الهوى يرديك من حيث لاتدرى
ولاتثقن بالغانيات وأن وفت ... وفاء الغوانى بالعهود من الغدر[٢١٤]

ويرى الموت خيرا من حياة الذل والخوف فى قوله :

فلعمرى للموت أزين للحى ... من الضر ضارعا للرجال[٢١٥]

ويحاول أن ينسى حزنه ، بموت الرسول عليه السلام ، فيقول :

تأمل إذا الأحزان فيك تكاثفت ... أعاش رسول الله أم ضمه القبر[٢١٦]

ويصور الزمن فى بيتين جاء فيهما :

نغفل والأيام لا تغفل ... ولا لنا من زمن موئل
إذا عفا عنك وأودى بها ... ذا الدهر فهو المعنى المجمل[٢١٧]

وتكثر الحكمة فى شعر ديك الجن ، وتقل أو تنعدم خمرياته وغزلياته وغلامياته ، ويكثر شعر التوبة والإستغفار ، والندم والحزن ، وهجر الغوانى ومجالستهن ، ويقيد نفسه فى داره ، حتى أضحت حكمة ديك الجن مصدرا ثريا لغيره من الشعراء العرب ، ينهلون من معانيها ، ويصوغون على نهجها ، مثلما جاء فى الإبانة عن سرقات المتنبى ما يصور إعجاب المتنبى ببعض أبيات ديك الجن فى الحكمة ، ويصوغ على منوالها[٢١٨] .

يقول الديك :

وأنى برئ من أخى وانتسابه ... إلى ، إذا ألفيت فى طبعه بخلا
فإن لم تكن بالطبع نفس كريمة ... وأن كرم الآباء ، لم أره فضلا

أخذه المتنبى فى قوله :

وآنف من أخى لأبى وأمى ... إذا لم أجده من الكرام
ولست بقانع من كل فضل ... بأن أعزى إلى جد همام

ويقول ديك الجن أيضا :

لقد أحللت سرك من ضميرى ... مكانا لا يحس به الضمير

---

(٢١٤) ديوان ديك الجن ١١٥ .
(٢١٥) ديوان ديك الجن ١٢٠ .
(٢١٦) ديوان ديك الجن ١٧١ .
(٢١٧) ديوان ديك الجن ١٢٣ .
(٢١٨) العميدى (أبو سعد محمد بن أحمد العميدى) - الإبانة عن سرقات المتنبى . تحقيق : إبراهيم الدسوقى البساطى . ط . دار المعارف - مصر (الطبعة الثانية) ١٩٦٩ ص ١٦٢ .

فمات بحيث ما سمعته أذن فلا يرجى له أبدا نشور

فأخذهما المتنبى ، ونسج عليها ، وقال : كما جاء فى الإبانة :

وسرك بين الحشا ميت إذا تشر السر لا ينشر[٢١٩]

وجاءت أشعار الديك فى التوبة والاستغفار « على هيئة عظات وعبر مركزة مكثفة أملاها عليه ألم التجربة ، ومرارة الواقع ، وجاءت فى صياغات فنية ، تدل على صفاء شاعريته ، التى نجحت فى تصوير هذه التجارب الإنسانية التى ساقها الشاعر من واقع محنته الخاصة »[٢٢٠] .

ولم يكن ديك الجن حكيما أو واعظا ، إنما كان معبرا عن محنة ذاتية ، ومصورا لتأثره بها ، فجاءت توبته عن الغانيات والهوى ، وجاء زهده فى المجون ، وبعده عنه ، صادقا مدفوعا بدافع إرادى ذاتى ، غير مفروض عليه ، أو مجبرا عليه إجبارا ..

وتبدو مضامين أشعار التوبة فى تصوير ديك الجن لمحنته ، فى ذكر الشاعر للصبر ، ولحسن العزاء ، وتصويره فداحة الخطب ، وإكثاره من كلمات السقم والسم ، وتصويره للقبور وأهلها .. وللسنوات ، وللزمان وتقلبه ، ولقلبه الموجع ...

إن هذه المعانى القاتمة بدأت تشغل حيزا واضحا فى أشعار ديك الجن ، وبدأت تحل محل مجونه وغلامياته ، ونرى ديك الجن فى محنته يقول :

يا نفس لا تسامى ولا تضقى وأرسى على الخطب رسوة الهضب
صونى شعاع الضمير واستشعرى الصبر وحسن العزاء ، واحتسبى
فالخلق فى الأرض يعملون ومو لاك على توأد ومرتغب[٢٢١]

ويقول أيضا :

على هذه كانت تدور النوائب وفى كل جمع للذهاب مذاهب
نزلنا على حكم الزمان وأمره وهل يقبل النصف الألد المشاغب
ويضحك سن المرء والقلب موجه ويرضى الفتى عن دهره وهو عاتب[٢٢٢]

إن مجون ديك الجن قبل محنته بارز واضح ، فى غير حاجة إلى تأكيد ، كذلك أشعار التوبة والندم ، والزهد فى هذا المجون بعد محنته واضح وبارز أيضا ، كان للمحنة الفضل الأول فى زهد الشاعر فى مجونه ، وفى إعتزاله فى داره ، بعيدا عن المجون وأهله . وبعيدا عن الحياة والأحياء ..

---

(٢١٩) العميدى – الابانة عن سرقات المتنبى . ص ١٦٣ .
(٢٢٠) د. على أبو زيد – ديك الجن . ص ١١٣ ، ص ١١٤ .
(٢٢١) ديوان ديك الجن – ص ٣٣ .
(٢٢٢) ديوان ديك الجن – ص ٧٢ .

ويضع البحث ديك الجن قبل غيره من الشعراء العباسيين ، الذين أصابتهم محن ذاتية فنسوا مجونهم وأكثروا من الحكمة ، وذلك لشدة قسوة المحنة الخاصة التى ألمت بالشاعر عن غيرها من المحن التى أصابت الشعراء المجان ، فلم تكن البداية بديك الجن حسب الترتيب الزمنى ، ولكنها كانت حسب شدة المحنة وخطورتها ، وقسوتها على الشاعر نفسه لا من حيث تقييم الآخرين لها .

وربما كانت المحنة فى نظر غير الشاعر بسيطة غادية هينة ، ولكن أهم ما فى المحنة هو تأثيرها فى نفس الشاعر ، وقدرتها على أن تغير سلوكه ، وأن تبدل فى أنماط حياته .

وعلى هذا الأساس كانت محنة ديك الجن من أشد تلك المحن الخاصة وأقساها ، التى نزلت بالشعراء المجان فى العصر العباسى ، ويكفيها أنها جعلته يعتزل الحياة والأحياء ، لا يعتزل الخمريات والغلاميات فحسب .

ومن هؤلاء الشعراء المجان الذى صوروا المحنة فى حياتهم ، وتأثروا بها ، الشاعر بشار بن برد .

فقد تأثر بموت ابن له ورثاه فى مرآث صادقة فى مرارة تحمل عاطفة أب ، حرم من ابن له .

وهذه المحنة التى نزلت ببشار بن برد ، لم تكن سببا فى زهده ، أو فى هجره المجون ، وربما تسلى على كارثته بالإكثار من الشرب ، والافراط فى مجالسة المجان ، ولكنها كانت فترة تأمل بين الشاعر ونفسه ، مثل الومضة الخاطفة فى حياة الشاعر ، استوقف النفس فيها ، وتأمل قليلا ، وتفهم كثيرا من أمور الدين والدنيا ، يفهمها الشاعر جيدا ، ولكن الظروف التى يعيشها تشغله عن أن يتذكرها ، إلى أن حانت هذه الفرصة حين فقد إبنا له .

ويتحدث الشاعر عن طبيعة الأشياء ، وحقيقة المصير ، ويبدو الايمان ساطعا فى أشعاره هذه التى نظمها إبان محنته ، فيصور الموت والجزع منه ، ويصور الدمع والحزن ، ويشكو إلى الله ويدعوه ، فهو المستجيب ، ويقول بشار فى مرثية فى ابنه :

كأنى غريب بعد موت محمد ... وما الموت فينا بعده بغريب
صبرت على خير الفتو رزئته ... ولولا اتقاء الله طال نحيبى
وما جزعى من زائل ثم فجعه ... ومن ورد أبارى وقصد شعيبى
ولى كل يوم عبرة لا أفيضها ... لأحظى بصبر أو بحط ذنوب
إلى الله أشكو حاجة قد تقادمت ... على حدث فى القلب غير مريب
دعته المنايا فاستجاب لصوتها ... فلله من داع دعا ومجيب[٢٢٣]

---

(٢٢٣) ديوان بشار جـ ١ / ١٧٣ .

وينتقل الشاعر من تصويره المحنة ، إلى تصويره للحياة ، فيتحدث عن البشر وعن العيش وعن الدهر ، وعن فراق الأحبة ، فيقول بشار بن برد :

وما نحن إلا كالخليط الذى مضى ... فرائس دهر مخطئ ومصيب
نؤمل عيشا فى حياة ذميمة ... أضرت بأبدان لنا وقلوب
وما خير عيش لا يزال مفجعا ... بموت نعيم أو فراق حبيب
إذا شطت راعتنى متقيما وظاعنا ... مصارع شبان لدى وشيب[٢٢٤]

فالدهر يفترس الانسان ، ويخطئ ويصيب ، ويطمع الفرد فى الحياة وفى العيش ، ولكنها حياة مذمومة ، تتعب البدن ، وتضر القلب ، وما الخير فى حياة تفجع الحى بموت حبيب له ، لا تفرق بين الشيب والشبان .

لقد أدت المحنة الخاصة فى أشعار بشار دورها فى أن تجعله يكثر من نظم الحكم ، ويصور رؤيته التى تنم عن اتعاظه بالحياة وبالممات ، حتى ولو كان الاتعاظ وقتيا ، فإنه أدى دوره المرسوم له فى أن يجعل الشاعر يكف عن الفجر فى غزله وعن الشطط فى قوله ، ولا يتعدى حدود الايمان ، ولا يفرط فى الاستخفاف بالدين وأركانه .

وقد يزول الحال بزوال المؤثر ، وسرعان ما ينسى الشاعر ما أصابه ، أويتناساه ، ويعيش حياته ، ويعود إلى مجونه ، وإلى ما كان عليه قبل مصيبته ، ولكن المحنة جعلت الشاعر يعيش فترة فى ظلال الايمان ، يذوق حلاوته ، ويجنى ثماره التى تظهر فى أشعاره ..

ومن شعراء بنى العباس ، الذين تأثروا بمحنة الموت ، الشاعر (ابن الرومى) ، فقد كان لتجربة الموت معه أثر لا يستهان به ، فيما وصل إليه ، من تشاؤم وهجر للحياة ، وتجذبها فى معظم فتراته التى عاشها .

لقد تزوج ابن الرومى مرتين ، ورزق من زوجتيه أولادا ، وقد توفيت إحدى زوجتيه فى حياته ، وتوفى معظم أولاده ، وتوفيت أمه وتوفى أخوه ، الذى كان يعينه على الحياة . « فاستقر فى نفسه من أجل ذلك كثير من التشاؤم والنقمة ، ومن سوء سلوكه فى المجتمع أنه كان نهما كثير التطلب للطعام ، ردئ التناول له مع الجشع ، وأدرك ابن الرومى أخيرا أنه قد خسر معركة الحياة ، وخاب فى فرض إرادته على مجراها ، فاندفع مع التيار وانغمس فى لا مبالاة مطلقة »[٢٢٥] .

إن المحنة التى أصابت ابن الرومى ، لم تدفعه إلى الزهد ، كما دفعت غيره من الشعراء

---

(٢٢٤) ديوان بشار ١ / ١٧٤ .

(٢٢٥) د. عمر فروخ – تاريخ الأدب العربى – الأعصر العباسية – دار العلم للملايين – بيروت – الطبعة الرابعة ١٩٨١ .ص ٣٤١ .

الذين أصيبوا بمحن فى حياتهم ولكنها دفعته إلى كثير من اللهو والإغراق فى الشرب ، ليتسلى وينسى أحزانه ، فاندفع اندفاعا قويا ، فى خوض تيار المجون ويقول ابن الرومى فى ذلك :

لاح شيبى فرحت أمرح فيه ... مرح الطرف فى العذار المحلى
وتولى الشباب فازددت ركضا ... فى ميادين باطلى إذ تولى
أن من ساءه الزمان بشئ ... لأحق أمرئ بأن يتسلى[٢٢٦]

ويصور الشاعر فلسفته فى المحن فى البيت الأخير من الأبيات السابقة ، ويرى من حق المرء الذى أصابه الزمان بسوء ، أن يتسلى حتى ينسى أحزانه ، والتسلية فى نظره هى الإكثار من المجون والإفراط فيه ..

ويهتم ابن الرومى بالوعاظ والزهاد ، ويرى د. شوقى ضيف « أن ميله إلى الشعر الشعبى هو الذى جعله يهتم بالزهاد والوعاظ : وليس فى حياته ما يصله بالوعاظ والزهد ، إنما كان يتغنى بمشاعر الشعب فى وعظه وتصويره للزهاد ، وحقا أن ديوانه يجرى فيه تشاؤم واسع ، ولكن التشاؤم شىء والزهد شىء آخر ، فالزهد انصراف عن الدنيا ومتاعها الزائل ، والتشاؤم عند ابن الرومى ، نقمة على فقدان المتاع بالحياة » .

ومن الطبيعى أن فقد ابن الرومى لابنه الأوسط قد زاد من تشاؤمه ، ومن كراهيته للحياة ، ودفعته هذه المحنة إلى كثير من التأمل ، وإلى تجنب ملذات الحياة ، وهجر الأحبة ، واعتزال الأحياء .

إنه يرثى ابنه بنفس حزينة شقية ، يطلب من عينيه دموعا ، لتخفف من أحزانه على ابنه فى مرثيته التى مطلعها :

بكاؤكما يشفى وأن كان لا يجدى ... فجودا فقد أودى نظيركما عندى[٢٢٧]

وفيها يقول :

وأولادنا مثل الجوارح ، أيها ... فقدناه كان الفاجع البين الفقد
لكل مكان لا يسد اختلاله ... مكان أمين من جزوع ولا جلد
هل العين بعد السمع تكفى مكانه ... أم السمع بعد العين يهدى كما تهدى[٢٢٨]

ودفعته المحنة - أيضا - إلى أن يكثر من نظم الحكمة فى شعره ، ليجسد فيها رؤيته للحياة : مما قربه من الوعظ والنصح ، إستنادا إلى التجربة والمحنة ، وتكوين فلسفة خاصة به ، ومن هذا قوله ..

---

(٢٢٦) ديوان ابن الرومى - كامل كيلانى - مصر - المكتبة التجارية الكبرى ١٩٢٤ / ٨٣ .
(٢٢٧) الديوان / ٢١ .
(٢٢٨) الديوان / ٢٢ .

أرى المرء قد يلقى التراب بوجهه إلى أن يوارى فيه رهن النوائب[٢٢٩]

ويقول أيضا :

ومحال أن يسعد السعداءالدهـ ـر شقوة الأشقياء[٢٣٠]

وينصح بتجنب الأصدقاء ، وعدم الإكثار منهم ، فإن العدو يستفيد من الصديق فى معرفة الأخبار ، والوقوف على الأسرار ، والصديق سوف ينقلب عدوا والأمور إلى انقلاب ، فيقول :

عدوك من صديقك مستفاد فلا تستكثرن من الصحاب
فإن الداء أكثر ما تراه يحول من الطعام أو الشراب
إذا انقلب الصديق غدا عدوا مبينا ، والأمور إلى انقلاب[٢٣١]

ومن الواضح أن حكمة ابن الرومى خاصة به ، نابعة من مزاجه الخاص ، ومن فلسفة التشاؤم التى عرف بها ، وهو وإن اعتزل الناس ، وتجنب الأصدقاء ، واعتزل المجون ، لم يكن من باب الزهد أو التوبة مثل غيره من الشعراء المجان ، ولكنه من باب الشؤم وفقدان الاستمتاع بالحياة ، وقد كانت للمحنة التى أصابته نصيب فى تكوين تشاؤمه أو فى استمراره والتمادى فيه . فقد كان متشائما قبل فقد ابنه ، ومتشائما بعد فقد ابنه . ولكنه أكثر من قول الحكمة أو الموعظة التى عرف بها .

ومن هؤلاء الشعراء الذين رثوا أبناءهم ، وكان موت الأبناء محنة قاسية ، دفعتهم إلى هجر المجون وإلى التوبة والاستغفار من ذنوبهم ، وتجنب مجالس المجون ، الصنوبرى ، والتيمى ، وسعيد بن وهب ..

والصنوبرى[٢٣٢] هو أحمد بن محمد الحسن الضبى الصنوبرى ، أما لقبه الصنوبرى « فزعم هو نفسه أن جده كان يعمل فى دار الحكمة لعهد المأمون ، فأشترك فى مناظرة بين يديه وأعجب به فقال له : أنك لصنوبرى الشكل دلالة على ذكائه وحدة مزاجه ، ولعل المأمون لم يرد بذلك إلا سمته وصورته وأن وجهه على هيئة ثمر الصنوبر المخروط الصورة »[٢٣٣] .

---

(٢٢٩) الديوان / ٢٣ .

(٢٣٠) الديوان / ١٧ .

(٢٣١) الديوان / ٢٦ .

(٢٣٢) يراجع فى الصنوبرى - ديوان الصنوبرى : الروضيات نشره محمد راغب الطباخ ، حلب ١٩٣٢ - فوات الوفيات - ١ / ٧٧ - ٧٩ - شذرات الذهب ٢ / ٣٣٥ - أعلام النبلاء ١ / ٢٣ - بروكلمان (الملحق) ١ / ١٤٥ ، وتهذيب التاريخ لابن عساكر ١ / ٤٥٦ - الوافى بالوفيات للصفدى ٧ / ٣٧٩ - ومعجم البلدان لياقوت فى (حلب) - وديوانه أيضا بتحقيق د. احسان عباس طبعة - الثقافة بيروت .

(٢٣٣) د. شوقى ضيف - العصر العباسى الثانى ص ٣٤٨ .

ولد فى أنطاكية نحو ٢٨٤ هـ وتوفى سنة ٣٣٤ هـ (٨٩٧ م - ٩٤٦ م) والصنوبرى يسمونه حبيبا الأصغر لجودة شعره ، يقصدون أبا تمام ، والصنوبرى من الشعراء المجان عرف بالخمريات والروضيات والغلاميات ، ويكثر فى شعره وصف الخمر والكئوس والساقى والنديم ، ويصف لياليه ومجالسه ، وما يدور فى مجالسه من غناء الجوارى الجميلات ، وله أشعار فى فتاة مسيحية جاء فيها :

لا ومكان الصليب فى النحـر منك ومجرى الزنار فى الخصـر
وسكر أجفانك التى حلف الـ ـفتور الا تفيق من سـكر
وأقحـوان بفيـك منتـظم على شبيه الغدير من خمـر[٢٣٤]

والصنوبرى ، يتغزل فى غلامه ، ويصوره حين يشرب خمرا فيقول :

بدر غدا يشرب شمسا غدت وحدها فى الوصف من حده
تغرب فى فيه ، ولكنهـا من بعد ذا تطلع فى خده[٢٣٥]

ويفيق الصنوبرى من لهوه : ويعدل عن مجونه ، بعد أن قضى أعواما طويلة معه ، ويتمنى لو زهد فى الدنيا ، وفى متاعها الزائل ، فقد كبر سنه وآن له أن يتوب ، ويستغفر عن ذنبه ، ويكف عن لهوه ، فيقول :

ألقت رداء اللهـو عن عاتقـى خمس وخمسون مضت واثنتان[٢٣٦]

« ولا ندرى هل هجر اللهو فعلا كما تمنى أو ظل يشرب كئوسه صافية وممزوجة حتى الأنفاس الأخيرة من حياته »[٢٣٧] ويرى د. شوقى فى موضع آخر « أن الصنوبرى ارعوى حين تقدمت به السن بعد الخمسين ، وربما كان لموت ابنته ليلى أثر فى ذلك ، فقد صحا من خمره ولهوه على موتها فى سن البراعم الغضة »[٢٣٨] .

ومن شعره فى الزهد فى المجون والإقلاع عن الخمر وتحول حبه له إلى بغض يقول الصنوبرى :

كنت أحب النبيـذ جدا فصار حبى النبيذ بغضا
فلست أرضى ولى شراب والحمد لله لست أرضى[٢٣٩]

---

(٢٣٤) ديوان الصنوبرى / ٦٣ .
(٢٣٥) ديوان الصنوبرى ٥١ .
(٢٣٦) ديوان الصنوبرى ٥٠٣ .
(٢٣٧) د. شوقى ضيف - العصر العباسى الثانى - ٣٥٣ .
(٢٣٨) د. شوقى ضيف - المرجع السابق - ٣٦٢ .
(٢٣٩) ديوان الصنوبرى ت احسان عباس / ٢٥٨ .

ويدعو إلى الحلم ، والبعد عن الجهل ، ويدعو إلى مرافقة الحر الكريم ، وتجنب السفيه الطائش ، فى مرحلة غلبت على الصنوبرى بطوابعها من الخلق والتدين ، فيقول الشاعر :

أضاع الحزم من أمسى مطيعا طوال الدهر ذا حزم مضاع
وأكثر ما أستطعت الحلم أنى رأيت الحلم من كرم الطباع
ولا تتبع أخاسفه ودعه وكن للحر دهرك ذا اتباع[٢٤٠]

لقد كان لموت ابنته ليلى أثر مباشر فى تجنبه المجون ، وفى إعلان توبته ، فقد تكرر فى رثائه لها تصوير الموت والقبر ، والإكثار من العظات التى يجب أن يعرفها الأحياء .

وقد كانت ليلى وحيدته ، بعد موت أختها فى الرقة من قبلها ، وتراه يبكيها فى قصيدة ضادية ، يقول فيها :

لنا فى الرقتين مضيض حزن وفى حلب المضيض على المضيض[٢٤١]

وظل جرحه فى ليلى لا يرقأ ، وكانت عروسا ، فانقلبت الفرحة حزنا بل كارثة ، وانقلب الرحيق حريقا يصطلى الصنوبرى بناره ، ويتعذب عذابا شديدا ، ولا مغيث ولا ملجأ سوى الدموع والأنات والزفرات »[٢٤٢] .

ويكثر الصنوبرى من ذكر أمور دينية كثيرة ، فى مراثيه لابنته ليلى ، يبكيها بكاء حارا يهز القلب ، ويسيل الدمع حين يحل شهر رمضان ، وتقترب ليالى العيد بالفرح والأنس ، فيتذكر ليلى ، وما كانت تصنعه فى ليالى رمضان المباركة : فى قراءة القرآن ، وفى التعبد والتقرب إلى الله .

لقد تحولت حياة الصنوبرى الماجنة تحولا ملحوظا بعد ما حلت به كارثة فقد ابنته ، فكانت من العوامل المباشرة ، التى أبعدته عن القول فى الغزل ، وعن الإفراط فى المجون وفى تصويره .

والصنوبرى يرثى ابنته فى ثمان قصائد تقريبا ، يتذكر ابنته كلما مرت به جنازة ، فيصور لوعته لموتها شابة ، وكم تمنى أن تشيعه هى ، وتعيش حتى تصير من العجائز .

يقول الصنوبرى :

وأصبح مذ أصبحت ليلى جنازة أبوك مراق الدمع أثر الجنائز
مضيت بأثواب الصبا وتركتنى تهزهزنى للشيب أيدى الهزاهز
وكان سرورى أن أكون مقدما وتبقى أن تحسبى فى العجائز[٢٤٣]

---

(٢٤٠) ديوان الصنوبرى ت احسان عباس / ٢٥٨ .
(٢٤١) ديوان الصنوبرى - ٢٦٣ .
(٢٤٢) د. شوقى ضيف - العصر العباسى الثانى ٣٥٧ .
(٢٤٣) ديوان الصنوبرى / ١٤٣ .

وتختفى معالم البشر ، وتزول إمارات السرور والسعادة من حياة الصنوبرى ، ويتحدث على لسان ليلى الراحلة التى تصور عالم الأموات فى رمضان ، لا هلال ولا صيام ، ولا فطور ولا سحور ، ولا أنس ولا أعياد .

يصور الصنوبرى ذلك كله فى حزن وأسى صادقين ، ينبعان من قلب مكلوم ، فتقول ليلى الراحلة لأبيها الصنوبرى :

يـا أبى ليس عنـد مـن مـات عـلم ولا خـبر
لا هـلال الصـيـام يـر عى ولا الفـطـر ينتـظـر
لا فـطـور ولا سـحـو ر لنـا إذ دنـا السـحـر
لا ولا أهـبـة الـعـيـد حـلا الـعـيـد أو أمـر
درست يـا أبى المـحـ ـاسن وامحت الصور[٢٤٤]

ويقف الصنوبرى أمام قبرها ، يستلهم العظات من الموت ، ومن رحيل الأحبة ، ويرى أن وحيدته الراحلة ، كانت قرضا استرده الله حين شاء ، وما عليه إلا الصبر .. فيقول :

أدر عـلى جوانب قـبر ليـلى وأبكى حـولـه بـدم فضيض
أراعى قبـرهـا حـدبـا عليـه مـراعـاة المـمـرض لـلمـريض
ويترك مضجعى أخرى الليالى قضيضا ذكر مضجعها القضيض
أواحـدتى ردت وكنت قرضـا وهذا الدهـر مردود القـروض
وبعض الصبر ينهض حين يكبو وصبرى عنك ليس بذى نهوض[٢٤٥]

إن فقد الشاعر الماجن لعزيز لديه ، يدفعه إلى هجر الملذات ، أو على الأقل إلى هجر القول فى المجون ، فترة ما ، قد تطول ، وقد تقصر ، وربما يستمر فى تركه المجون بعد الكارثة التى ألمت به .

ومما لا شك فيه ، فإن المحن الخاصة التى ألمت بالشعراء المجان ، من الدوافع المباشرة إلى هجر المجون والزهد فيه ، أو إلى أن يتخذ شعر الشاعر شكلا آخر غير ذلك الشكل الذى تعود الشاعر على الصياغة فيه ، فيتغنى الشاعر بالصبر ، ويتأمل فى حقيقة الحياة .

ومن هؤلاء الشعراء المجان الذين أصيبوا بمحنة مماثلة لتلك المحنة التى أصيب بها الصنوبرى ، الشاعران التيمى ، وسعيد بن وهب .

أما (التيمى) وهو عبدالله بن أيوب ، من شعراء الدولة العباسية ، أحد الخلعاء المجان ، ومن أشهر الوصافين للخمر ، وفيها يقول :

---

(٢٤٤) ديوان الصنوبرى / ١٠٣ .
(٢٤٥) ديوان الصنوبرى / ٢٦٤ .

شربت من خمر يوم الخميـ ـس بالكأس والطاس والقنقل
فما زالت الكاس تفتى لنا وتذهب بالأول الأول
إلى أن توافت صلاة العشا ء ونحن من السكر لم نغفل[٢٤٦]

فهو يشرب الخمر ، الكأس بعد الكأس ، ويعجز عن أداء الفروض المطلوبة ، لأنه فى حالة من السكر الشديد المستمر ، الذى يمنعه من الصلاة ، ويعترف التيمى بحبه الشديد للخمر ، وولعه بها ، ويعلن رغبته فى الدوام على شربها حتى الموت ، وحتى تودع عظامه فى قبره ، ويصرح بأنه ضيع شبابه فى شربها ، تلذذا ، وفى ذلك يقول :

ولن أنتهى عن طيب الراح أو يرى بوادى عظامى فى ضريحى لاحد
أضعت شبابى فى الشراب تلذذا وكنت امرأ غر الشباب أكابد[٢٤٧]

ويموت للتيمى ابن ، اسمه حَبّان ، ويحزن التيمى عليه ، حزنا شديدا ، ويرثيه فى بعض أشعاره ، ويهجر المجون ، ويتأمل فى الحياة ، ويتدبر فى أمورها ، ويطلب العون من الأصدقاء ، ويطلب النصح والرحمة ، فهو فى حالة تسمح له بأن يطيع نصح الناصحين ، فقد آمن بتقلب الزمن ، ورأى غدر الحياة ، فيقول الشاعر فى رثاء ابنه حبان :

أودى بحبان ما لم يترك الناسا فأمنح فؤادك من أصابك لباسا
عارمته المنايا إذ قصدن له أصبن منى سواد الشيب والراسا[٢٤٨]

ويطلب الصديق وينصحه ، لا صديق الشراب ، ولكنه صديق الحكمة والموعظة الحسنة ، فيقول التيمى :

يا أبا الفضل كيف تغفل عنى أم تخلى عند الشدائد منى
وهو الناصح الشفيق ولكن لا ملولا ، لا لا ولا متجن[٢٤٩]

ويعلن الشاعر توبته ، ويهجر الملاهى ، ومجالس المجون ، ويتجنب شرب الخمر ، ويكثر من القول الجميل الذى يصوره بالدر المفصل بالياقوت فى جيد ظبى أغن ، فيقول :

إن أكن تبت أو هجرت الملاهى وسلافا يجنها بطن دن
فحديثى كالدر فصل باليا قوت يجرى فى جيد ظبى أغن[٢٥٠]

ويكثر التيمى من شعر التوبة والاستغفار ، وسلك مسلك القناعة فى حياته فيقنع بما قسم له ربه ، راضيا ، ولا ينظر إلى ما فى أيدى غيره ، من نعم الله ، ويسأل الله من فضله ورحمته ،

---

(٢٤٦) الأصفهانى - الأغانى جـ ٢٠ ص ٤٤ .
(٢٤٧) الأصفهانى - الأغانى جـ ٢٠ ص ٤٤ .
(٢٤٨) الأصفهانى - الأغانى جـ ٢٠ ص ٤٤ / ٤٥ .
(٢٤٩) الأصفهانى - الأغانى جـ ٢٠ ص ٤٤ .
(٢٥٠) الأصفهانى - الأغانى جـ ٢٠ ٥٦ / ٥٧ .

لينعم عليه بتوبته ويغفران من خزائنه التى لا تنفذ ، وويل لمن لم يرحمه ربه ، فالبشر جميعا مساكين لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، فيقول التيمى :

لا تخضعن لمخلوق على طمع فإن ذاك مضر منك بالدين
وارغب إلى الله مما فى خزائنه فإنما هو بين الكاف والنون
أما ترى كل من ترجو وتأمله من الخلائق مسكين ابن مسكين[٢٥١]

زهد التيمى فقنع ، وترفع عن البشر ، فتجنب المدح وسؤال الانسان ، وهجر التيمى المجون ، فلم يقل فى الخمر ، ولم يقل فى الغزل ، ولعل محنته فى فقد ابنه من العوامل المساعدة على تحوله هذا من المجون إلى الزهد فيه ، مع عوامل أخرى ، ساعدت على التعجيل بإيمانه ، وعلى أن يعلن الشاعر توبته ، ويهجر الفحش ومجالسه ، ويترفع عن القول الفاجر ، ويكثر من استغفاره لربه باكيا نادما ، تائبا ، لعل الله يقبل توبته ، ويغفر له عما أسرف فى حياته من مجون وخلاعة ...

أما عن الشاعر (سعيد بن وهب) فهو من شعراء العصر العباسى ، ومات فى خلافة المأمون ، وأكثر شعره فى الغزل والتشبيب بالمذكر ، ويقول فيه أبو الفرج الأصفهانى « كان سعيد بن وهب شاعرا مطبوعا ، وكان شغوفا بالغلمان والشراب ، ثم تنسك وتاب وحج راجلا على قدميه ، ومات على توبة واقلاع ، ومذهب جميل ، ومات وأبو العتاهية حى وكان صديقه فرثاه »[٢٥٢] .

وكان لسعيد بن وهب « غلام أمرد ، وفتى ظريف ، وقينة محسنة » ومن مظاهر مجونه ، احتكام الغلمان المرد اليه ، ليحكم فى جمالها ، ويفتى فى حسنها ، ويفضل أحدهما على زميله ، فيقول فى ذلك سعيد بن وهب :

رئمان جاءا فحكمانى لا حكم قاض ولا أمير
هذا كشمس الضحى جمالا وذا كبدر الدجى المنير[٢٥٣]

ويموت لسعيد بن وهب ابن ، فيحزن سعيد حزنا شديدا ، وتتبدل رؤيته للحياة ، ويهجر الملذات ، ويتجنب القول الفاحش ، ويظل يرثى ابنه رثاء حارا ، ويبكيه بكاء صادقا ، ومن ذلك قوله :

عين جودى على أبى الخطاب إن تولى غضا بماء الشباب

---

(٢٥١) الأصفهانى - الأغانى جـ ٢٠ ص ٢٣٤ .
(٢٥٢) الأصفهانى - الأغانى جـ ٢٠ ص ٢٣٦ .
(٢٥٣) الأصفهانى - الأغانى جـ ٢٠ ص ٢٣٤ .
(٢٥٤) الأصفهانى - الأغانى جـ ٢٠ ص ٣٤٠ .

لم يقارف ذنبا ولم يبلغ الحد ث مرجى مطهر الأثواب
أحمد الله يا حبيبى فإنى بك راج منه عظيم الثواب[٢٥٥]

وتتبدل حياة سعيد بن وهب تماما ، من المجون إلى الزهد ، ومن الخلاعة والفجور إلى النسك والتقوى ، ويعترف الشاعر بذنوبه ، ويستغفر ربه ، وكأن محنته فى موت ابنه الذى رحل فى باكورة شبابه ، أزالت غشاوة كانت على عينيه ، وأضحى يرى الحقيقة واضحة ، ويتبصر أمور الدنيا ، ويكفر عن ذنوبه ، وكان صبره على محنته وسيلة لينال عظيم الثواب .

ومن مظاهر توبة سعيد بن وهب أنه « ترك قول الشعر ، وكان إذا وجد شيئا من شعره خرقه وأحرقه ، وكان أمرا صدق كثير الصلاة ، يزكى فى كل سنة من جميع ما عنده ، حتى أنه ليزكى عن فضة كانت على امرأته »[٢٥٦] .

إن موقف سعيد بن وهب من شعره الماجن ، يذكرنا بموقف ابن عبد ربه الأندلسى الذى حاول تمحيص كل شعر قاله فى المجون بشعر آخر يقوله فى الزهد على قافيته وفى بحره ، وعرف هذا الفن عند ابن عبد ربه (بالممحصات)[٢٥٧] .

وتختلف نوع الكارثة من شاعر ماجن إلى آخر ، فالمحنة مرة قتل المحبوبة بيد الزوج الذى يحبها ، وفى مرة أخرى موت الابنة أو الابن فى صدر الشباب ، وتبدل المحنة حياة الماجن من اللهو إلى التوبة ، ومن الغلاميات إلى الاستغفار ، وطلب الرحمة من الله ..

ونرى المحنة تتشكل بشكل آخر عند شاعر ماجن ، عرف بترفه ولهوه ومجونه وغلامياته ، وهو ابن المعتز .

فقد تبدلت الحياة من حول ابن المعتز ، حين ألمت به كارثة عظمى ، وهى مقتل أبيه ، وانتزاع الملك منه ، مما دفع ابن المعتز إلى أن يصدر فى شعره عن كلمة ، وعن قول بليغ – أحيانا ، ويعلن توبته ويستغفر ربه .. بعد أن رأى غدر الحياة وتقلبها .

وكان ابن المعتز يتمتع بعيشه ناعمة مترفة ، مع الشعراء الأدباء فى خلافة المعتز ، « ولما أفضت الخلافة إلى المكتفى ، انغمس فى غمار السياسة ومكايدها »[٢٥٨] ولم يلبث الدهر أن ينقلب ، ويتبدل العز والترف شقاء وبؤسا ، ويحزن ابن المعتز حزنا عميقا لما أصاب والده ، وكان لذلك أثر عظيم فى حياة ابن المعتز وفى سلوكه ، وبدا هذا الأثر واضحا فى شعره ، حين صور آلام الحياة وصور كوارثها وفواجعها ، « كبرها فى نفسه وخياله ما كان ينعم به فى صباه

---

(٢٥٥) الأصفهانى – الأغانى جـ ٢٠ ص ٣٤١ .

(٢٥٦) الأصفهانى – الأغانى جـ ٢٠ ص ٣٣٧ .

(٢٥٧) د. على أبو زيد – الممحصات والمعارضات فى شعر ابن عبد ربه الأندلسى المكتبة العلمية ١٩٨٦ – المنصورة .

(٢٥٨) كارل بروكلمان – تاريخ الأدب العربى – جـ ٢ ص ٥٣ .

من ترف وحياة لاهية ، لم تلبث أن حفت بها الدماء المسفوكة ، دماء أبيه ، كما حف بها النفى والتشريد ، فإذا النعيم يصبح جحيما ، وينقضى عهده إلى غير مآب »[٢٥٩] .

وكان ابن المعتز يحيا حياة القصور المترفة اللاهية ، ويفتح بيته للندامى ، يغنون ويشربون ، ويرقصون ويعزفون ، وكان ابن المعتز يفزع للهوه ومتاعه .

ومن الطبيعى أن المحنة التى أصيب بها وهو مقتل أبيه وجده ، كان لها أثر بارز فى تحول نفسه من المجون إلى غيره ، فقد صور فى شعره الأذى الذى لحق بنفسه ، وصور الفزع والهلع الذى أصابه .

إن المحنة فى حياة ابن المعتز دفعته إلى الافراط فى الخمر ودفعته أيضا إلى التأمل ومعرفة الكون والحياة ، فأضحى يفكر فى الموت والحياة ، وفى بؤس الدنيا وفى شقائها ، كما صور ما ينتظر الانسان من مصير محتوم ، فأخذ يتعمق فى الحياة وفى الفناء ، وفى الموت وفى الثواب والعقاب والجزاء .

إن مجون ابن المعتز العباسى فى غير حاجة إلى دليل ، ففى شعره يؤكد انخراطه فى تيار المجون ، والأخذ منه بنصيب وافر ، فكثيرا ما تغزل ابن المعتز بالمذكر ، ونهل من الخمر نهلا ، تغنى بالمرأة الجميلة ، وبالمرأة الدميمة أيضا ، فقلبه وثاب إلى هذه وتلك ، وإلى الجارية وإلى الصبى ، وإلى كل ألوان الفسق المتاحة له ولغيره من أمثاله من الشعراء المجان ...

ومن قوله فى شعر المجون هذا ، مصورا المعانى السابقة ..

قلبى وثاب إلى ذا وذا ... ليس يرى شيئا فيأباه
يهيم بالحسن كما ينبغى ... ويرحم القبح فيهواه[٢٦٠]

ويصور لذاته وعيشه ولعبه ولهوه وطاعة المجان له ، فيقول ..

فقد كان دأبى جنة اللهو والصبا ... ومازلت باللذات والعيش لعابا
وليلة حب قد أطعت غويها ... وزرت على حد من السيف أحبابا[٢٦١]

ويقول أيضا ..

أبا طيب من للمجالس والخمر ... وكأس غبوق أو صبوح من الفجر
وحانة خمار سقاك كؤوسه ... فظلت صريعا لليدين وللنحر[٢٦٢]

---

(٢٥٩) د. شوقى ضيف - العصر العباسى الثانى - ٣٢٧ .

(٢٦٠) شعر ابن المعتز - ت : د. يونس أحمد السامرائى . العراق - نشر وزارة الاعلام القسم الثانى ص ٣٠١ .

(٢٦١) شعر ابن المعتز - جـ ١ ص ٣٢٤ .

(٢٦٢) شعر ابن المعتز - جـ ١ ص ٦٦٣ .

ولسنا فى معرض تحليل أشعار ابن المعتز فى المجون ، ومعرفة عمقه أو سطحيته ، وفنه الخمرى أو الغزلى ، وطبيعة الصور والتشبيهات التى أتى بها فى فنون شعره ، ولكن ما يهم البحث هو كيفية تحول شعر ابن المعتز فى الغلاميات والخمريات ، إلى شعر الاعتراف بالذنب ، والاقلاع عن المعصية ، والتصريح بالتوبة ، والاكثار من الاستغفار وتسبيح الله وحمده ، والصلاة على رسوله .

وربما مرت تلك الحالة لابن المعتز فى مراحل نفسية مختلفة ، فقد أغرق فى شرب الخمر لينسى همومه ، ثم يفيق منها ليتحسس آلامه ، ويفرغ همومه فى رؤية جديدة للحياة . فكانت الخمر وسيلة للاستمتاع بحياته فيمجونه ، وكانت الخمر - أيضا - وسيلة لنسيان همه ، حتى ينسى محنته ...

يقول ابن المعتز ...

وليس معهم إلا شرب صافية كأنها دمعه من عين مهجو[٢٦٣]

وقوله ..

اسقنى الراح فى شباب النهار وأنف همى بالخندريس العقار[٢٦٤]

ولا يستمر ابن المعتز فى تلك الحالة طويلا ، وإنما يتحول منها إلى الندم والبكاء ، وللتأسف على الماضى ، وعلى الشباب ، وكأن دهر الصبا قصير ، وذنوب الشباب مغفورة ، فقد كان يضحك من كل قلبه ، ويمرح مرح الشباب فى ظل العيش الغرير .

ومن الطبيعى أن يكون ذلك كله قبل أن تنزل به النازلة ، أو قبل أن يحس بأثرها ، وألمها فى نفسه ، وما نتج عن ضياع ملك أبيه ، يقول ابن المعتز ..

لهفى على دهر الصبا القصير وغصنه ذى الورق النضير
وسكره وذنبه المغفور ومرح القلوب فى الصدور
وطول حبل الأمل المجرور فى ظل عيش غافل غرير[٢٦٥]

وكان ابن المعتز فى مجونه ، يعرف جزاء الاثم ، ولم تغب عنه صورة عاقبة الأمر - وكان يبرر ارتكابه الإثم أحيانا بلون من الدعابة ، التى يصنعها مرح الشباب ، فهو يرى فى ملامحه وجه الحبيبة مبررا لمغازلته ، فيقول ...

قد وجدنا غفلة من رقيب وسرتنا نظرة من حبيب
ورأينا ثم وجها مليحا فوجدنا حجة فى الذنوب[٢٦٦]

---

(٢٦٣) شعر ابن المعتز - ١ /٢٣٠ .
(٢٦٤) شعر ابن المعتز - ١ /٢٣٢ .
(٢٦٥) شعر ابن المعتز - ١ /٢٣٧ .
(٢٦٦) شعر ابن المعتز - ١ /٢١٧ .

ويخرج ابن المعتز من حالة انشغاله بالخمر لينسى همه ، فيصحو ، ويعترف بذنبه ، ويرى الإثم أكبر الإثم فيما يقدمه السقاة من خمور وشراب ، ويرى الذنب أعظم الذنب فى تلك المجالس التى كان يغشاها مع الرفاق والصحاب .

فيقول ابن المعتز مصورا ذلك :

ودارت السقات بالمدام وارتكبت عظائم الآثام
ثم انقضى ذاك كأن لم يعقل والدهر بالانسان ذو تنقل[٢٦٧]

ويدخل الشاعر فى مرحلة ثالثة بعد المرحلتين السابقتين ، وبعد أن يعترف بذنبه ، ويدرك طبيعته يعلن توبته فى أطر نفسية ، وصيغ فنية مختلفة . فندم على ما وقع منه فى ماضيه وفى شبابه ، ويقلع عن المجون ، ويهجر الملذات ويتغنى بالحكمة ، ويكثر من حمد الله ومن تسبيحه .

ويحاول الشاعر أن ينسلخ من نسبه ، وأن يتحلل من حسبه ، ويزهد فى اسمه واسم عائلته ، وفى تاريخها . وكم يتمنى أن يكون خاملا جاهلا يعيش فى الظل ، بعيدا عن الضوء وعن الشهرة ، بل وبعيدا عن العلم والثقافة ، ليسعد بنسيان الدنيا له ، ويسعد بتجاهل البشر به ، ويسعد ببعده عن العلم وعن الفكر ، فقد زهد فى كل ما يطمع فيه غيره ، أو فى كل ما كان يطمع فيه من قبل .

ويقول ابن المعتز فى هذه المعانى السابقة أبياتا جاء فيها :

من يشترى حسبى بأمن خمول من يشترى أدبى بحظ جهول
ساء الزمان وأوجعتك صروفه وعسى الزمان يسر بعد قليل[٢٦٨]

ويتوب ابن المعتز ، ويكثر من شعر التوبة والاستغفار ، ويطمع فى عفو الله ، ويسلك مسلك التقوى ، بعد أن هجر طريق الغى والآثام ، ويقول فى ذلك أشعارا ، يعلق عليها الحصرى القيروانى ، فى زهر الآداب وثمر الألباب بقوله : أن ابن المعتز كان فيها « يتوب ويعترف بالذنب » حين يقول :

إلى أى حين كنت فى صبوة اللاهى أمالك فى شىء وعظت به ناه
ويا مذنبا يرجو من الله عفوه أترضى بسبق المتقين إلى الله[٢٦٩]

ويعيش ابن المعتز بعد نكبته فى فترات صحو كثيرة ومتعددة ، ينظم فيها حكمته ، ويصدر عن فلسفة فى رؤيته للأيام ، وفى تصنيفه للبشر ، ويتأمل حكمة الخالق ، ويتدبر الكون من حوله ، ويذم الزمان ، ويشكو الدهر ، ويؤمن بقضاء الله وبقدره ، ويؤمن بما قسم به الله له ،

---

(٢٦٧) شعر ابن المعتز القسم الأول - /٢١٧ .
(٢٦٨) شعر ابن المعتز /٣٩٠ .
(٢٦٩) الحصرى ، زهر الآداب وثمر الألباب /٧٧٤ .

ويرى أن النهاية قريبة ، وأنها المصير المحتوم ، وعلى الغوى العاصى أن يكون بارا تقيا ، ويتبصر المحمود والمذموم من مسالك الحياة .

ويكثر ابن المعتز من نظم الحكمة فى شعره ، النابعة من النكبة التى ألمت به ، ومن شدة التأثر بأزمته قوله :

طال ليلى وساورتنى الهموم ... وكأنى لكل نجم غريم
ورحى تحتنا وأخرى علينا ... كل امرىء فيها طحين هشيم
وسرور وكربة وافتقار ... وبريق كزخرف لا يدوم
ومعاف وذو سقام وحى ... وحبيس تحت التراب مقيم
وغوى عاص وبر تقى ... واستبان المحمود والمذموم
وترى صنعة تخبر عن خا ... لقنا أنه لطيف حكيم[٢٧٠]

واعتمد ابن المعتز فى أبياته السابقة على الصور المتقابلة والمتصلة ، التى صور عن طريقها الحياة ، وكشف عما بداخله من معاناة ، ومن أمنيات وآمال قد حرم منها ، ورأى الواقع يخالف ما كان يتمنى أن يكون عليه ، فأكثر من هذه الصور المتقابلة يعبر عن الانقلاب الكبير الذى وقع فى حياته ، فقد تبدل السرور والنعيم إلى حزن وشقاء ، وتبدل الملك والسلطة إلى ضياع ونفى وتشريد ، فطال ليله ، وزاد سهده ، وصور نفسه بالانسان المطحون الذى وقع بين فكى رحى ، جعلته هشيما تذروه الرياح ، وأخذ يصور السرور والنعيم فى الحياة ، بالشىء الزائف والبريق الخاطف ، فهو بريق زخرف لايدوم .

ودفعه ذلك كله إلى التأمل فى عظمة الخالق سبحانه وتعالى ، وأخذ ابن المعتز ينسج بعض أشعاره على منوال تعليمى ، اتخذ له قالب الرجز ، فى مزدوجة له ، يقول فيها :

باسم الاله الملك الرحمن ... ذى العز والقدرة والسلطان
الحمد لله على آلائه ... أحمد والحمد من نعمائه
وأرسل الرسل بحق ساطع ... قاهر كل باطل وقاطع
وجعل الخاتم للنبوة ... أحمد ذا الشفاعة المرجوة
الصادق المهذب المطهرا ... صلى عليه ربنا فأكثرا[٢٧١]

وفى إيمانه بالقدر يقول :

إن كان يخطىء سمعى ما أقدره ... فليس يحظى ما قد قدر الله[٢٧٢]

---

(٢٧٠) شعر ابن المعتز /٤٢٩ .
(٢٧١) شعر ابن المعتز /٣٢٧ .
(٢٧٢) شعر ابن المعتز /٣٢٧ .

ويشعر ابن المعتز أن النكبة التى حلت به أعظم من أن يتحملها وحده ، بل هو أكبر من أن يعاونه أحد ، حتى لو بذل الصديق أو الجليس غاية جهده لإرضائه ، ويشعر باليأس من الناس أجمعين ، ويصور أحيانا عجزه على التخفيف عن أحزان النفس ، وعجزه على إزالة الآثار السيئة التى ألمت به بعد المحنة ، ثم يصف الزمان بالغدر والتقلب وتعمده تغيير السرور حزنا .

ومما لا شك فيه فإن دافع المحنة يعد من الدوافع الرئيسية فى تحول بعض الشعراء المجان إلى الزهد فى المجون ، والزهد فى مباهج الحياة ، والشعور بالقناعة ، أو التوقف عن ممارسة المجون لفترة ما ، قد تقصر وقد تطول وقد تستمر ، وذلك كله يتوقف على درجة النكبة التى ألمت بالشاعر ، وعلى درجة استعداده لتقبل المحنة ، والتأمل فيها ، ويتوقف أيضا على نفسية الشاعر واستعدادها ، ومدى تأثير المحنة عليه ، ومدى ما استفاده الشاعر من المحنة فى إزالة الغشاوة وتوضيح الرؤية . وتحديد منهج جديد يتعامل به الشاعر الماجن مع الدنيا ومع البشر ومع الذات .

إن هذه النماذج التى تعرض البحث لها ، من المحن التى ألمت ببعض الشعراء المجان ، لم تكن هى كل المحن ، ولكن الاختيار وقع على لون خاص من المحن ، وقع على نوعية معينة من الشعراء العباسيين ، وهم الشعراء الذين اشتهروا بالمجون ، شريطة أن يكون للمحنة أثر بارز فى تحول هذه الطائفة من الشعراء المجان إلى الزهد فيه ، والإقلاع عنه ، وإظهار التوبة ، والاكثار من الإستغفار .

وربما أتى البحث بهذه النماذج مرتبة حسب فداحة النكبة التى ألمت بالشاعر أو حسب قوة تأثير النكبة على الشاعر ، فربما كانت المحنة بسيطة بالنسبة لغيرها من المحن ، أو على الأقل عادية طبيعية ، إنما الذى يهم هو شدة تأثر الشاعر بها ، ودرجة تأثيرها فى تحول حياته وتغيير نفسيته وسلوكه ، فكان لديك الجن أسبقية فى ترتيب هذه الطائفة من الشعراء نظرًا للعزلة التى فرضها على نفسه ، وقيده الذى وضع ذاته داخله .

إن محنته كانت قاسية خاصة ، حين يقتل من أحب ، وحين ترحل شابة جميلة ، وهى تستدر عطفه ، وتذكره بساعات الصفاء ، ثم ما تلبث أن تظهر البراءة ، صفحة بيضاء نقية ، فيندم ولات ساعة مندم .

وتأتى بعد ذلك المحن الخاصة التى أصيب بها بعض الشعراء المجان حين فقدوا أولادهم أو بناتهم وهم فى سن الغضارة والنضارة .

وتختلف محنة ابن المعتز عن تلك المحن الخاصة التى ألمت بغيره من الشعراء المجان ، إن محنته من نوع آخر ، قاسية خطيرة الأثار ، سلب ملكه ، وملك أبيه ، وقتل الأب والجد ، ونفى الصبى ، وحرم شاعر مرهف من نعيم القصور والترف ، وحرم من سعادة وأبهة الحكم ، وتحولت حياته إلى شقاء وبؤس واضحين .

ولعل عامل المحنة أضفى على الشعر الذى صدر من الشعراء الذين وقعت عليهم محن مذاقا خاصا يتسم بالصدق مع النفس ، وعدم التكلف فى إظهار الشعور ، وعدم تصنع الإحساس ، أو تخيل الموقف ، فالشاعر لا يجامل حاكما ، أو يرضى واليا ، أو يعزى صديقا ، أو يهجر المجون ليرضى غيره ، أو يدعى القول فى تركه ، أو يحضر مجالسه وهو فى المجون راغب ، كما رأينا حين منع بشار من الغزل ، ومنع أبو نواس من ذكر الخمر ومن شربه ، فجاءت أشعارهما فى التوبة عن الغزل ، وفى التوبة عن الخمر لا تخل من ذكر الغزل ، ومن ذكر الخمر ، وإعلان نكوصهما فى توبتهما وتصوير رغبتهما فى العودة إلى المجون مرة ثانية .

والموقف يختلف مع شعراء المحنة ، فالدافع إلى ترك المجون نابع من ذواتهم ، غير مفروض عليهم ، مما جعل رؤيتهم للحياة تتسم بالصدق وبالأصالة ، وجعل تعبيرهم يتسم بجزالة المعنى ، ووضوح الرؤية ، الرؤية الصادقة ، التى تصدر عن اقتناع ، اقتناع فى الزهد فى مباهج الحياة ، فبدت أشعارهم أكثر صدقا ووضوحا وعمقا . كما أنها غلفت بثوب من الحزن والإيمان بالله والرضا بقدره ، وعدم الجزع ، فلم يسخط أحد مهما كانت درجة مجونه ، ولم يعص أحد منهم أمر ربه سبحانه وتعالى .

إن الشعراء المجان فى تصويرهم المحن بدوا أشد قربا إلى الله ، وأكثر تقوى من حالات أخرى مرت بغيرهم من المجان ، فكانوا أكثر تعبيرا عن المعانى الدينية ، وعن المفاهيم التى ندر أن تناولوها قبل أن تحل بهم الكارثة . التى غيرت من سلوك حياتهم ، ومن نظرتهم للدنيا ، ومن طريقة تعاملهم معها .

لقد كان عامل المحنة – فى بعض الأحيان – يمثل جزءا من عدة أجزاء أو دافعا مشتركا مع دوافع أخرى ، فى تحول الشاعر الماجن إلى تائب يعرف ربه ، ويقرب منه ، ويكفى المحنة أنها أيقظت ضميرا بدا نائما ، وأشعلت النار فى قلب بدا باردا ، من ناحية إيمانه وذكر ربه ، فأثارت الضمائر وأحيتها فى نفوس المجان ، وكانت بمثابة إنذار ، أذاق بعضهم طعم التوبة وحلاوة الإيمان ، وقربهم من معرفة حقيقة الحياة ، وغيرها من الحقائق ، لم يكن يجهلها الماجن ، ولكنه كان يتجاهلها .

إن دافع المحنة يشتد فى قسوته على نفس الشاعر الماجن خاصة إذا كان الشاعر قد كبر فى السن ، واقترب من الكبر ، فيؤمن بنهاية العمر ، واقترابها ، فيظل فى توبة لا يرجع عنها .

وعلى هذا الأساس يعد عامل الشيب أو كبر السن والشيخوخة من أكبر الدوافع التى أسهمت فى تحول نفر غير قليل من الشعراء المجان إلى الزهد والتوبة والاستغفار .

ثالثا : (الشيب)

الشيب ، ذلك الشعر الأبيض الذى يظهر فى رءوس الشعراء ، من أبرز الصور الفنية والأدبية التى تفنن الشعراء العرب فى مختلف العصور الأدبية فى نسجها .

ولم يكن الشيب ، بالظاهرة التى يغفلها الشاعر العربى الواعى ، الذى أوتى دقة الملاحظة ، والقدرة على تصوير الأشياء ، والقدرة على فهم النفس والتعرف على الذات . فكان شعر الشيب أو الشعر الذى قاله الشعراء فى تصوير الشيب ، يمثل تراثا أدبيا عربيا عظيما ، يا حبذا لو جمع وحقق ، وأفردت له دراسة بل دراسات خاصة به ، توضح اختلاف نظرات الشعراء إلى الشيب ، واختلاف رؤيتهم إليه ، بين مرحب بقدومه ، وبين نافر منه .

إن رؤية الشعراء للشيب ، رؤية جمعت بين الشعراء المجان ، وغير الشعراء المجان ، وشملت – أيضا – الشعراء الذين زهدوا فى مجونهم ، والشعراء الذين أستمروا فى مجونهم .

إن الشيب ، أو تصوير الشيب جاء فى بعض أشعار الشعراء غير مرتبط بالكبر فى السن ، وغير مرتبط بدخول الشاعر فى مرحلة الشيخوخة ، وذلك حين يشعر الشاعر – وهو شاب – بكثرة مصائب الدهر ، وعدم تحمل الإنسان لنوازل الزمان ، وحين يشعر بشدة الظلم ، وبضراوته ، وبسيطرته على المجتمع ، وهو فرد منه ، فيعيش فى مجتمع أو فى عصر يشيب فى الوليدأو يشيب فيه الرضيع ، ويشيب فيه الفطيم ، ويشيب المرد قبل أوان الشيب .

إن الشيب – الذى يعنى به البحث فى هذه الدراسة – هو ذلك النذير الذى يوحى باقتراب الشيخوخة ، أو يوحى بحلولها ، وينذر بكبر سن الشاعر الماجن ، ويشعره بعجزه ، ويشعره بعدم القدرة على التمادى فى العصيان ، كما كان فى شبابه وفى صباه ، ولذلك يرى نفسه مدفوعا – بأمر خارج عن رغبته الذاتية – إلى التوبة وإلى الزهد فى المجون ، فيضطر مجبرا على الزهد وعلى الاستغفار من ذنوبه .

إن اللون الأبيض فى شعر رأس الماجن أضاءت له الطريق ، وبددت له الظلمات ، ووضح السبل التى كانت غير واضحة ، وأخذ بيد كثير من المجان من طريق الهاوية إلى طريق الهدى والتقى . فكانت إنذارا ونذيرا ، لا يمكن تجاهل وجوده ، ولا يمكن إنكاره حتى لو تحايل على ذلك تحايلا . فإنه حقيقة لابد من مواجهتها وتقبلها والتعامل معها ..

وقد اختلف تأثير الشيب فى الشعراء ، فتغنى به البعض ، ورحب بقدومه ، خاصة الشعراء

أصحاب النفوس الايجابية المتفائلة ، غير المعقدة أو المتشائمة ، بينما أنزعج آخرون ، وخشوا عاقبة المصير ، وشعروا بخوف عظيم وبحزن شديد ، ولكن ماذا يفعلون ؟

ويتذكر معظم الشعراء المجان شبابهم ، وهوهم فى شبابهم ، ويبكون الشباب ، ويترحمون عليه ، ويتمنون عودته ، وهيهات أن يعود ، ولن يعود ، يريدون أن يصنعوا مثلما كانوا يصنعون ، بينما يندم آخرون ، يندمون على ما قدمت أيديهم فى شبابهم ، ويعدون فى ذلك حمقا وجهلا وجهالة ، وكم تمنوا أن يكونوا فى منأى عن هذا التيار الفاجر الذى أنغمسوا فيه فى شبابهم الضال .

ورأى بعض الشعراء فى الشباب عذرا ، يكفرون به عن ذنوبهم ، ويستغفرون ربهم عن سيئاتهم ، إن الشاعر الماجن فى شبابه كان جاهلا لم يكن يدرى حقيقة الأمر - هكذا يصور أو هكذا يحاول أن يقنع نفسه ، بما أسرف على نفسه فى شبابه ، إن حقيقة الأمر لم تتضح له ، إلا حين ألمت به الشيخوخة ، وحين بدا الشعر الأبيض يغزو رأسه ، ويشعل الرأس شيبا .

ومن العجيب أن ترحب بعض النساء بشيب الرجال ، ويعجبن به ، ويرين فيه أمارات التعقل والاتزان ويرين فيه بعدا عن التهور والطيش وحماقة الشباب ، بينما نفرت الكثيرات من شيب الرجال ، وسخرن منه ، واستخففن بعواطف أصحاب الشيب ، وعلمن أنهم فى حالة من العجز ، فقدوا معها طاقات الشباب وحيويته .

إن هذه المواقف المختلفة من الشيب ، تجمعت فى أشعار الشيب ، عند الشعراء المجان ، يصورون تقبلهم للشيب ، ويصورون الأثر الذى أحسوا به ، حين وصلوا إلى هذه السن ، وإلى هذه الحالة ، وهذه المرحلة من مراحل العمر . وقال معظم المجان فى مرحلة الشيب أحلى أقوالهم فى الحكمة وفى الزهد وفى القناعة ، وفى الإستعلاء عن الصغائر ، فقد هجروا المجون بضروبه المختلفة ، أو أجبروا على هجره ، وابتعدوا عن غوايات الشياطين ، أو اضطروا إلى البعد عنها ، كما أستلهم الكثيرون من هذه الحالة ، سدادا فى الرأى ، وجزالة فى القول ، فعبروا فى تلك المرحلة عن عصارة فكر ، ونضج تجربة ، افتقرت أشعارهم فى مراحل الشباب إلى العديد من تلك الأفكار الحية .

الشيب فى شعر الشعراء المجان ، من أبرز الدوافع إلى زهدهم ، وإلى تركهم المجون ، ولم يكن أثره واحدا عند الشعراء المجان ، ولكن اختلف تأثيره بين شاعر وآخر ، وباختلاف رؤية الشعراء المجان للشيب ، يصبح الشيب موضوعا شاملا ، يدخل تحت لوائه موضوعات فرعية ، وجزئيات عديدة ، تقتضى استيعابا واستقصاء .

ومن هذه المضامين الفرعية التى تنطوى تحت موضوع الشيب ، بكاء الشباب ، وتصوير العجز ، ومنها مدح الشيب وتصوير ما نزل بروح الشاعر من طاقات روحانية ، ومن كمال فى العقل ، ونضج فى التجربة ، كما عقد بعض المجان مقارنات بين الشباب والشيب ، فضل

البعض فيها الشيب على الشباب ، وفزع آخرون من الشيب ، وبكوا وندموا وترحموا على الصبا والشباب ، ويصور البعض من المجان انطلاقات الشباب ، ويضحك مما كان يصنعه فيه ، حين تتغير نظرته ، وتتبدل رؤيته ، فيعجب لما كان يصنعه فى شبابه ، فقد أدرك جمال الحقيقة التى قدمها له الشيب .

ويرتبط تصوير الشعراء للشيب بشعر التوبة والاستغفار ، فيكثرون من تسبيح الله وحمده ، وطلب الرحمة من الله سبحانه وتعالى ، ويبدون ندما على ذنوبهم فى شبابهم ، ويستعدون للنهاية ، واستقبال المصير المحتوم ، بنفس راضية مطمئنة .

ومن الشعراء من يرتبط تصويرهم للشيب بمعان تشاؤمية ، تدور حول الموت والناعى ، والفناء والهلاك ، والقبر والعظام البالية ، فيفقدون الإحساس بالحياة ، ويفقدون طعمها ، وربما طالت بهم تلك الحالة ، فيظلون فيها أمدا طويلا .

إن المعانى التى ضمنها الشعراء المجان ، فى تصويرهم للشيب ، استمدوا معظمها من أقوال مأثورة - أحيانا - ، وأستمدوا بعضها من تجاربهم الذاتية ، ومن رؤيتهم الخاصة .

وتطالعنا فى بهجة المجالس[٢٧٣] أقوال الرسول ﷺ عن الشيب جاء فيها « من شاب شيبة فى الإسلام كانت له نورا يوم القيامة » ويروى أبو هريرة عن النبى ﷺ ، أنه قال : « أعمار أمتى ما بين الستين والسبعين وأقلهم من تجاوز ذلك » ولجابر حديث عن النبى ﷺ قال : « من تعظيم خلال الله إكرام ذى الشيب المسلم » وروى عن النبى ﷺ ، أنه قال : « إن الله عز وجل ليكرم أبناء السبعين ، ويستحى من أبناء الثمانين أن يعذبهم » .

ويروى صاحب بهجة المجالس - أيضا - أقوالا يؤيد بها ما ورد فى معانى أحاديث الرسول ﷺ ، ومنها ما ينسب لجعفر الخواص حين يقول :

رأيت يحيى بن أكثم فى النوم ، فقلت : ما فعل الله بك ؟ قال : أوقفنى بين يديه فسألنى وناقشنى ، وقال : ياشيخ السوء ! لولا شيبتك لأدخلتك النار . وقول أبى موسى : رأيت أبا الوليد الطيالسى فى النوم فقلت : يا أبا الوليد ، أليس قَدْ مُتّ ؟ قال : بلى . قلت : فما فعل الله بك ؟ قال : غفر لى ورحمنى وطيبنى بيده ، وقال : هكذا فعل بنا أبناء الخمسين والسبعين[٢٧٤] .

واستمدت مضامين الشيب عند الشعراء المجان عناصرها من مصادر أخرى غير ما روى عن الرسول ﷺ ، وغير تلك الأقوال المأثورة ، التى جاءت فى بهجة المجالس وفى بعض المصادر الأخرى ، ومنها ما جاء فى زهر الآداب ، ويرويه الحصرى القيروانى ، فكانت مددا

---

(٢٧٣) النمرى القرطبى - بهجة المجالس وأنس المجالس ، وشحذ الذاهن والهاجس ت : محمد مرسى الخولى ، مراجعة د. عبدالقادر القط / دار الكاتب العربى للطباعة والنشر / ص ٢١٠ .

(٢٧٤) النمرى القرطبى - بهجة المجالس وأنس المجالس / ص ٢٠٨ .

لمعانى كثيرة للشعراء المجان ، فأبدعوا فى نظمها ، وتفننوا فى تصويرها ، حسب رؤيتهم للمعنى ، ووقعه فى نفوسهم .

ومن هذه المعانى التى وردت فى زهر الآداب عن الشيب واستفاد منها المجان ، قولهم (ذوى غصن شبابه ، بدت فى رأسه طلائع المشيب ، غزاة الشيب بجيوشه ، أقمر ليل شبابه)[٢٧٥] .

ومن هذه المعانى أيضا عن الشيب ما أورده الحصرى القيروانى « ألجمه بلجامه ، وقاده بزمامه ، علاه غبار وقائع الدهر ، بينما هو راقد فى ليل الشباب ، أيقظه صبح المشيب ، طوى مراحل الشباب ، وأنفق عمره بغير حساب ، وأخلق بردة الصبا ، ونهاه النهى عن الهوى ، طار غراب شبابه »[٢٧٦] .

ويتعرض بعض الشعراء المجان للبكاء فى المشيب ، وتصوير عجزهم الذى حل بهم ، ومنهم ديك الجن ، فى قوله :

نهنهت الخمسون من شدتى ... وضيقت خطوى بعد اتساع
واتحفتنى خورا ظاهرا ... وكنت قبل الشيب عين الشجاع[٢٧٧]

ويصور شبابه ، وما أقدم عليه فيه ، فيقول ديك الجن - أيضا - :

لله درى فى الشبيبة ... من أخى لهو أريب
أيام يحملنى الشباب ... على التهاون بالذنوب[٢٧٨]

ويتعظ المجان من الشيب ، ويرون فيه نذيرا بقرب المصير ، فيدعون إلى العمل الصالح ، ويستعدون ليوم الحساب ، ويكفون عن المجون ، ويأمرون غيرهم بالاقلاع عنه ، وبالبعد عن الشيطان وغواياته ، فللشيب سيوف يراها ابن المعتز فوق رأسه ، فيقول :

وكنت امرءاً منى التصابى الذى ترى ... فقد بلغت سنى النهى فتناهيت
وقلت ألا يا نفسى هل بعد شيبة ... نذير ، فما عذرى إذا ما تماديت
وقد أبصرت عينى المنية تنتضى ... سيوف المشيب فوق رأسى وأشفيت
فخليت شيطان التصابى لأهله ... وأدبرت عن شأن الغوى ووليت
فما أنا لولا الذكر ما قد علمتم ... أطعت عذولى بعد ما كنت عاصيت
وقالوا مشيب الرأس يحدو إلى الردى ... فقلت أرانى قد قربت ودانيت
تبدل قلبى ما تبدل مفرقى ... بياض التقى فقد نزعت وأبقيت

---

(٢٧٥) الحصرى القيروانى - زهر الآداب وثمر الألباب جـ ٢ / ص ٨٩٨ .
(٢٧٦) الحصرى القيروانى - زهر الآداب جـ ٢ / ص ٨٩٨ .
(٢٧٧) ديوان ديك الجن / ١٣٨ .
(٢٧٨) ديوان ديك الجن / ١٥٣ .

وقد طال ما أترعت كأسى من الصبى زمانا فقد عطلت كأسى وأكفيت[٢٧٩]

يضيف ابن المعتز فى الأبيات السابقة عاملا آخر ، بدل مجونه زهدا ، فضلا عن المحنة التى كانت قد حلت به ، فنراه يعلن توبته ، ويهجر المعاصى ، فقد رأى سيف المشيب مصلتا فوق رأسه ، فتجنب شيطان التصابى ، وبعد عن المجون ، وولى عنه ، وندم على معصيته للناصح الأمين الذى كان يعده عذولا ، ويتمنى لو كان أطاعه وعجل بتوبته .

ويرى ابن المعتز فى بياض الشعر ، بياض التقى ، وأن المشيب طريق الردى ، وها هو قد قارب النهاية ، فعطل كئوس الصبا والشباب بعد رحيلها عنه . وبعد أن حل الشيب به .

ويتفق الصنوبرى مع ابن المعتز فى الرؤية للشيب ، وضرورة الكف عن المجون ، ووجوب التوبة والاستغفار ، وكان الصنوبرى مدمنا للمجون فى شبابه ، ويفيق من الخمر ، ومن كئوسها ، ويصحو من غفلته ، حين نزل الشيب برأسه ، ويعلن زهده فى الدنيا ، وفى متاعها الزائل ، فقد كبرت سنه ، ومن حق السن عليه أن يحترم الشيب ، ويهجر اللهو ، الذى لا يتفق مع ما وصل إليه من حالات التعقل والاتزان . فيقول الصنوبرى :

ألقت رداء اللهـو عن عاتقى خمس وخمسون مضت واثنتان

فهو يحدد عمره ، فقد صار فى السابعة والخمسين ، وآن له أن يتوب ، ويكف عن مجونه ، ويعلق د. شوقى ضيف على ذلك بقوله « ولا ندرى هل هجر اللهو فعلا كما تمنى أو ظل يشرب كئوسه صافية وممزوجة حتى الأنفاس الأخيرة من حياته ٣٣٤هـ »[٢٨٠] .

ومن الشعراء المجان « الحسين بن الضحاك »[٢٨١] ، المعروف بالخليع ، وقد صور شيخوخته ، والشيب الذى نزل به ، ويعلن أنه قد بلغ الثمانين من عمره ، ويأمل أن يغفر الله له ، متأثرا بالحديث الذى روى عن الرسول ﷺ عن الشيوخ والعجائز من أبناء الثمانين .

يقول الحسين بن الضحاك (الخليع) ، وقد عمر :

أمـا فى ثمانين وفيتهـا عزيـز وان أنـا لم أعتـذر
وقـد رفـع الله أقـلامـه عن ابن ثمانين دون البشـر
فإن يقضى لى عمـلا صالحـا أتاب وان يقضى شرا غفر[٢٨٢]

---

(٢٧٩) ديوان ابن المعتز جـ ١/ ٦٤ ، ٦٥ .

(٢٨٠) د. شوقى ضيف - العصر العباسى - ص ٣٥٢ .

(٢٨١) يراجع فى الحسين بن الضحاك ، أشعار الخليع الحسين بن الضحاك ، جمعها وحققها عبدالقادر أحمد فراج ، بيروت - دار الثقافة ١٩٦٠ - نديم الخلفاء الحسين بن الضحاك تأليف عبدالقادر أحمد فراج القاهرة - دار المعارف ١٩٥٢ - طبقات ابن المعتز ٢٦٨ - ٢٧١ - الأغانى ٧ : ١٤٦ - ٢٦٢ - تاريخ بغداد ٨ : ٥٤ - ٥٥ - معجم الأدباء جـ ٥ - ٢٣ ، ١١٢ ، زيدان ٢ : ٩١ - ٩٢ .

(٢٨٢) ياقوت الحموى - معجم الأدباء : أحمد فريد الرفاعى - دار إحياء التراث العربى - بيروت لبنان جـ ٥ ص ١٤ .

ويقول الحسين الخليع - أيضا - فى الثمانين من عمره :

أصبحت من أسراء الله محتسبا فى الأرض نحو قضاء الله والقدر
إن الثمانين أوفيت عدتها لم تبقِ باقية منى ولم تذر[٢٨٣]

ويعلق ياقوت الحموى فى معجم الأدباء عن البيتين السابقين للخليع بقوله « والأصل فى قول الحسين بن الضحاك هذا ، الحديث الذى رواه ابن قتيبه فى غريب الحديث ، إذا بلغ العبد ثمانين سنة ، فإنه أسير على الأرض ، تكتب له الحسنات ، وتمحى عنه السيئات .

ويصور بعض الشعراء الشيب ، وهم لا يزالون فى شبابهم ، رمزا للظلم ولكراهية الحياة ، وللسأم من العيش ، والزهد فى مباهج الحياة ، مع القدرة على الاستمتاع بها .

ولم يكن الشيب عندهم شعرا أبيضا ينزل بالرأس يغير سوادها ، إنما كان حزنا وكآبه ، وتصويراً لأزمات وتناقضات واضحة فى حياتهم ، فلم يتحملوا قسوة الظلم ، ولم يقدروا على معارضته ، أو التصدى لأهله ، وعجزوا حتى عن الشكوى وحرموا القدرة على التعبير ، فصوروا شيبهم وعجزهم ، فقد أتى الشيب قبل موعده ، وهو لم يأت بالفعل ، وهذه الحالات من أخطر حالات الشيب ، ومن أشدها قسوة ، فالشاعر يصور شيب النفس ، الذى يحطمها ، ويهدم معنوياتها ، ويقوض أركان السعادة ، وهو شيب الوجوه ، الذى يزيل منها النضارة ويهرب عنها دماء الحيوية والشباب .

وقد بالغ بعض الشعراء فى هذا المعنى ، حين صوروا الولدان والرضع شيبا ، من قسوة الظلم الصارخ ، فى الحياة وفى العصر ..

يقول ابن المعتز فى هذا المعنى :

شيبتنى ولم يشبنى السـ ـن هموم تترى ودهر مرير[٢٨٤]

والشعراء المجان حين يزهدون فى متاع الدنيا ، وفى مباهجها ، يبكون الشباب - أحيانا - ويترحمون عليه ، ويستعرضون ما فعلوه فيه ، دون إعلان الرغبة فى العودة إليه ، فقد صاروا فى حالة غير الحالة التى كانوا عليها ، وقد دفعهم الشيب إلى الزهد المجبر عليه ، فيرحبوا بالشيب أيضا ، ويمدحونه ، ففيه التعقل والتروى ، والابتعاد عن المجون .

ومن الشعراء الذين بكوا الشباب ، وترحموا على أيامه ولياليه ، فى معرض حديثهم عن الشيب ، ابن المعتز والباهلى ، وأبو حيه النميرى ، والحسين بن مطير وأبو العتاهية .

وهذا أبو العتاهية ينعى الشباب ، الذى ولى عنه دون أمر منه ، ودون رغبة ، ويحتسبه عند الله احتسابا ..

---

(٢٨٣) المصدر السابق جـ ٥ / ١٥ .

(٢٨٤) ديوان ابن المعتز جـ ١ ص ٦٥ .

مضى عنى الشباب بغير أمرى فعند الله احتسب الشبابا
وما من غاية إلا المنايا لمن خلقت شبيبته وشايا[٢٨٥]

والشاعر أبو حيه النميرى[٢٨٦] ت سنة ٢١٠ هـ ، وهو الهيثم بن الربيع بن زرارة من بنى عامر بن نمير ، « تزوج أبو حية ابنة عم له فماتت فكاد يخرج عليها من الدنيا . ثم أصابته لوثة[٢٨٧] ويقول ابن قتيبة ، فى الشعر والشعراء « أن لوثة أبى حية كانت كلوثة مجنون ليلى »[٢٨٨] ويقول عنه الجاحظ فى البيان والتبيين : « وسنذكر نوادر من كلامهم ، ومجانين الشعراء ، ولست أعنى مثل مجنون بنى عامر .. وانما أعنى مثل أبى حية فى أهل البادية .. »[٢٨٩] .

« ولأبى حية أشعار جياد أكثرها فى وصف زوجته فى حياتها وفى رثائها بعد موتها »[٢٩٠] وفنون شعره المجون والحكمة ..

وأبو حية النميرى من المجان الذين بكوا الشباب ، ومجونه يعود إلى مرحه وضحكه وظرفه ودعابته ، وهو من الشعراء المخضرمين الذين عاصروا الدولتين الأموية والعباسية ، وقد اتهمه بعض مؤرخى الأدب ومنهم الأصفهانى وابن المعتز وابن قتيبة ، بالكذب والجبن والهوج والبخل ، وذلك حين عرضوا لسرد أخباره ، ورواية نوادره وطرائفه .

ويرى د. الشكعة أن أخبار « أبو حية النميرى » وسلوكه الاجتماعى الضحوك المراح ، قد جنى على شعره ، وحال بين الدارسين ومتابعة فنه ، وكانت له تصرفات مرحه ، يعمد فيها إلى المبالغة الضاحكة التى جعلت بعض الناس ينسبونه إلى الكذب ، وما هو بكذاب ولكنه صانع نكته ، والبعض ينسبونه إلى الهوج وما هو بأهوج ، ولكنه صاحب مرح ، يدخل السرور على قلوب الناس شأنه شأن كثيرين من الفكاهيين المرحين[٢٩١] .

ويبكى أبو حية النميرى الصبا والشباب ، بعد أن فجع بزوجته ، وبعد أن نزل الشيب برأسه ، فيقول :

---

(٢٨٥) ديوان ابن العتاهية ٢٣٦ .

(٢٨٦) يراجع فى أبى حية النميرى . طبقات ابن المعتز ١٤٣ - ١٤٦ - الأغانى جـ ١٥ ٦٤ - ٦٥ ، زيدان ١ : ٣٤٩ - العمدة ١ : ١٧٢ - ١٧٣ - البيان والتبيين ٢ : ٢٢٥ - ٢٣٠ . والشعر والشعراء ٧٧٤ - وأمالى المرتضى ١ / ٤٤٧ - وأمالى القالى ٢ / ٢٨١ ، وزهر الآداب ١ / ١ والكامل للمبرد ١ / ١٢٩ .

(٢٨٧) ابن المعتز طبقات الشعراء ١١٤٦١ .

(٢٨٨) ابن قتيبة - الشعر والشعراء / ٣٥٥ .

(٢٨٩) الجاحظ - البيان والتبيين ٢ / ٢٢٥ .

(٢٩٠) د. عمر فروخ ، تاريخ الأدب العربى جـ ٢ ص ١٨٨ .

(٢٩١) د. مصطفى الشكعة - رحلة الشعر من الأموية إلى العباسية ص ٤٤٢ .

تجود لك العينان من ذكر ما مضى إذا ضن بالدمع العيون الغوارز[٢٩٢]

ويظل يبكى على الشباب الذى ولى ، ويرى الشيب قد بدل سواد شعر رأسه بياضا ، وأضحى يعيش على ذكرى الشباب ، فيقول :

زمان الصبا ، ليت أيامنا رجعن لنا الخاليات القصارا
ليالى رأسى غراب غداف فطيره الشيب عنى فطارا
أجارتنا ، إن ريب الزما ن قبلى أفنى الرجال الخيارا
وهازئة إذ رأت كبرة تلفع رأسى بها فاستنارا
فإما ترى لمتى هكذا فأكثرت مما ترين النفارا[٢٩٣]

ويهتم الشاعر كما أهتم غيره بأبيات الشيب ، فيجعل منها مقدمة لبعض قصائده خاصة فى المديح ، حتى تعد مقدمة الشيب من المقدمات المبتكرة ، التى نجح شعراء الدولة العباسية فى أن يضيفوها إلى مقدمات القصائد التقليدية الأخرى .

ويظهر فى تصويره سخطا على الشيب وترحما على الشباب فى مقطوعات أخرى ، فيقول مصورا بعد النساء عنه ..

أخو الشيب لا يدنو إلى الحور بالهوى ليقرب إلا ازداد فى قرب بعدا
يعاطينه كأس السلو عن الهوى ويمتعنه وصلا يعاطينه المردا[٢٩٤]

ويظهر أسفه على رحيل شبابه ، ويتمنى لو أن المشيب هو الذى رحل ، فيقول :

ترحل بالشباب الشيب عنا فليت الشيب كأن به الرحيل
وقد كان الشباب لنا خليلا فقد مضى مآربه الخليل[٢٩٥]

وتبدو مقدمات الشيب واضحة فى أشعار منصور النمرى ت ١٩٣ هـ وهو تلميذ كلثوم بن عمرو العتابى فى الشعر والرواية ، وقد أجاد فى وصف النهود والسيف والشيب .

ومن مقدمات الشيب عنده ، ما جاء فى قصيدة يمدح فيها الرشيد ، فيقول :

ما تنقضى حسرة منى ولا جزع إذا ذكرت شبابا ليس يرتجع
أودى الشباب ، وفاتتنى بشرته صروف دهر وأيام لها جذع
ما كنت أو فى شبابى كنه غرته حتى انقضى ، فإذا الدنيا له تبع

---

(٢٩٢) ابن المعتز - طبقات الشعراء ص ١٤٤ .
(٢٩٣) طبقات ابن المعتز / ١٤٥ .
(٢٩٤) حماسة البحترى ص ١٩٧ .
(٢٩٥) أمالى المرتضى ١ / ٤٤٤ ، وحماسة ابن البحترى ٢٣٩ .

إن كنت لم تطعمي ثكل الشباب ولم تشجى بغصته فالعذر لا يقع[٢٩٦]

ومن الشعراء المخضرمين الذي عاصروا الدولتين الأموية والعباسية الشاعر (الحسين بن مطير الأسدى) ٩٠ هـ - ١٦٩ هـ وهو (شاعر فصيح مقدم فى الرجز والقصيد ، وهو بارع فى المدح والفخر والوصف والغزل والنسيب) .

ومن قوله فى مرحلة مجونه :

لقد كنت جلدا أن توقد النوى على كبدى نارا بطيئا خمودها
وقد كنت أرجو أن تموت صبابتى إذا قدمت أيامها وعهودها
فقد جعلت فى حبة القلب والحشا عهاد الهوى تولى بشوقى بعيدها
بسود نواصيها وحمر أكفها وصفر ترائبها ، وبيض خدودها
مخصرة الأوساط زانت عقودها بأحسن مما زينتها عقودها[٢٩٧]

وحين ينزل به المشيب ، يبكى الشاعر الحسين بن مطير شبابه ، ويحييه ، ولكنه لا يحن للرجوع إليه ، بل يستلهم أصواتا أخرى غير أصوات الشباب ، يخيل اليه أنه يسمعها وهى أصوات الحجيج ينادونه بأن يؤدى الفريضة ، ويتوب عن مجونه ، ويبدأ فى رحلة الزهد والقناعة ، والتوبة والاستغفار ، فيلبى نداء الفلاح والصلاح ، فيقول ابن مطير :

نزل المشيب فما يريد براحا وقضى لبانته الشباب فراحا
فعلى الشباب تحية من زائر يغدو ويطرق ليلة وصباحا
فدع الشباب فقد مضى لسبيله وانظر بعينيك بارقا لماحا
وكأن أصوات الحجيج عشية يبغون بالصوت الرفيع فلاحا[٢٩٨]

والشاعر ابن ميادة ت ١٤٩ هـ من المخضرمين المجان الذين تابوا عن مجونهم ، حين نزل بهم المشيب ، وهو أبو شرحبيل الرماح بن أبرد وكانت أمه ميادة من أهل أسبانيا ، الذين سكنوا المغرب[٢٩٩] .

وكان ابن ميادة « لباسا عطرا كثير المغامرات فى طلب النساء » ، ومن قوله فى إمرأة اسمها أم مجدر بنت حسان المرية ..

---

(٢٩٦) طبقات الشعراء لابن المعتز ٢٤٧ - والأغانى ١٣ / ١٤٠ - ١٥٧ وتاريخ بغداد ١٣ / ٦٥ - ٦٩ .

(٢٩٧) ياقوت - معجم الأدباء ١٠ / ١٦٦ - ١٧٨ - والأغانى جـ ١٦ / ١٦ - ٢٧ - وفوات الوفيات ١ / ١٨٥ - ١٨٦ - وطبقات ابن المعتز ١٤٤ - وديوان الحماسة ٣١٩٠ ، والبيان والتبيين ٣ / ٢٣٧ - وزهر الآداب ٨٠ - والأمالى للقالى ١ / ٤٤٣ .

(٢٩٨) طبقات الشعراء لأبن المعتز ١١٥ .

(٢٩٩) الأغانى جـ ٢ ص ٢٦٤ .

ألا ليت شعرى هل إلى أم جحدر سبيل ؟ فأما الصبر عنها فلا صبرا
وإنى لأستنشى الحديث من أجلها لأسمع منها ، وهى نازحة ، ذكرا
وإنى لأستحيى من الله أن أرى إذا غدر الخلان - أنوى لها الغدرا[٣٠٠]

وعاش ابن مياده ، حتى أدرك بنى العباس ، وقيل أنه توفى سنة ١٤٩ هـ ، وحين نزل به المشيب ، وكبر سنه ، قال ابن ميادة فى شعر التوبة :

كنت امرءا أرمى الزوائل مرة فأصبحت قد ودعت رمى الزوائل
وعطلت قوسى اللهو من شرعاتها وصارت سهامى بين رث وناصل[٣٠١]

والشاعر محمد بن حازم بن عمرو الباهلى ، من شعراء الدولة العباسية ، وله شعر يمدح فيه الشباب ويذم المشيب ، ويصور سنه وقد بلغ الخمسين من عمره ، فهجر المجون ، وروى أنه نسك وترك شرب النبيذ ، وقال لما سأله إبراهيم بن المهدى أن يشرب ، ويعود إلى مجونه ثانية :

أبعد خمسين أصبو والشيب للجهل حرب
سن وشيب وجهل أمر لعمرك صعب[٣٠٢]

ويرضى باليسير ، ويقنع ، ويرى أن قارون فى ثرائه معدما فى نظره ، فقد زهد الشاعر وتنسك فيقول :

أعزنى اليأس ذا غنى فما أرجو سوى الله ولا أهرب
قارون عندى فى الغنى معدم وهتى ما فوقها مذهب[٣٠٣]

وفى بعض شعره مدح للشباب وذم للشيب ، وجاء هذا فى مرحلة بين المرحلتين ، حين ألم الشيب به - فى أول عهده به ، ووجد نفسه عاجزا عن مداومة المجون ، ولكنه بعد هذه المرحلة ، عرف بالنسك وبالزهد وبالقناعة والرضا باليسير ، وصور أن الشيب حرب على جهل الشباب ، بالجهالة والطيش ، وهى جهالة لا تتفق مع سنه وشيبه .

والباهلى حين يترحم على الشباب ، ويذم المشيب ، قبل أن يتعمق فى تجربته ويعايشها جاء فى قوله :

سقيا ورعيا لأيام الشباب وإن لم يبق منه له رسم ولا طلل
لا تكذبن فما الدنيا بأجمعها من الشباب بيوم واحد بدل
ليت المنايا أصابتنى بأسهمها فكن يبكين عهدى قبل اكتهل

---

(٣٠٠) معجم الأدباء ١١ / ١٤٣ - ١٤٨ - الأغانى جـ ٢ / ٢٦١ - ٣٤٠ .
(٣٠١) طبقات ابن المعتز : ١٠٧ .
(٣٠٢) الأصفهانى - الأغانى جـ ٢ ص ١٠٧ وطبقات الشعراء لابن المعتز ٩٣ .
(٣٠٣) الأصفهانى - الأغانى جـ ٢ ص ١٠٨ .

عهد الشباب لقد أبقيتنى حزنا وأجد ذكرك الا جد لى ثكل[٣٠٤]

وقد كان الباهلى فى هذه المرحلة الأولى من مراحل الشيب صادقا مع نفسه ، فيصور أن الدنيا جميعها لا تعدل يوما واحدا من أيام شبابه ، وتمنى أن تصيبه المنية ، فيرحل عن الدنيا قبل أن يصير كهلا عاجزا .

وكان الباهلى صادقا مع نفسه حين صور شبابه ومجونه فيه ، وصادقا مع نفسه - أيضا - حين ترحم على الشباب وبكى عليه ، وكذلك بدا صدقه حين زهد وتاب وتنسك ، فنراه يمتنع عن شرب الخمر ، وعن مجالسة عظماء القوم ، فكان شعره يصور حالاته المختلفة من مجون وبكاء على المجون ثم توبة وزهد ..

إن اعتراف الشاعر فى شعره ، هو الوسيلة الوحيدة لتفهم ما يدور بداخله ، ومعرفة ما يجيش بصدره ، حتى ولو كان هذا الشعر لا يصدر إلا لحظة خاصة أو فترة عابرة من فترات حياة الشاعر . فنرى أن الباهلى كان صادقا وهو يبكى على الشباب ، ويترحم على مجونه ، وكان صادقا حين زهد وتنسك ورأى مجون شبابه جهالة ، وذلك لأنه قال كل معنى من المعانى المختلفة ، فى مرحلة من مراحل العمر المختلفة أيضا ، فكان ما يحبه اليوم يختلف عما كان يحبه بالأمس .

ولعباس العقاد رأى فى تصوير الشعراء لأنفسهم ، فيرى « أن ديوان الشعراء لا يصور إلا لحظات من حياتهم ، وهى اللحظات التى تعنينا ، واللحظات التى نعرفهم بها ، واللحظات التى لا شأن لنا بغيرها ، كذلك وجه الانسان ، لا يمثل لنا جزءا يسيرا منه ، لا يبلغ نصف معشار ، ولكنه هو الجزء الذى نعرفه به بين عشرات الملايين ممن عاشوا أو يعيشون على هذه الغبراء ، ولحظات الحياة التى يمثلها شعر الشاعر ، إنما هى اللحظات التى تعرفنا به أكمل تعريف مستطاع ، فإن هى لم تفلح فى تعريفنا به ، فليس شىء غيرها بمفلح على الإطلاق ، ولا سبيل إلى شىء وراء ذلك يعرفه الانسان عن الإنسان »[٣٠٥] .

وليس أمامنا سوى شعر الشاعر ، فهو بمثابة اعترافات يسجلها بنفسه ، ودراسة الأدب إنما تنصب على أقوال الشعراء فى المقام الأول ، فإذا أعلن الشاعر حبه للمجون ، وتغنى بشرب الخمر فإنما يضع الشاعر فى قائمة المجان ، حتى إذا تكلف القول أو تفاخر بمجالس قد لا يغشاها ، كذلك إذا صرح بزهده ، ورغب فى التوبة ، وأكثر من شعر الاستغفار ، وذم الجهل والجهالة ، فإن هذا الشعر يعد من شعر التوبة والاستغفار للشعراء المجان العباسيين ، حتى ومن ثبت فى حياته غير ذلك ، وإن لم يكن مقتنعا بما يقوله بينه وبين نفسه ، وإذا كان يتوب

(٣٠٤) الباهلى - أسامة عانوتى المجلة العربية العدد ٣١ .

(٣٠٥) عباس محمد العقاد - ساعات بين الكتب - مكتبة النهضة المصرية ص ٥١١ .

ويستغفر ، ويعاود ارتكاب الذنوب ، دون أن يدرى به أحد ، ودون أن يراه أحد ، فليس لنا أن نضعه فى غير ما قاله ، فالشعر هو الأساس الرئيسى الذى يستند عليه البحث فى معرفة مجون الشاعر ، وفى معرفة التوبة منه ، لأن دراسة الشعر هى فى المقام الأول ، قبل ترجمة الشاعر أو الحكم عليه بالمجون أو التوبة .. فالبحث إنما ينصب على دراسة شعر المجون وكيف تحول إلى شعر توبة واستغفار ..

إن هذا الأمر يبدو واضحا فى تلك الحالات التى زهد فيها الشعراء زهد المجبرين ، عندما أمرهم الخليفة بذلك ، فامتنعوا عن قول الشعر فى أبواب المجون ، التى كانوا اعتادوا القول فيها . خوفا وخشية وطاعة ، وربما كان الشاعر يمارس مجونه ، ولعل أولى الأمر يعرفون ذلك ، ولكن ما يخيفهم هو دعوة الشعراء إلى المجون ، وحث الآخرين على أن يكونوا مجانا ، ولا يخيفهم مجون الشاعر الفرد ، وعبثه الذاتى ، ولكنهم يخشون على المجتمع من دعوة شاعر يدعو الآخرين إلى العبث والعصيان ، وينصح بممارسة الفسق . فإن السكوت على مثل هذه الأصوات ، تقلل من دور الحاكم المسلم الأخلاقى ، وتضعف المعيار الدينى ، وهو من المفروض وبالضرورة أن يكون من أعظم المعايير التى يقاس بها عظمة الحاكم فى المجتمع الاسلامى .

وقد تضاربت الأقوال حول زهد أبى العتاهية ، وحول قناعته باليسير ، والرضا بما قسم الله له ، وعدم التطاحن من أجل المال ، وبين حبه للمال وحرصه الشديد عليه ، وقد كثرت الروايات التى تؤكد بخله ، مما يظهر تناقضا بين شعر الشاعر وبين سلوكه الفعلى ، ولكن شعره – مع ذلك – يدعو إلى الزهد ويكثر من التوبة والاستغفار ، وهذا ما يهم البحث فى المقام الأول .

وليس معنى هذا أن حياة الشاعر الخاصة لا تدخل فى إطار البحث ، ولكنها توضح كثيرا من مفاتيح شخصية الشاعر ، وتمهد بعض السبل التى من شأنها أن تساعد الباحث على تفسير شعر الشاعر تفسيرا عظيما ، فهى تعين على فهم نفسية الشاعر وعلى الوقوف على الظروف الخاصة المحيطة بأدبه ، وغالبا ما تتفق أشعار الشاعر مع ما يؤمن به ويعتقد ، وكثيرا ما يأتى شعره مطابقا لسلوكه فى الحياة ، ولرؤيته للأمور ، ولنظرته للأشياء من حوله .

ولا يزال هناك مضامين خاصة لدافع الشيب عند الشعراء المجان ، وهو من أكثر الدوافع اتساعا وانتشارا وتأثيرا على الإطلاق ، فإن حديث الشاعر عن الكبر والشيخوخة كان له نصيب عظيم فى قصائده ، يستوى فى ذلك الشاعر الماجن وغير الماجن ، ومن الواضح أيضا أن التوبة والاستغفار فى تلك المرحلة من مراحل العمر تعد أصدق وأخلص ألوان التوبة التى عبر عنها الشعراء المجان ، فقد أدخلتهم الشيخوخة فى دائرة العجز ، العجز عن المعاصى ، وأجبرهم السن إجبارا على الاقلاع عن المجون ، وكان من الشعراء من يرى فى الشيب رؤية تتسم بالحزن والتشاؤم ، فكان الشيب عندهم قرينا بالموت والفناء ، رأوا فى الشيب الناعى

الذى ينعى إليهم الحياة ومباهجها وينذرهم بقرب المصير المحتوم ، وهي رؤية سوداوية .

ومن هؤلاء الشعراء الذين صورا الشيب بهذه الصورة الشاعر أبو العتاهية .

ويرى أبو العتاهية أن الشيب إحدى الميتتين ، وهو موت يسبق الموت الحقيقى ، يقول أبو العتاهية :

الشيب إحدى الميتتين ، تقدمت إحداهما ، وتأخرت إحداهما[٣٠٦]

ويصور أبو العتاهية الشيب وهو يعلن عن رحيل الحياة ، ويؤذن بالنهاية :

لأبكين لفقدان الشباب ، وقد نادى المشيب ، عن الدنيا برحلته[٣٠٧]

ويرى أبو العتاهية الشيب ناعيا للانسان حياته حين يظهر فى رأس ابن آدم ، فيقول :

إنما الشيب لابن آدم ناع قام فى عارضيه ثم نعاه[٣٠٨]

ويكثر أبو العتاهية من ذكر الناعى كلما ذكر الشيب ، ويرى أن الشيب يرسل للانسان نعيه بالبريد ، وعلى هذا يدعو إلى عدم التعلق بالآمال فى الحياة ، وألا يكون الإنسان طموحا ، بل عليه أن ينتظر النهاية ، ولا يصارع من أجل تحقيق الآمال ، ولا يفكر حتى فى الأمل تفكيرا ، مما يجعل زهد أبى العتاهية زهدا سلبيا تشاؤميا لا يحث على العمل ، ولا يدعو إلى التفاؤل ، ولا يدعو إلى تقبل أمور الحياة فى صبر وإيمان ، فنراه يقول :

أراك تؤمل ، والشيب قد أتاك بنعيك ، منه بريد[٣٠٩]

وأتى قول الشاعر هذا بعد دعوته إلى الزهد فى المال ، والبعد عن التنافس على جمعه ، فهو حطام زائل :

ألا أن ربى قوى ، مجيد لطيف ، جليل ، غنى ، حميد
تناقش فى جمع مال حطام وكل يزول ، وكل يبيد[٣١٠]

ولا يرى أبو العتاهية بعد الشيب غير الموت ، فهو الغائب المنتظر ، فيقول :

فياليت شعرى ! أبعد المشيب سوى الموت من غائب ينتظر[٣١١]

ويشترك الشاعر (محمود الوراق)[٣١٢] مع أبى العتاهية فى بعض هذه المعانى التى يصور فيها

---

(٣٠٦) ديوان أبى العتاهية / ٤٦٠ .
(٣٠٧) ديوان أبى العتاهية / ٤٨٣ .
(٣٠٨) ديوان أبى العتاهية / ٤٦٠ .
(٣٠٩) ديوان أبى العتاهية / ١٢٤ .
(٣١٠) ديوان أبى العتاهية / ١٢٤ .
(٣١١) ديوان أبى العتاهية / ١٤٧ .
(٣١٢) يراجع فى شعر محمود الوراق - الأغانى جـ ١٣ ٢٢ - ٢٤ ، طبقات ابن المعتز ٣٦٧ - ٣٦٨ ، فوات الوفيات ٢ / ٢٥٦ - ٢٥٨ .

الشيب ، ومنها الناعى والنهاية والموت ، وربما كان ذلك لأنه قد تجاوز السبعين من العمر ، واشتعل رأسه شيبا فودع الحياة ومباهجها ، فقد خلت أيامه من كل لذة كان يشعر بها فيقول الوراق :

منى السلام على الدنيا وبهجتها ... فقد نعاها إلى الشيب والكبر
لم يبق لى لذة إلا التعجب من ... صرف الزمان وما يأتى به القدر
إحدى وسبعون لو مرت على حجر ... لكان من حكمه أن يفلق الحجر[٣١٣]

ويرى بعض الشعراء فى طول الحياة مبررا لكثرة المصائب التى تنزل بساحتهم ، وكثيرا ما صور الشعراء هذا المعنى ، واستمدوه من الأقوال السائدة فى المصادر التى كانت موجودة أيامهم ، وقد يتفق مع قول الوراق ، وقول غيره من شعراء الشيب ، قول لعبد الرحمن بن أبى بكره ، أورده صاحب بهجة المجالس ، جاء فيه « من طالت أيامه ، كانت مصيبته فى أحبابه ، ومن قصرت أيامه كانت مصيبته فى نفسه »[٣١٤] وقوله أيضا « من تمنى طول العمر ، فليوطن نفسه على المصائب ، وأقلها فقد الأحبة والقرابات »[٣١٥] .

ويحاول بعض المجان الاستزادة من المجون ، حين تظهر بوادر الشيب ، وآخرون يبعدون عن المجون ، ويحسون بكآبة الحياة وبالشيب وهم لا يزالون شبابا . وهذان الموقفان المتناقضان ، من مواقف بعض الشعراء المجان ، فى العصر العباسى ، يصورهما الشاعران العباسيان ، ابن المعتز وابن الرومى ، فنرى أولهما يرى المشيب قد نزل به ، وهو بعد لم يتم الثلاثين من عمره ، والآخر يتجاهل رؤية المشيب الحقيقى ، فيزداد فى مجونه ، ويحاول أن يزداد أكثر ، ولكنه يعجز ، فينوب توبة المضطر ، ويستغفر لذنبه .

يقول ابن المعتز ، مصورا شيبه فى شبابه :

ومشى المشيب قبل عقد الثلاثـ ... ـين ، فلما انتهى إليها أغذا
ونعى عنى العيون المريضا ... ت ، وأضنى ركب الهوى وأرذا
خليلى إن الدهر ما تريانه ... مفيدا والا أى شىء سوى الصبر[٣١٦]

بينما يقول ابن الرومى ، حين تولى الشباب عنه :

وتولّى الشباب فازددت غيا ... فى ميادين باطلى إذ تولى[٣١٧]

ومن المعانى التى تناولها المجان فى تصوير الشيب ، فرار النساء منهم ، وهجرهن لهم ، حين

---

(٣١٣) النمرى القرطبى : بهجة المجالس - ٢١٨ .
(٣١٤) القرطبى : بهجة المجالس - ٢٣١ .
(٣١٥) القرطبى : بهجة المجالس - ٢٣١ .
(٣١٦) ديوان ابن المعتز / ٩٢ - ٩٤ .
(٣١٧) الحصرى - زهر الآداب ١٨٢ .

نزل الشيب بالمجان ، وقد تقبل بعض المجان هذا الأمر ببساطة ، من محبوباتهم ، أو من النساء عامة ، فى استخفاف وفى دعابة وظرف ، بينما استسلم آخرون نادمين على ضياع مثل هذه الفرص - فى نظرهم - ، ويرى فريق ثالث الموقف بعين يملؤها التعقل والاتزان .

وقد يفتن الشاعر الماجن بالجارية الحسناء ، ويتمنى وصالها ، ويعجز عن تحقيق حلمه ؛ فقد ردعه شيبه ، ومنعه بعد أن ابتلاه بالكبر ، فيقول أبو الهندى فى ذلك .

يـا لقـومى فتنتنى جـارتى بعد ما شبت وأبـلانى الكبر
وأتـت لى سنـوات أربـع بعـد ستين تقطعت لى أخر
شيبـة أنكرت حينـا شـأنها وأنا القرم اذا عدت مضر[٣١٨]

وأبو الهندى[٣١٩] هو غالب بن عبد القدوس ، من المخضرمين الذين أدركوا الدولتين الأموية والعباسية ، ولقد اشتهر بحبه للخمر ، والإفراط فى تناولها ، واشتهر بالجرأة فى ارتكاب المعاصى ، « ومات أبو الهندى فى إحدى قرى مرو بخراسان فى أوائل الدولة العباسية ، ويرى أبو الفرج الأصفهانى أن أبا نواس أخذ كثيرا من معانى المجون ، من أشعار أبى الهندى .

وقد أفرط أبو الهندى فى مجونه ، واستهتر بأمور دينه ، واعتمد على عفو الله يوم القيامة .

ومما ينسب إلى أبى الهندى ، وقد وجد مكتوبا على قبره :

اجعلوا إن مت يـومـا كفنى ورق الكـرم وقبـرى معصره
وأدفنونى وادفنوا الراح معى واجعلوا الأقداح حول المقبرة
أنـى أرجـو مـن الله غـدا بعد شرب الراح حسن المغفرة[٣٢٠]

ومن أشعار أبى الهندى التى يستخف فيها بأمور دينه :

وأتـوه بـطهـور طـيـب ليصـلى فتلكـا وقـطب[٣٢١]

ولم يعرف عنه زهد ، ولا توبة ، أو استغفار ، فقد اقتنع بمغفرة الله له يوم القيامة ، مثلما آمن الشيعة بذلك ، بالشفاعة ، ولكنه لم يكن منهم ، وظل أبو الهندى سادرا فى غيه ، يتمنى أن يدفن وسط الخمور وبين الأقداح .

ويصور أبو الهندى الشيب وقد منعه عن المجون ، وأبعده عن الغوانى ، وأجبره على هذا الابتعاد ، حتى يعد شيبه الدافع الأكبر فى بعده عن المجون .

---

(٣١٨) ابن المعتز - طبقات الشعراء ١٣٩ .

(٣١٩) يراجع فى شعر أبى الهندى . طبقات ابن المعتز١٣٦ - ١٤٣ ، الأغانى ٢١ / ١٧٧ - ١٨٠ . فوات الوفيات ٢ / ١٥١ - ١٥٢ .

(٣٢٠) ابن المعتز - طبقات الشعراء - ١٣٦ .

(٣٢١) ابن المعتز - طبقات الشعراء - ١٣٦ .

ويشترك مع أبى الهندى شاعر آخر هو أبو الهول الحميرى ، الذى استخف بالصلاة وبذكرها ، وصور كيف كان يسهو فى صلاته ، ولا يعرف عدد ركعاتها ، فقد ابتلى بجارة حسناء فى مشيبه ، وفى ذلك يرى داهية عظيمة ، لأنها جاءت فى وقت يعجز فيه اللهو معها ، وعن السعادة بها ، وتمنى لو كانت جاءت فى شبابه ، فالمشيب هو الذى ردعه ، وهو الذى منعه ، وجنبه المعصية ، وهو منع مجبر عليه الشاعر ، فيقول أبو الهول الحميرى فى ذلك :

وأحيانا تمر بنى بصد ... فينشرنى التلاحظ بالغداه
دعى ذكر الصلاة فإن ذكرى ... لوجهك بالصلاة لها قراتى
أصلى ساهيا لك لست أدرى ... إذا صليت كم كانت صلاتى
دهيت على المشيب بحب ريم ... يحاذر ظله حلك الفلاة[٣٢٣]

إن الشيب قد حرم المجون على المجان ، وباعد بين الشاعر الماجن والنساء الماجنات ، ويعجب أبو تمام من رأسه الأشيب ، ومن رغبته فى وصال الغانيات ، فيقول :

أنت المعنى بالغوانى تبتغى ... أقصى مودتها برأس أشيب
الجد شيمته وفيه فكاهة ... سجح ولا جد لمن لم يلعب
شرس ويتبع ذلك لين خليقة ... لا خير فى الصهباء ما لم تقطب[٣٢٤]

ويصور أبو تمام المرأة التى تناديه فى مشيبه ، فهى صغيرة فى السادسة والعشرين من عمرها ، تبدى حزنها حين رأت شيبه ، ويرسم أبو تمام الصورة فى لوحة فنية جميلة ، يقول فيها :

أبدت أسى ان رأتنى مخلس القصب ... وآل ما كان من عجب إلى عجب
ست وعشرون تدعونى فأتبعها ... إلى المشيب ولم يظلم ولم تحب
فأصغرى إن شيبا لاح بى حدثا ... وأكبرى أننى فى المهد لم أشب
ولا يؤرقك إيماض القتير به ... فإن ذاك ابتسام الرأى والأدب[٣٢٥]

ويعلل أبو تمام شيبه من كثرة مصائب الدهر ، ويرى أن الدهر خير مؤدب ، فيقول :

أحاولت إرشادى ؟ فعقلى مرشدى ... أم استمت تأديبى ؟ فدهرى مؤدبى
هما أظلما حالى ثمت أجليا ... ظلاميهما عن وجه أمرد أشيب[٣٢٥]

فقد رأى الشاعر أن القتير ، وهو ابتداء الشيب فى الرأس ، دليل تمام الرأى وحسن الأدب ، ويصور الشيب بالثغر المبتسم .

---

(٣٢٢) طبقات ابن المعتز / ١٥٤ .

(٣٢٣) ديوان أبى تمام : ت . محمد عبده عزام – المجلد الأول – الطبعة الرابعة – دار المعارف – مصر ٩٩ – ١٠٢ .

(٣٢٤) ديوان أبى تمام – ت : محمد عبده عزام ، ١٠٩ – ١١٠ .

(٣٢٥) ديوان أبى تمام / ١٥٠ .

والشاعر دعبل الخزاعى ، يصور ضحك المشيب برأسه ، فى صورة فنية يقول فيها للمرأة التى أحبها وكانت تدعى (سلمى) :

أين الشباب وآية سلكا ... لا ، أين يطلب ، ضل بل هلكا
لا تعجبى يا سلم من رجل ... ضحك المشيب برأسه فبكى
قد كان يضحك فى شبيبته ... وأتى المشيب فقلما ضحكا
يا سلم ما بالشيب منقصة ... لا سوقة يبقى ولا ملكا[٣٢٦]

وقد ذاع صيت الشاعر بعد هذه الأبيات ، لما تحمله من جمال فنى ، وروعة تصوير ، فسمع به الرشيد ، فاستدعاه ، وفتحت له الأبيات السابقة ، بداية مجده الفنى ، « ولو كان الشاعر يصطنع عاطفته ، لاستمر فى تصوير حبه ، دون أن يهتم بغزو الشيب لرأسه ، ولكنه يعلن أن الشباب قد ولى وأن المشيب قد حل ، وتغنى مطربو عصره بأبياته ، فى المجالس التى زخرت بها القصور العباسية »[٣٢٧] .

ويشير دعبل إلى أن شيبه لم يكن نتيجة الشيخوخة والعجز ، ولكنه كان نتيجة ما قابله فى دهره من محن ومن معاناة ، فيرى سلمى تعجب من شيبه الذى عجلت به خطوب الدهر ، فيقول :

لقد عجبت سلمى وذاك عجيب ... رأت بى شيبا عجلته خطوب
وما شيبتى كبرة غير أننى ... بدهر به رأس الفطيم يشيب[٣٢٨]

ويحمل دعبل عصره مسئولية شيبه ، ويصور أن رأس الفطيم تشيب فى زمن الكبت والظلم والقهر .

فقد ردد كثير من الشعراء المجان ، حين أقلعوا عن المجون ، وزهدوا فيه ، بتأثير الشيب ، معنى دار عند كثيرين منهم ، وهو أن الشيب لم يكن بفعل السن المتقدم ، سواء ظهر الشعر الأبيض فى الرأس أو لم يظهر ، وهنا تكمن حقيقة الشيب التى أشار إليها الشعراء الذين وصفوه .

لا يعترف بعض الشعراء بالشيب بفعل الشيخوخة ، ولكنه يعترف بأنه لا يزال شابا صغير السن ، ومع هذا يتعامل مع زمنه على أنه كبير فى مرحلة الشيب ، ربما يرجع ذلك إلى سلوكه ، وربما يحس فى داخله بأنه قد فقد الإحساس بجمال الحياة .

---

(٣٢٦) ديوان دعبل بن على الخزاعى / ٢٤٩ .

(٣٢٧) د. على أبوزيد – الصورة الفنية فى شعر دعبل بن على الخزاعى – دار المعارف – الطبعة الثانية ١٩٨٤ ص ٢٠٠ .

(٣٢٨) ديوان دعبل الخزاعى / ١٠٦ .

إن هذه الرؤية عند بعض الشعراء المجان تحمل معان رمزية عديدة ، منها نقد المجتمع ، وتصوير الاضطراب السياسى ، والاعلان عن عدم الرضا بالنظام القائم ، وإعلان السخط على الهيئة الاجتماعية ، فقد شاب الصغير والوليد ، وهذا يرجع إلى ضخم المأساة التى يصنعها الشاعر أو يتصورها من حوله ..

ولم تكن رؤية الشاعر فى أغلب الأحوال هى الرؤية الحقيقية أو الرؤية الواقعية الصادقة، فكثيرا ما كانت تختلف مع رؤية المجتمع من حوله ، وأحيانا قد تتفق مع الواقع ، والشاعر ينظر إلى الأمور نظرة خاصة به ، تنبعث من داخله ، يبعثر الأشياء من حوله ، ثم يعيد ترتيبها ، أو هكذا يتخيل الشاعر إن الأمور من حوله منقلبة مضطربة حسب معاييره الخاصة ، وهى فى حاجة إلى إعادة تنظيم ، وإلى اعادة ترتيب . ولذلك فهو يحاول ترتيبها ، وإن لم يفلح فهو يحاول أن ينتقدها ، ويوجه الأنظار إليها .

ويأتى الشيب - أحيانا - ليس فى لون شعر الرأس ، وليس فى تبدل سوادها بياضا ، وتحول ليلها نهارا ، إنما يأتى من التصرف والسلوك وفى الإحساس بطعم الحياة ، وعدم الإقبال عليها . وذلك أقسى ألوان الشيب ، وهو ذلك الشيب الذى يصيب القلب ، ويحطم أركان السعادة فى داخل النفس الانسانية ، ويتمثل فى الاكتئاب والحزن واليأس المطبق الذى لا أمل فيه .

والشيب عند بعض المجان يذكرهم بالمجون ، فيصفونه ويستعيدون ذكره ، ويصورون كيف أقلعوا عن المجون ؟ وكيف تابوا منه ؟ فربما نجد شاعرا لا يصف المجون حين كان ماجنا ، وكأن المجون أمر عادى ، يعيش فيه ويحيا ، ولكنه يذكر المجون ويصفه ، حين ولى عنه وابتعد ، فيرى فى الشيب رغبته إلى عقد تلك المقارنات ، التى تضمها بعض أشعار الشيب ، وكأنه حين حرم من الشباب وملذاته يحلو له الحديث عن الشباب وعن ملذاته .

إن الشاعر ابن الرومى يحزن ، حين يدخل فى مرحلة الشيب ، ويرى أن الشباب قد ولى معجلا ، وفر سريعا ، بينما المشيب يطول ويبقى . وكأن أوقات السرور تمر خفيفة سريعة ، بينما أوقات الحزن تطبق على الأنفاس ، وتجثم على الصدور ، وكأن عقارب الزمن واقفة ، فيقول ابن الرومى :

كفى حزنا أن الشباب معجل ... قصير الليالى والمشيب مخلد[٣٢٩]

ويتمنى الشاعر النميرى ، أن يرحل الشيب لا الشباب ، فيقول :

ترحل بالشباب الشيب عنا ... فليت الشيب كان من الرحيل

وقد كان الشباب لنا خليلا ... فقد قضى مآربه الخليل[٣٣٠]

---

(٣٢٩) الحصرى القيروانى - زهر الآداب جـ ٢ ص ٨٩٤ .

(٣٣٠) د. الشكعة - رحلة الشعر / ٤٥٧ .

وقد دفع النميرى إلى هذا هجر الجوارى ، وهجر المجون له ، لا هجر الشاعر للجوارى والمجون ، فقد أحس أن الشيب يبعد عنه النساء ، وأن النساء يصلن المرد ويمنعه كأس الهوى ، بل يشرب فى شيبه كأس السلو عن الهوى ، فيقول النميرى :

أخو الشيب لا يدنو إلى الحور بالهوى ليقرب إلا ازداد فى قرب بعدا
يعاطينه كأس السلو عن الهوى ويمنعنه وصلا يعاطينه المردا[٣٣١]

ويصور ابن الرومى بعد المرأة عن الذى نزل به الشيب ، وقربها من الشباب ، فالشيب يبعد بهن عن الأشياب ، مما يجعله بعيدا عن المجون الذى كان يسلك مسلكه فى شبابه ، فيقول :

أعر طرفك المرأة وانظر فان نبا بعينيك عنك الشيب فالبيض أعذر
إذا شنئت عين الفتى شيب نفسه فعين سواه بالشناءة أجدر[٣٣٢]

ويتفنن الشعراء فى تصوير الشيب تصويرا فنيا ، فيجعلونه يصيح بهم ليعظهم ويزجرهم ، ويرون فى الشيب داعيا لهم إلى التقوى ، وإلى البعد عن المجون ، وإلى هجر اللذات ، وإذا بدت الكهولة على الجسم فإن قلب ابن المعتز لا يزال صبيا ، فيقول ابن المعتز :

صاح بالوعظ شيب رأس مضى حثيثى للتقى وقلبى بطى
وأرانى وجه المنية عن قر ب ولكننى عليها جرى
سحرتنى الدنيا وعادات لذا تى فجسمى كهل وقلبى صبى[٣٣٣]

أن الشاعر يمجن فى شبابه ، وحين يأتيه المشيب يعظه وينهاه ، فالشيب من أبرز الدوافع التى دفعت الشعراء المجان إلى التوبة ، إتعاظا بكبر السن ، الذى لا يليق معها لهو ومجون ، حتى ولو كان قلبه مستعدا لهذا المجون ، إلا أن كهولة الجسم تمنعه ، فالمشيب يكتشف الحقيقة ، ويضىء السبيل ، ويكشف قناع الزمان ، فيحتل الانسان مكانه الجديد ، فى دار التعقل والنهى ، ويتزين بالبصيرة والحكمة ، ويقول ابن المعتز فى ذلك ، معلنا هجر لذات شبابه منكرا لشيبه :

لا مثل أيام مضين بلهوها مشكورة أعطت فؤادى ما أشتهى
أيام عذرى فى سنى ورتبتى منى وسلطانى على حدق المها
وجهلت ما جهل الفتى زمن الصبا فالآن قد وعظ المشيب ونوها
والآن قد كشف الزمان قناعه لبصيرتى وحلت فى دار النهى
حسنات دهر قد مضين لذيذة وبقيت معتل البقاء موها[٣٣٤]

---

(٣٣١) د. الشكعة - رحلة الشعر من الأموية إلى العباسية ٤٥٨ .
(٣٣٢) الحصرى القيروانى - زهر الآداب وثمر الألباب - جـ ٢ ص ٨٩٥ .
(٣٣٣) ديوان ابن المعتز ١٩٦ .
(٣٣٤) ديوان ابن المعتز / ١٩٠ .

لقد كان المشيب خير واعظ لمجون ابن المعتز ، ويصور ابن المعتز المشيب وهو يضحك على الشباب ، ويشبه عودته إلى التقى وهجره للمجون ، بعودة السيف إلى غمده ، ولا يرى سببا لعذل العاذل على هجره للمجون ، فقد كبر على العتاب[1] وورع الشباب ، ومابه فيقول ابن المعتز :

أعاذل قد كبرت على العتاب ... وقد ضحك المشيب على الشباب
رددت إلى التقى نفسى ففرت ... كما رد الحسام إلى القراب
ومال قد سخوت به وجاه ... وجيه لا يخاف أذى الحجاب
وكيف تصان عن أجر وحمد ... وجوف سوف تبذل للتراب[335]

ويصور الشباب بالليل ، والشيب بالنهار ، وكان الشاعر مسرورا فى ليلة ، ويرى فى نهاره كربا عظيما ، فيقول ابن المعتز :

كأن الشباب ليل مسرور به ... وأصبح الشيب نهار ذى الكرب[336]

ويرى الشاعر أن الجميلة البيضاء ، التى ملأت عينه حسنا وجمالا ، قد فات زمان التمتع بها ، فى زمن الشباب الذى ولى ، وهو فى شيبه ، قد تاب عن كل ألوان المجون ، فيقول ابن المعتز أيضا :

وبيضاء تعطى العين حسنا وضرا ... شغلت بها عصر الشباب وأفنيت[337]

ويصور الشاعر بشار بن برد فى مدحه لروح بن حاتم كبر سنه ، وعتاب الغوانى له ، ولكنه يقر بمرور الزمان ، وضرورة نفاد الدنيا وهلاك من فيها . فقد هجر الهزل ، وابتعد عن مصاحبة الغانيات ، وتجنب شرب الكأس ، وما يعقبه من فساد .

وقد تكلف بشار هذه المعانى ، ليجعلها مقدمة لمدحته فى روح ابن حاتم ، ليبدو زاهدا تقيا ، هاجرا المجون واللهو ، متجنبا المعاصى ، فيصور الشيب خير واعظ وخير ناه للمجان حتى يتوبوا عن مجونهم .

يقول بشار بن برد :

وقالت قد كبرت فلست منا ... وليس لما مضى منك ارتداد
فحسبى من مهازلة الغوانى ... ومن كأس لسورتها فساد
تركت اللهو بل نفد التصابى ... وأى العيش ليس له نفاد[338]

---

(٣٣٥) ديوان ابن المعتز / ٥٨ .
(٣٣٦) ديوان ابن المعتز / ٤٢ .
(٣٣٧) ديوان ابن المعتز / ١٨٣ .
(٣٣٨) ديوان بشار بن برد : جـ ٣ ص ٥٣ .

ومن الشعراء ، الذين كانوا صادقين مع أنفسهم ، حين نزل بهم المشيب ، الشاعر أبو نواس ، فقد أجبر على الزهد ، وعلى هجر المجون ، بأمر الخليفة ، فكان مضطرا إلى التوبة ، غير مؤمن بها ، أما فى مرحلة كبر سنه ، وعجزه عن المعاصى ، وإحساسه بقرب النهاية ، فقد بدا زاهدا تائبا ، كما نرى فى زهديات أبى نواس .

ولطالما حاول أبو العتاهية جاهدا أن ينحى أبا نواس عن مجونه ، ولكنه لم يفلح ، فلم يرتدع أبو نواس ، إلا بعد أن آمن بالزهد منهجا ، واقتنع بتوبته ، غير مجبر عليها ، ولم يكن ذلك إلا حين شاب شعر رأسه ، فرأى فى الشيب خير واعظ ، وخير ناصح ، ويقتنع بأن الدافع إلى الزهد إن لم يكن نابعا من نفس الشاعر الماجن ، فإنه لن يتوب ، ولن يكون صادقا مع نفسه فى توبته .

وفى تاريخ ابن عساكر ، قول لأبى العتاهية ، يقول فيه لأبى نواس :

« أما آن لك أن ترعوى ، أما آن لك أن تزدجر ، فرفع أبو نواس رأسه ، وقال :

أترانى يا عتاهى تاركا تلك الملاهى
أترانى مفسدا بالنسك عند القوم جاهى[٣٣٩]

قال : فلما ألحت عليه بالعذل ، قال :

أن توجع النفس عن عينها ما لم يكن منها لها زاجر[٣٤٠]

ويرى أبو نواس الواعظ فى داخله ، ينبعث من نفسه ، حين يرى الشيب يخط فى رأسه خطوطا ، تعلن قرب النهاية ، فيقول :

لله در الشيب من واعظ وناصح لو قبل الناصح
يأبى الفتى إلا اتباع الهوى ومنهج الحق له واضح[٣٤١]

ويسخر أبو نواس ، ممن شاب رأسه ، ولم يترك أخلاقيات الشباب الماجن ، فيقول :

شبت يا هذا وما تترك أخلاق الغلام
والمنايا أكلات شاربات للأنام[٣٤٢]

وقد اتخذ أبو نواس من الشيب وسيلة يعظ بها الآخرين ، بعد أن اتعظ هو بالشيب ، فأخذ ينصح من شاب رأسه ، ويأمره بالتعفف ، وبالبعد عن اللهو ، وأن يتخذ القناعة مسلكا له ، وأن يتحلى بالزهد .

وفى تاريخ ابن عساكر يقول يعقوب بن يزيد الفارسى : رأيت أبا نواس بالبصرة ، فقلت

---

(٣٣٩) ابن عساكر - تاريخ دمشق جـ ٤ ص ٢٧٢ .
(٣٤٠) تاريخ ابن عساكر جـ ٤ ص ٢٧٣ .
(٣٤١) المصدر السابق جـ ٤ ص ٢٧٣ .
(٣٤٢) تاريخ ابن عساكر جـ ٤ ص ٢٧٦ .

له : أنشدنى فى الشيب شيئا يزجرنى ، فأنشدنى :

انفضت شـــرتى فعفت الملاهـى ... إذ رمى الشيب مفرقى بالدواهى
ونهتنى النهى فملت إلى العـذ ... ل واشفقت من مقـالى نـاهى
أيها العاقل المقيم على السهـ ... ـو ولا عذر فى المعاد لساهى
لا بأعمالنـا نطيق خـلاصا ... يوم تبدو السمات فوق الجباه
غير أنا على الاساءة والتفـ ... ـريط ، نرجو من حسن عفو الاله[٣٤٣]

ويعلن أبو نواس توبته حين ينزل به الشيب فى أخريات عمره ، وكانت هى المرة الوحيدة التى يتوب فيها عن صدق ، بعد تلك النوبات التى كانت تلم به ، فيظهر فيها زهدا وقناعة ، ليرضى الأمير ، وليصدع لأمره ، أو فى محاولة للظرف والدعابة والاستخفاف بالزهد والزهاد ، وأنه فى أخريات عمره ، يرى أن الشباب كان مطية للجهل ، وآن له فى شيبه أن يحط عن ظهر الصبا رحله : فيقول :

كأن الشباب مطية الجهل ... ومحسن الضحكات والهزل
والآن صرت إلى مقاربه ... وحططت عن ظهر الصبار حلى[٣٤٤]

وفى الشيب ، يرى أبو نواس نفسه وكأنها تموت عضوا عضوا ، ويرى الفناء وهو يدب فى جسمه ، فيتذكر الله ، ويعمل على طاعته ، ويندم على ما ارتكبه فى شبابه ، ويطلب من الله العفو .

ولم يشعر أبو نواس بهذه المعانى إلا حينما رأى الشيب يغزوه ، ورأى الوهن والضعف يدبان فى جسمه ، فأصبح عاجزا عن مواصلة المجون ، وأن التوبة ضرورة لا مفر منها ، فأخذ يتأمل فى مجونه فى ماضيه ، ويطلب العفو من ربه فى شيبه ، فيقول :

دبَّ فِىّ الفناء سفلا وعلوا ... وأرانى أموت عضوا فعضوا
ذهبت شرتى وجدة نفسى ... وتذكرت طاعة الله نضوا
ليس من ساعة مضت بى إلا ... نغصتنى بمرها لى جزوا
لهف نفسى على ليال وأيا ... م ساكتهن لعبا ولهوا
قد أسأنا كل الاساءة - يار ... ب - فصفحا عنا إلهى عفوا[٣٤٥]

ويرى العقاد أن توبة أبى نواس فى أخريات عمره « توبة صادقة وزهده فى هذه المرحلة زهد حقيقى ، ونتيجة طبيعية ، وأن لهذه التوبة المترددة أثرا من آثار الطور الجنسى الأخير وهو سن الحرج الذى عاجله قبل أوانه لإفراطه فى مهلكات النفس والجسد ، وهو القائل :

---

(٣٤٣) ديوان أبى نواس / ص ٩٩٠ .
(٣٤٤) ديوان أبى نواس ص ٩٨٦ .
(٣٤٥) ديوان أبى نواس ص ٩٨٧ / ص ٩٨٨ .

إذا كنت لا أنفك من طاعة الهوى فإن الهـوى يرمى الفتى ببوار

فأدركه ولما يبلغ الخمسين :

وإذا عددت سنى كم هى لم أجد للشيب عذرا فى النزول برأسى[٣٤٦]

فالشيب عند أبى نواس لم يكن نتيجة شيخوخة ، وإن كان نتيجة إفراطه فى شبابه فى المجون ، فعجل له العجز والوهن ، وعدم القدرة على التمادى فى المجون ، فلم يجد الشاعر بدا من أن يتوب ويعلن زهده فى الحياة وفى متاع الحياة كله . فأخذ ينظم شعرا فى الزهد ، وشعرا فى التوبة ، وشعرا فى الاستغفار ، ويكثر من هذه الأشعار ، فى تلك المرحلة من مراحل عمره ، وهى مرحلة الشيب .

ولم تكن - بالطبع - هى المرحلة الوحيدة التى نظم فيها أبو نواس زهدياته ، فلطالما كان ينظم شعرا فى الزهد ، وهو غارق فى مجونه ، ولعلها فترات كان يصحو فيها ، ويفيق من مجونه ، ولعله يحاول أن يعرف ما فى الزهد وما فى القناعه من أسرار الايمان بها ، أو لاستجابة خارجة عن إرادته ، ولأمر مفروض عليه فرضا ، أو لمله من كثرة مجونه ، وأحساس بالرغبة فى الخلاص منه ، لتجريب لون آخر من ألوان الحياة .

وكانت نفسية أبى نواس تتسم بالتردد فى تلك المراحل المتعددة ، من مراحل التوبة قبل مرحلة الشيب ، فكان يتردد بين المجون وبين الزهد ، وبين طريق الباطل وطريق الصلاح ، وبين الخوف والرضا ، فلم يكن مستقرا فى شعوره ، ولم يكن مطمئنا على نفسه ، ولم يكن هادئا قانعا ، فكان مجونه ومغالاته فيه ، وكان جنوحه إلى القناعة والزهد أيضا ، ثم ما يلبث أن يترك الزهد والتوبة ليعود إلى سابق غيه .

ولعل إفراطه فى مجونه عجل بزهده ، وأسرع بالتوبة التى لم يعرف فيها ترددا ولا تعرف هى الأخرى انتكاسة إلى ما هو دونها ، كما أن تلك المحاولات السابقة ، وهى محاولات التوبة والزهد ، كان لها تأثير فى إمدادها تجربة الشاعر الأخيرة بالمدد الروحى الصادق ، مما أدى إلى تعميقها وإثرائها ، وبقدر اتساع الخطأ ، كان الإحساس بالذنب أكثر الحاحا ، فجاء شعره فى هذه المرحلة ، وهى مرحلة الشيب ، أكثر صدقا من المراحل النفسية الأخرى ، التى مرفيها الشاعر .

ومن المضامين المبتكرة التى أثرى بها شعراء الشيب أشعارهم ، صورة الخضاب ، خضاب الشيب وتغيير لونه ، فى محاولة لمغالطة الدهر ، وإخفاء تأثير الزمن ، ولكن الشاعر الذى يقدم على هذا العمل ، لم يشعر معه بتأثير حقيقى ، أو بالنتيجة التى كان يتمنى أن يصل إليها ، فهو

---

(٣٤٦) عباس محمود العقاد : أبو نواس - الحسن بن هانئ منشورات المكتبة العصرية - بيروت - صيدا ص ١٦٦ .

إن أخفى الحقيقة على الآخرين ، فإنها تعيش معه ، تذكره بما وصل إليه، فلم ير يد الشاعر للخضاب معنى ، ولم ير له قيمة أو مغزى جوهرى ، فلم يكن لون الشعر وتبدله إلى البياض ، هو الدافع إلى الزهد ، أو هو الحالة التى يشكو من الشاعر الماجن ، إنما الحقيقة تكمن فى ذلك العجز الداخلى الذى يشعر به هو ، فيمنعه من أن يتمادى فى مجونه ..

كما أن الشعراء المجان ، لم يفوتهم تصوير الصلع الذى أصاب بعضهم ، أو أصاب غيرهم ، وهو إحسار شعر الرأس قبل أن يشب ، وهو شعر لم يعرف الشيب ، ولم ير اللون الأبيض فقد خلا الرأس تماما من الشعر كله ، أسوده وأبيضه .

وقد داعب بعض المجان الشيب ، وحاولوا مغالطة السنين ، والمغالطة فى الحساب ، والتهرب من تحديد العمر الحقيقى ، والتظاهر بصغر السن ، والدعاء بأنهم لايزالوا فى مرحلة الشباب لم يتخطوها .

يقول ابن المعتز فى الخضاب الذى لجأ اليه بعض الشعراء ، ليبدلوا الشيب وليغيروا لونه ، وليتمسكوا بالشباب فى محاولة لعدم إلافلات منه :

أذم مشيبى بالخضاب كأنه حريق تفشى هامتى وتسقرا
حنتنى خطوب الدهر حتى كأننى أسير ، رأى وجه الأمير فكفرا[٣٤٧]

إنه يذم الشيب المخضب ، ويصوره بالحريق الذى يغشى الرأس ، وإن مصائب الدهر قد أثقلته وجعلته كالأسير ، وذلك بعد أن كان الشاعر يدعو إلى الخضاب ، وإلى ترقيع الشيب ، وأن الشيب يغزو الرأس ، ومهما صبغة بالخضاب فإنه يبدو فى أماكن متناثرة ، حتى جعل صورة الشيب المخضب بالشيب المرقع ، الذى يتكون من لونين أو من شيئين متفاوتين ، فيقول ابن المعتز :

لا تقمرن عن الشباب وطيبه أبدا ، ورقع شيبه بخضاب
لو كان أعطى نفسه لذاتها لتفرغت بعد الصبا لمتاب[٣٤٨]

والشاعر محمود الوراق ، يصور بعض محاولا إخفاء الشيب ، غير محاولة الخضاب ، وهى النتف أو قص الشعر الأبيض كل صباح ، أو المغالطة فى الحساب ، والتهرب من إظهار حقيقة العمر ، فيقول :

إذا ما الشيب جار على الشباب فعالجه وغالط فى الحساب
وقل لا مرحبا بك من نزيل وعذبه بأنواع العذاب
بنتف أو بقص كل يوم وأحيانا بمكروه الخضاب[٣٤٩]

---

(٣٤٧) شعر ابن المعتز /١٠٦ .
(٣٤٨) شعر ابن المعتز / ٢١٨ (لا تقمرن : لا تعدلن) .
(٣٤٩) النمرى القرطبى / بهجة المجالس / ٢١١ .

ويتخذ الوراق من الشيب واعظا ، ويرى فيه نذيرا بقرب الرحيل ، وعلى صاحبه أن يستعد لهذه الرحلة ، ويتأهب لها بالعمل والتقوى ، فإن الشيب مهما حاول صاحبه أن يخفى صورته ، فلا أمل فى ذلك ، فقد دب الوهن فى الجسد ، وأضحى الماجن عاجزا على التمادى فى المجون ، فيقول الوراق :

وخذ للشيب أهبته وبادر وخل عنان رحلك للذهاب
فقد جد الرحيل وأنت ممن يسير على مقدمة الركاب[٣٥٠]

وفى الصلع ، يقول الوراق :

قد ترك الدهر صفاتى صف صفا
فصار رأسى جبهته إلى القفا
كأنه قد كان ربقا فعفا
أمسى وأضحى للمنايا هدفا[٣٥١]

إن الشعراء المجان ، وإن كانوا لا يطيعون الدوافع الأخرى التى فرضت عليهم ، أو كانوا يدعون طاعتها ، فإن دافع الشيب هو ذلك الدافع القوى ، الذى لم يستطع ماجن التصدى له ، أو الوقوف أمامه ، فى محاولة للانتصار عليه ، أو عدم الامتثال لأمره .

فقد انتصر الشيب على الشعراء المجان ، وأجبر الكثير منهم على الزهد ، وأجبرهم جميعا على ترك المجون . فرأينا من رحب به ، ورأى فيه نذيرا للتقى والاتزان ، ورأينا من ذمه ورأى فيه نذيرا للموت والهلاك ، ولكنهم جميعا ابتعدوا عن المجون ، ونصحوا غيرهم ، وندموا على أفعالهم فى ماضيهم . وطلبوا المغفرة من الله سبحانه وتعالى .

ولم ينس المجان تصوير موقف المرأة من الشيب ، ما بين نافرة باحثة عن الشباب ، وما بين محبة للعقل والنهى . ولم ير الشعراء المجان بدا من الاستسلام للشيب بعد محاولات ذمه أوعدم الترحيب به عند بعضهم ، ولكنهم فى النهاية جميعا رفعوا الراية البيضاء معترفين بالوهن معلنين التوبة .

ومهما تعددت دوافع الزهد عند الشعراء المجان العباسيين ، فإن دافع الشيب يبدو أعظمها وضوحا ، أو على الأقل هو الدافع المشترك مع دوافع أخرى عند كثيرين من الشعراء المجان .

---

(٣٥٠) القرطبى / بهجة المجالس / ٢١٢ .
(٣٥١) النمرى القرطبى - بهجة المجالس - ص ٢٢٢ .

رابعا : الإقتناع بالزهد

يعد الاقتناع بالزهد ، والإيمان به ، واتخاذه منهجا ومذهبا من أصدق الدوافع التى دفعت الشعراء المجان ، إلى التخلى عن مجونهم . وإذا كان الشعراء الذين ينطبق عليهم تأثير هذا الدافع فئة قليلة ، إلا أنهم مع قلتهم كانوا أكثر الشعراء صدقا ، وأشدهم إيمانا بالزهد ، وبالتوبة عن المجون .

وهم طائفة قليلة بالقياس إلى الشعراء المجان الذين تأثروا بدوافع الزهد الأخرى ، أو تأثروا بالدوافع التى أبعدتهم عن المجون ، مثل أمر الحاكم ، أو المحنة ، أو الشيب .

وكاد الشعراء الذين اقتنعوا بالزهد اقتناعا ، يضحون بالحياة ، ويضحون بكل ما يملكون ، إذا كانوا يملكون شيئا ، من أجل التمسك بالزهد ، ورفع رايته ، والدعوة إليه ، فهم قد آمنوا به ، فنبع من يقين صادق ، ومن حس مخلص ، ومن إيمان راسخ ، لا تأثير للغير عليهم ، ولا تأثير لعوامل أخرى على اتجاهم هذا .

إن الشاعر الماجن الذى آمن بعد فجور ، وتاب بعد مجون ، واقتنع بالزهد منهجا وسبيلا ، لم يكن زاهدا خوفا من خليفة ، ولم يكن زاهدا لأن محنة قاسية نزلت به ، أولأن الشيب حل برأسه ، فأضحى عاجزا عن التمادى فى مجونه ، إنما زهد لأن دافع الزهد نفسه كان دافعا قويا ، ومؤثرا مباشرا ، جعل الشاعر يعرف ماذا يفعله ، ويتيقن من قوله ومن سلوكه ، ويعرف بما يؤمن به ، فقد أبصر طريقه ، وآمن بالزهد بعقله وبقلبه .

إن الزاهد الحقيقى هو ذلك القادر على التمادى فى المجون ، والقادر على الإستمرار فى الغى والفساد ، ولكنه يتعفف عن قدرة ، لا عن عجز ، ويجبر نفسه الأمارة على تجنب المجون ، واتخاذ الزهد مسلكا ومنهجا له فى الحياة المقبلة ..

وإذا كانت الدوافع الأخرى - أى دوافع الزهد عند الشعراء المجان ، غير دافع الاقتناع به - فرضت على الشعراء المجان فرضا ، وأجبرتهم على التوبة إجبارا ، فإن الاقتناع بالزهد هو ذلك الدافع الاختيارى ، الذى اقتنع به الشاعر الماجن ، ونبع من ذاته ، دون أن يفرض عليه .

وعلى هذا الأساس نرى مضامين شعر الزهد عند هؤلاء الشعراء الذين اقتنعوا به ، بعد مجونهم ، أقوى هذه المضامين ، وأكثرها تعبيرا عن معانى الزهد النقية .

ولربما كانت هذه الطائفة من الشعراء الذين تأثروا بالزهد كمذهب ومنهج وفكر ، أقل

طوائف الشعراء مجونا ، وأخفهم خطورة ، وهم قد عرفوا المجون ، ومارسوا بعض ألوانه ، وقضوا فى ساحاته بعض فترات عمرهم ، وربما قد فرض المجون على بعضهم فرضا ، كما فرض الزهد على بعض المجان كما رأينا .

وبعد مجون تلك الطائفة المؤمنة بالزهد ، مجونا ليس فى المبالغة والافراط والتمادى ، ولكنه فى الأخذ بنصيب قل أو اعتدل من ألوان المجون المختلفة ، وقد دفعت هذه الطائفة إلى المجون أو إلى الاسهام فيه بهذا القدر ، وفى هذه الفترة من فترات حياتهم ، ظروف الحياة القاسية ، أو ظروف الشباب وجهله وطيشه ، ومحاولة الوقوف على كنه الأشياء ، والتعرف على بعض أمور الحياة ، فتذوقوا المجون ، وعرفوا الخطأ فأسرعوا إلى التوبة والاستغفار .

إن هذا الدافع من دوافع زهد المجان ، وهو الاقتناع بالزهد ، والاعتقاد به ، لا يعنى ما يصنعه الزهاد الحقيقيون من غير الشعراء ، ويتمسك بهذه القواعد فى سلوكه وفى حياته ، أو على الأقل يفسرها فى أشعاره ، إنما يعنى البحث بهذا الدافع هو ابتعاد الشعراء المجان عن المجون ، وإقلاعهم عن الخوض فيه ، وعن النظم فيه ، دون ضغط أو رهبة من شخص أو من هيئة اجتماعية ، مع قدرة هؤلاء الشعراء على مواصلة المجون . فهو فى أبسط صوره بعد عن المجون دون خوف ، وبعد عن المجون بفعل دافع ذاتى ، نابع من دخل الشعراء المجان ، لا يلتزم بما يصنعه الزهاد الحقيقيون فى أغلب الأحوال من مظاهر الورع الشديد ، ومن سمات التقوى الخالصة ، ولا يعنى بمصادره الإسلامية أو الفلسفية أو الفكرية ، أو بعناصره الفلسفية أو المذهبية .

ومن الضرورى أن يكون هناك ما يجعل هؤلاء المجان يزهدون ، ومن ذلك وجود نماذج صالحة لزهاد ، أمام أعينهم ، أصبحت قدوة حسنة لهم ، فرغبوا فى الاقتداء بهؤلاء الزهاد ، وفى الأخذ ببعض تعاليمهم ، كما أن انتشار التيار الثقافى ، وازدهار هذا التيار فى المجتمع العباسى ، كان من أظهر هذه العوامل التى أدت إلى اعتناق هذه الطائفة من الشعراء للزهد ، وإلى التمسك به ، والتضحية من أجله .

لقد استمع هؤلاء الشعراء إلى الوعاظ ، وجلسوا فى حلقاتهم ، ولقد تبارى علماء الكلام والصوفية فى الترويج لمبادئهم التى تنادى فى الأغلب الأعم إلى الزهد وإلى التقوى وإلى البعد عن المجون .

ولا نعجب حين نرى أن انتشار المجون ، كان سببا مباشرا وقويا فى انتشار الزهد ، وفى ازدهاره ، فقد مل المجان مجونهم ، وزهدوا فى المتع الحسية ، وتعالوا على الملذات ، واستجابوا لنداء العقل ، فانتشرت المساجد والروابط ، وانتشرت التكايا والأديرة ، كما انتشرت الديارات والخمارات ، وأماكن الأوبئة الخلقية حتى كان تيار الزهد تيارا مضادا وقويا ، يقابل تيار العبث والمجون .

وللزهاد أقوال مأثورة ، وعبارات متداولة ، استحسنها المؤمنون بالزهد ، واستمد منها الشعراء الكثير من معانيهم ، وقد قام الحصرى القيروانى بجمع بعضها فى زهر الآداب ، ومنها (نور الحقيقة أحسن من نور الحديقة ، الزهد قطع العلائق ، وهجر الخلائق ، الدنيا ساعة فاجعلها طاعة ، الدنيا نوم والآخرة يقظة ، والمتوسط بينهما الموت ، ونحن فى أضغاث أحلام ، العبد بين نعمة وذنب ، لا يصلحها إلا الشكر والاستغفار)[٣٥٢] .

ومن هذه الأقوال المأثورة فى الزهد استمد الشعراء مضامين زهدياتهم ، مثل قولهم (الزهد إخفاء الزهد ، إذا هرب الزاهد من الناس فاطلبه ، ربما أبصر الأعمى رشده ، وأضل البصير قصده)[٣٥٣] .

ومن أقوالهم فى الزهد أيضا « الزهد إخفاء الزهد ، إذا هرب الزاهد من الناس فاطلبه ، ربما أبصر الأعمى رشده ، وأضل البصير قصده ، احفظ عينيك ، فإنك إن أطلقتها أوقعتاك فى مكروه ، وإن ملكتها ملكت سائر جوارحك ، إياك والنظر إلى كل ما دعاك إليه طرفك ، وشوقك إليه قلبك »[٣٥٥] .

إن معين الزهد الذى استمد منه الشعراء أفكارهم ومضامين زهدياتهم لم يكن ناضبا ، بل كان نابضا ، ففى هذه الأقوال المأثورة نماذج لهم يستمدون منها أشعارهم فى الزهد ، فضلا عن السير الطيبة لرجالات الزهد فى عصرهم ، والتى اقتدى بها الشعراء .

ومن المعلوم أن هناك شعراء زهادا فى العصر العباسى ، آمنوا بالزهد منهجا وسلوكا ، ولم يعرف عنهم مجون ، ولم يمجنوا ، كما عرف عن الشعراء المجان ، كما أنهم لم ينظموا شعرا فى أى لون من ألوان الإباحية أو المحرمات ، فخلت أشعارهم من المجون ، كل المجون ، وجاءت أشعارهم فى الزهد ، وفى المعانى الفاضلة ، وفى الأخلاقيات والروحانيات ، وفى التوبة والاستغفار ، والحكمة والدعوة إلى صوالح الأعمال .

ومن هؤلاء الشعراء الذين لم يعرف عنهم مجون ، الشاعر عبدالله بن المبارك[٣٥٦] وهو أبو عبدالرحمن عبدالله بن المبارك ، الذى ولد سنة ثمانى عشرة ومائة للهجرة « وروى عنه خلائق لا تحصى ، وكان يتجر ليكسب معاشه » وكان يرى الجهاد أروع عند الله من نسك النساك[٣٥٧] .

---

(٣٥٢) الحصرى القيروانى - زهر الآداب جـ ٢ ٨١٠ .

(٣٥٣) الحصرى - زهر الآداب ٢ / ٨١١ .

(٣٥٥) الحصرى القيروانى - زهر الآداب جـ ٢ ص ٨١١ .

(٣٥٦) يراجع فى أشعار عبدالله بن المبارك تاريخ بغداد وصفة الصفوة وتذكرة الحفاظ والتهذيب لابن حجر والنجوم الزاهرة وكتاب الورقة . وحلية الأولياء .

(٣٥٧) د. شوقى ضيف - العصر العباسى الأول - ٤٠٢ .

ومن شعره ما يوضح أن زهده لم يكن سلبيا ، بل كان إيجابيا ، يدعو فيه إلى العمل وإلى الجهاد ، وكان مجاورا بمكه .

ومن شعره :

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا لعلمت أنك فى العبادة تلعب
من كان يخضب جيده بدموعه فنحورنا بدمائنا تتخضب[٣٥٩]

ويستشهد عبدالله بن المبارك بقول المسيح عليه السلام : « كما ترك لكم الملوك الحكمة ، فاتركوا لهم الدنيا » وقال فى ذلك شعرا جاء فيه :

أرى أناسا بأدنى الدين قد قنعوا ولا أراهم رضوا بالعيش بالدون
فأستغن بالدين عن دنيا الملوك كما أسـ ـتغنى الملوك بدنياهم عن الدين

ومن الشعراء الذين لم يعرف عنهم مجون ، وكانوا من الزهاد الشاعر عبدالله عبد الأعلى المعروف بمحمد بن كناسه : ومن قوله يفاخر بعدم ارتكابه ذنبا .

سألنى المنايا لم أخالط دينه ولم تسر بى فى المخزيات قلوص[٣٦١]

وقد قصر شعره « على الزهد وما يتصل به من رياضة النفس على ترك الهوى ، والاتعاظ بالدنيا ، وفناء لذاتها وبقاء تبعاتها »[٣٦٢] .

ومنهم الشاعر بهلول المجنون ، الذى لقى الرشيد ووعظه ، فى قوله :

دع الحرص على الدنيا وفى العيش فلا تطمع
ولا تجمع من المال فما تدرى لمن تجمع
فإن الرزق مقسوم وسوء الظن لا ينفع
فقير كل ذى حرص غنى كل من يقنع[٣٦٣]

ومنهم الشاعر العتاهية ، ابن أبى العتاهية « وكان ناسك الظاهر ، صحيح الدين ، ورعا ، وكان محمود السيرة ، حسن الصفة ، وكان جمع مع الشعر العفة »[٣٦٤] ومن قوله :

أراعك شيب فى السواد يلوح يبث بأسباب البلا ويبوح

---

(٣٥٨) ابن تغر بردى - النجوم الزاهرة ٢ / ١٠٣ .
(٣٥٩) ابن تغر بردى - النجوم الزاهرة ٢ / ١٠٣ .
(٣٦٠) ابن الجراح - الورقة تحقيق : د. عبدالوهاب عزام ، وعبدالقادر فراج ط . دار المعارف مصر - الطبعة الثانية ص ١٤ .
(٣٦١) الأصفهانى - الأغانى جـ ١٣ - ٣٣٧ : (قلوص : الناقة الشابة) .
(٣٦٢) الأصفهانى - الأغانى ١٣ / ٣٣٧ .
(٣٦٣) الأصفهانى - الأغانى ٢١ / ١٠٦ .
(٣٦٤) ابن المعتز - طبقات الشعراء / ٣٦٣ .

وما شبت إلا للخطوب وقرها لعمرك تغدو مرة وتروح
تغيرت عن عهد الشباب وطيبه وكان بطيب العيش منه يفوح
إذا شبت فاستدع المشيب خضابه فرأسك يبكى للبلا وينوح[٣٦٥]

وتقابلنا طائفة أخرى من الشعراء الزهاد ، أجمعت كثير من مصادر الأدب والتاريخ على زهدهم وقناعتهم . ويخالف ابن المعتز فى طبقاته هذه الآراء ، فيرى فى بعضهم مجونا ، لم يكن ظاهرا ، ويرى أن صاحبه يدعى زهدا ، وهو غير مؤمن به ، فظاهره زاهد ، وباطنه ماجن .

ومن هؤلاء الشعراء الشاعر ابن حازم الباهلى ، ويرى ابن المعتز « أنه كان من ألحف الناس اذا سأل ، وألحهم اذا استماح ، مع كثرة ذكره للقناعة بشعره ، وهو أحد جماعة كانوا يصفون أنفسهم بضد ما هم عليه ، حتى اشتهروا بذلك »[٣٦٦] .

ويقول ابن المعتز أيضا أن ابن حازم يصف نفسه بالقناعة والنزاهة ، وكان أحرص من الكلب ، كان يركب الميل فى درهم واحد فضلا عن غيره »[٣٦٧] وهو القائل :

إن الأمور إذا سدت مسالكها فالصبر يفتق منها كل ما ارتجا
لا تيأس وإن طالت مطالبته إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا
أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا
أطلب لرجلك قبل الخطو موضعها فمن علا زلقا عن عزة ولجا[٣٦٨]

أما ما يعنى هذا البحث فهى تلك الطائفة من الشعراء الذين تركوا المجون ، وزهدوا فى حياتهم ، عن فكر واقتناع وتضحية .

ومن أبرز هذه الطائفة من الشعراء لشاعرة رابعة العدوية[٣٦٩] القيسية البصرية ، مولاة بنى عدوة من آل عتيك (٩٥ - ١٨٠ هـ) .

ويبدو أن قحطا لحق البصرة ، كما يذكر د. عمر فروخ « فهامت رابعة وأخواتها على وجوههن ، ثم وقعت رابعة فى الرق ، ولكن سيدها أعتقها بعد مدة ، فتكسبت برهة بالغناء والنفخ فى الناى ، وبما يتصل بهذين عادة ، إلا أنها تابت بعد ذلك ، وحملها ندمها على ماضيها

---

(٣٦٥) ابن المعتز - طبقات الشعراء / ٣٦٣ .
(٣٦٦) ابن المعتز - طبقات الشعراء - ٣٠٨ . أسامة عانوتى - الباهلى مجلة المجلة العربية عدد ٣١ .
(٣٦٧) ابن المعتز - طبقات الشعراء - ٣٠٨ .
(٣٦٨) ابن المعتز - طبقات الشعراء - ٣٠٨ .
(٣٦٩) يراجع فى أخبار رابعة العدوية وفيات الأعيان ١ / ٣٢٣ - ٣٢٥ - شذرات الذهب ١ / ١٩٣ - شهيدة العشق رابعة العدوية . د. عبدالرحمن بدوى . رابعة العدوية والحياة الروحية فى الإسلام . طه عبدالباقى سرور ، ود. عبدالمنعم خفاجى . الأدب الصوفى . ود. عبدالعزيز عتيق . الأدب العربى .

على أن تمعن فى الزهد ، وترتجف من الخوف من الله »[٣٧٠] .

ويرجع د. عبدالرحمن بدوى زهد رابعة ، وتطرفها فى إيمانها وحبها لله ، إلى تطرفها فى فجورها وحبها للدنيا « فمن أعماق الشهوة العنيفة تنبثق الشرارة المقدسة للطهارة ، ومن عمائق الأفكار تنطلق الموجة التى تنتشر الايمان فى الدنيا بأسرها ، فقد أوغلت رابعة فى طريق الشهوة الجامحة ، ما وسعها الإيغال ثم تابت »[٣٧١] .

ويرى أيضا (د. بدوى) أن توبة رابعة الصادقة ، دليل أكيد على مجونها الفاحش وعلى أنها « قطعت شوطا طويلا فى طريق الإثم وغرقت فى بحر الشهوات ، واقتاتت بقوت الحواس حتى الثمالة ، وهذه التوبة هى أصدق دليل لدينا على إندفاعها إلى أبعد حد فى طريق الشهوة »[٣٧٢] .

إن الأخبار التى رويت عن رابعة فى مجونها كثرة الأخبار التى رويت عن زهدها وتوبتها ، حتى أن الخيال الشعبى والقصصى الذى تبعد عن الواقع والتاريخ قد تكاثرت هى الأخرى فى روايتها عن مجون رابعة وعن زهد رابعة أيضا ، كما أن بعض أخبارها ، وبعض أشعارها فى الزهد قد اختلطت هى الأخرى بأخبار غيرها من الشعراء ومن الزهاد .

وإثبات مجون رابعة فى الفترة الأولى من حياتها ، ظاهر فى غير حاجة إلى توضيح أو إلى تحقيق ، ولكنها نفرت من المجون ، وزهدت فيه ، برغبتها مع قدرتها على الاستمرار فيه ، وربما كانت الظروف الأولى التى عاشتها هى التى أجبرتها على بعض ألوان المجون ، فجاءت توبة رابعة توبة باختيارها وباقتناعها بينما لم يكن مجونها كذلك ، فقد أجبرت على المجون ، وإضطرت إليه ، فقد فرض عليها فرضا ، وحتمته الظروف القاسية التى عاشت فيها رابعة ، فكان فقرها وفقر أسرتها ، وضياعها وضياع أسرتها ، ووقوعها فى الرق والعبودية ، وما فى ذلك من استجابة لأمر السيد المطاع الذى لا يرد ولا يقاوم . وكانت رابعة فى رحلة سعيها لرزقها ، وكأنها لم تجد غير العزف على الناى ، ولم تجد غير الغناء ، وكان ذلك حرفة الجوارى غير الحرائر .. غير أن « وقوعها فى الرق وتكسبها بعد ذلك من وجوه غير حل ، قد زادا فى هذا الاتجاه الروحى الذى كان لها ، فقضت باقى حياتها زاهدة متبتلة لم تتزوج ، ولا ملكت من عرض الحياة الدنيا شيئا »[٣٧٣] .

---

(٣٧٠) د. عمر فروخ - تاريخ الأدب العربى - الأعصر العباسية - ص ١٢٩ .

(٣٧١) د. عبدالرحمن بدوى - شهيدة العشق الآلهى - القاهرة - مكتبة النهضة المصرية . ص ٢٠٠ .

(٣٧٢) د. عبدالرحمن بدوى - شهيدة العشق الآلهى - رابعة العدوية ص ٢٠٠ .

(٣٧٣) د. عمر فروخ - تاريخ الأدب العربى - الأعصر العباسية - دار العلم للملايين - الطبعة الرابعة ١٩٨١ ص ١٢٩ .

وهذه الفترة التى قضتها رابعة فى المجون مجبرة ، أمدتها بإحساس عظيم بالندم ، وأمدتها بالشعور فى الرغبة الأكيدة فى التوبة ، والخوف من عذاب الله . وقد استفادت من هذه المضامين فى أقوالها وفى أشعارها وفى سلوكها .

وكانت رابعة راغبة فى التوبة ، وكانت تتحين الفرص لإعلان ذلك ، بل كانت فى إنتظار إرادة الله ، ويروى القشيرى فى رسالته « قال رجل لرابعة : إنى قد أكثرت من الذنوب والمعاصى ، فلو تبت ، هل يتوب على ؟ فقالت : لا ، بل لو تاب عليك لتبت » ومن قولها : « استغفر الله من قلة صدقى فى قولى : استغفر الله ، إن استغفارنا يحتاج إلى استغفار لعدم الصدق فيه »[٣٧٤] .

اذن فتوبة رابعة لم تتم دفعة واحدة ، بل كانت طوال حياتها فى توبة مستمرة .

وقد أنصرفت رابعة عن الدنيا ، بعد فترة المجون التى مرت بها ، وكان من دافع زهدها غير مللها من المجون ، وإحساسها بالندم ، دوافع أخرى منها ما يذكره د. بدوى وهو اليأس من عاطفة اندفعت فيها نحو شخص خاب الرجاء فيه ، وكذلك محنة صراع الدنيا مع الدين ، ومقابلتها مع رياح بن عمرو القيسى ، حين توسم فى إحدى بنات الهوى روحا سامية ، ففكر فى إنقاذها .

إن الحال مع رابعة يختلف عن غيرها من الشعراء المجان ، فقد كانت تخلو إلى نفسها ، فتفكر وتتدبر حتى وجدت أمامها طريق الخلاص واضحا فسارت فيه ، وابتعدت عن المجون ، ووصلت إلى مرحلة الزهد ، ومنها إلى التصوف وعشق الذات الالهية ، حتى عرفت بشهيدة العشق الإلهى .

وتطورت حالات رابعة الروحية حتى بلغت أقصى درجاتها من التسامى على الحس ، والاستغراق فى حب الله ، فأماتت حواسها ، وارتقت بغرائزها ، فاحتلت مكانة عظيمة فى الزهد وفى التصوف ، وقد اختلق الكثيرون قصصا كثيرة ، وأخبارا عديدة ، كذلك نسبوا إليها نثر وأشعار أكثر مما هى قالته بالفعل . وقد اتضح نسبة بعضه إلى غيرها ، كما تبدو آثار الصنعة والتكلف فى كثير من هذه الآثار الأدبية ، مما يوحى بأن كثيرا من تلك الآثار من عمل غير رابعة ، ووضع فى عصر غير عصرها .

وقد كثرت الروايات حول نسكها وحول زهدها ، وتعددت القصص التى تروى عن كراماتها ، والتى تنسب بعض المعجزات والخوارق إليها ، وقيل أنها كانت تكثر من الحديث إلى النجوم ، ومن الحديث إلى السماء ، وأنها حجت سيرا على الأقدام ، وأنها كانت تفرض على نفسها ألوانا قاسية من المعاناة ، ومن جهاد النفس ، ومن تعذيبها ، لتهذيبها والإرتقاء بها ،

---

(٣٧٤) القشيرى - الرسالة القشيرية - القاهرة / ١٩١٢ . ص ٤٨ .

والتكفير عن الآثام فى مرحلة المجون الأولى . وكثيرا ما كانت تقضى أيامها صائمة ، ولياليها قائمة ، وتقضى أوقاتها فى ذكر الله ، والتشوق إلى لقائه .

ومن الأشعار التى رويت لرابعة ، وأثبت نفر غير قليل من الباحثين أنها صحيحة النسبة إليها ، قولها :

أحبك حبين : حب الهوى ... وحبا لأنك أهل لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى ... فشغلى بذكرك عمن سواكا
وأما الذى أنت أهل له ... فكشفك لى الحجب حتى أراكا
فما الحمد فى ذا ولا ذاك لى ... ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

ويرى أبو الفرج الأصفهانى[٣٧٥] إن هذه الأبيات ليست لرابعة العدوية إنما هى لآدم بن عبدالعزيز ، فيذكر أبو الفرج الأبيات فى أغانيه ، مقدما لها بقوله : « وآدم بن عبدالعزيز هو الذى يقول ... (ويذكر الأبيات السابقة) ..

بينما يرى المرتضى الزبيدى أن الأبيات لرابعة ، ويقول عنها « حملها عنها (أى نسبها إلى نفسه) أهل البصرة وغيرهم ، منهم سفيان الثورى وجعفر بن سليمان الضبعى وعبدالواحد ابن زيد وحماد بن زيد » .

ويؤكد أبو طالب المكى[٣٧٦] صاحب قوت القلوب ، أن الأبيات لرابعة ويفسرها فى قوله « فأما حب الهوى ، وقولها حب أنت أهل له ، وتفرقها بين الحبيبين فإنه يحتاج إلى تفصيل ، حتى يقف عليه من لا يعرفه ، ومعنى حب الهوى : أى رأيتك فأحببتك عن ظاهر اليقين ، لا عن خبر وسمع » .

وفى مصارع العشاق[٣٧٧] نظم لرابعة جاء فيه :

يا مؤنس الأبرار فى خلواتهم ... يا خير من حلت به النزال
من ذاق حبك لا يزال مقيما ... فرح الفؤاد - متيما - للبال
من ذاق حبك لا يرى تبسما ... من طول حزن ، فى الحشا أشعال

وهى تدعو فى نظمها إلى عدم النوم ، لتذكر الله وتسبيحه ، ومما روى لها من أقوال بعد أن تصلى العشاء ، وتجلس على سطح منزلها ، فتقول : « إلهى أنارت النجوم ، ونامت العيون ، وغلقت الملوك أبوابها ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، وهذا مقامى بين يديك ، إلهى هذا الليل قد أدبر ، وهذا النهار قد أسفر ، فليت شعرى أقبلت منى ليلتى فأهنأ ، أم رددتها على فأعزى ؟

---

(٣٧٥) الأصفهانى - الأغانى جـ ١٥ ص ٢٨٩ .
(٣٧٦) أبو طالب المكى - قوت القلوب جـ ٢ ص ٥٦ .
(٣٧٧) ابن السراج مصارع العشاق ص ١٨٠ - ص ١٨١ .

فوعزتك ، هذا دأبى ما أحييتنى ، وأعنتنى ، وعزتك لو طردتنى عن بابك ما برحت عنه »[٣٧٨] .

ولقد عاشت رابعة فى البصرة ، ويروى أن محمد بن سليمان الهاشمى أراد أن يخطبها ، وكانت غلة ملكه كل يوم ثمانية ألف درهم ، ووعدها بكل ماله ، وترفض رابعة الارتباط به ، وتزهد فيه وفى ماله ، وتكتب إليه « أما بعد ، فإن الزهد فى الدنيا راحة البدن ، والرغبة فيها تورث الهم والحزن »[٣٧٩] .

لقد دعت رابعة فى زهدها ، وفى حبها الإلهى وتصوفها ، إلى حب الله لذاته لا رغبة فى جنته ، ولا خوفا من ناره ، فقالت :

أنى جعلتك فى الفؤاد محدثى ... وأبحت جسمى من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانس ... وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيس[٣٨٠]

ومعظم شعر رابعة لا يوضع مع شعر الزهد ، وإنما مكانه فى شعر التصوف وفى التغنى بحب الذات الالهية ، والهيام فى عشقها ، فهى لا تحب الجنة ولا تخاف النار ، ولكنها لا تبتغى عن حب ربها بديلا ، فتقول :

كلهم يعبدون من خوف نار ... ويرون النجاة حظا عظيما
أو بأن يسكنوا الجنان فيحظوا ... بقصور ويشربوا سلسبيلا
ليس لى فى الجنان والنار حظ ... أنا لا أبتغى بحبى بديلا[٣٨١]

لقد كان شعرها فى أول أمره يصدر عن زهد حقيقى ، وعن توبة حقيقية ، قبل أن تطيل فى تأملها ، وقبل أن تنتقل إلى حالة التصوف التى عاشت فيها ، وعرفت بها ، وهذا الانصراف إلى الزهد ، وابتداء الرسالة الروحية ، إنما هيأ له فى رأى د. بدوى « ما كانت تعانيه فى رقها ، وما احتملته إبان ذلك من آلام وذل ومهانة ، فلم تجد خلاصا إلا فى الايمان ، والثقة بالله ، والتعزى بالآخرة ، عما تلقاه فى الدنيا »[٣٨٢] .

ويرى أيضا « أن وقوعها فى الأسر المادى لدى ذلك السيد القاسى الذى أرهقها وأعنتها فكان لهذا الإرهاق والإعنات فضل انفجار روحها الباطنة النبيلة »[٣٨٣] .

ويروى فريد الدين العطار صاحب تذكرة الأولياء بعض الخوارق التى نسبت إلى رابعة ،

---

(٣٧٨) الشيخ الحريفيش . الروض الفائق فى المواعظ والرقائق - المطبعة - الميمنية ١٨٨٦ ص ٢٦ .
(٣٧٩) د. عبدالمنعم خفاجى - الأدب الصوفى / ٢٠١ .
(٣٨٠) د. خفاجى - الأدب الصوفى - ٢٠١ .
(٣٨١) د. خفاجى - الأدب الصوفى - ٢٠١ .
(٣٨٢) د. بدوى - شهيدة العشق الآلهى - ١٢ .
(٣٨٣) د. بدوى - شهيدة العشق الآلهى - ١٢ .

ومنها أن صاحبها استيقظ فرأها ساجدة تصلى وتناجى ربها ، وشاهد قنديلا فوق رأسها ، يحلق وهو بسلسلة غير معلق ، فاعتقها »[٣٨٤] .

وتدعو رابعة فى شعرها إلى الزهد فى الحياة ، وإلى الإكثار من طاعة الله ، وإلى التعبد والتهجد ، وفى ذلك تقول :

صلاتك نور والعباد رقود ونومك ضد للصلاة عنيد
وعمرك غنم إن عقلت وجهله يسير ويفنى دائما ويبيد[٣٨٥]

وترى رابعة سعادتها فى خلوتها ، وراحتها فى وحدتها ، وفى اعتزالها البشر ، فتختلى لنفسها ، وتفكر فى ربها ، وتستغفر لذنبها ، وتقول :

راحتى ، يا إخوتى ، فى خلوتى وحبيبى دائما فى حضرتى
قد هجرت الخلق جمعا ارتجى منك وصلا ، فهو أقصى منيتى[٣٨٦]

ويزداد تيار العشق الالهى إتساعا وعمقا ، ويعرف عند إبراهيم ابن آدهم والبلخى ومعروف الكرخى .. ويستمر بعد ذلك على يد الحارث ابن أسد المحاسبى ٢٣٤ هـ ، وذو النون المصرى ٢٤٥ هـ ، والسَرِىّ السرقسطى ٢٥١ هـ ، وعند أبى يزيد طيفور بن عيسى البسطامى ٢٦١ هـ ، وأبى حمزة الصوفى ٢٦٩ هـ ، وأبى سعيد الخزاز ٢٧٧ هـ ، وحمدون القصار ٢٧١ هـ ، والجنيد ٢٩٧ هـ ، والترمذى ٣٢٠ هـ ، والخواص٣٠٣ هـ ، وأبى على الروزبادى ٣٢٢ هـ ، والشبلى ٣٣٤ هـ ، وعند غيرهم من شعراء الصوفية ومن المتصوفين من غير الشعراء .

إن شعر الصوفية لا ينضوى تحت إطار شعر الزهد أو شعر التوبة والاستغفار عند المجان العباسيين ، ولذا يقتصر الحديث عند شعر رابعة التى كانت ماجنة وتابت واستغفرت وزهدت ثم تصوفت ، وتعتبر رابعة من الشعراء الذين هجروا المجون عن فكر وعن اقتناع ، وعن إيمان بالتوبة ، وتأمل وتبصر ، فجاءت توبتها أكثر ألوان توبة الشعراء صدقا ، وجاء شعرها فى الاستغفار لذنبها مخلوطا بالحب الالهى والتأمل فى الذات العليا ، ولذلك كان شعرها يختلف كثيرا عن شعر التوبة والإستغفار عند المجان العباسيين الآخريين .

والزهد يرتبط بالتصوف فى حالاته الأولى ، وقد إزدهر تيار الصوفية فى بيئة البصرة على يد الحسن البصرى ١١٠ هـ ، وكان من أعلام التصوف فى هذا القرن الثانى الهجرى سعيد بن المسيب ١٥٩ هـ ، ويحيى بن دينار ١٣١ هـ ، وسفيان الثورى ١٦١ هـ ، وغيرهم .

---

(٣٨٤) فريد الدين العطار - تذكرة الأولياء - نشر نيكلسون - ١٩٠٥ جـ ١ ص ٥٩ - ٦١ .
(٣٨٥) د. بدوى - شهيدة العشق الآلهى ص ٧٣ .
(٣٨٦) د. بدوى - شهيدة العشق الآلهى ص ٥٤ .

وقد ظهر التصوف على يد هؤلاء النساك والعباد ، الذين كانوا يسمون زهادا ، وكان يعرف بالزهد قبل أن يأخذ طوابعه وملامحه الفكرية .

ومما لا شك فيه أن انتشار الصوفية كان من الدوافع إلى انتشار الزهد عند غيرهم ، ومن المعروف أن المتصوفين بدأوا حياتهم الفكرية بالزهد أولا ثم انطلقوا إلى عالم التصوف . ويرى د. عبدالعزيز عتيق « أن الفرق بين الزهد والتصوف هو الفرق بين الإعتدال والمبالغة ، فالزهد دعوة إلى الانصراف عن ترف الحياة ومباهجها ، بينما التصوف شظف وخشونة وجوع وحرمان ، وإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والتصوف أعم من الزهد ، فكل تصوف زهد ، وليس كل زهد تصوف »[٣٨٧] .

ومن أشهر شعراء الزهد فى العصر العباسى هو الشاعر « إسماعيل بن القاسم » المشهور « بأبى العتاهية » ، وقد اتخذ من الزهد فنا غلب على فنون شعره كلها ، وانقطع إليه ، لا ينظم فى غيره ، لفترة طويلة من فترات حياته الفنية .

وقد اختلف الباحثون فى زهد أبى العتاهية، وفى الدوافع التى غيرته من المجون إلى الزهد، ويرد بعضهم ذلك - كما سبق - إلى فشله فى حبه لعتبه ، وهو سبب لا يرقى فى نظرنا إلى مستوى هذا التحول الذى صار إليه أبو العتاهية ، كما تشكك آخرون فى صدق زهد أبى العتاهية ، حتى رأوا أن زهده كان فى القول لا فى السلوك والعمل ، وكان بخله ، وما عرف عنه من شح ، يؤيد هذا الاتجاه ، ويتنافى تماما مع دعوة أبى العتاهية إلى البذل والعطاء فى سخاء ، وإلى عدم السعى من أجل الحصول على المال ، أو التنافس عليه ، كما عرف عن زهده سلبية ، تنعدم فيها الدعوة إلى القوة وإلى النهوض ، وهى دعوى فيها هروب من الحياة ، وشك البعض - كما رأينا - فى زهده ، وأرجعه إلى عناصر غير إسلامية ، وخرج به من دائرة الايمان الحقيقى إلى دوائر أخرى غير إسلامية ، فاستخف به وبزهده ، واتهم بالادعاء والتظاهر .

وإن الدوافع إلى الزهد فى حياة أبى العتاهية ، قد تعود إلى ما كان عليه فى سيرته الأولى من فقر وخمول ، ومن انغماس دفع إليه دفعا ليعيش هذه الظروف التى أجبر على الحياة فيها ، فانغمس فى تيار اللهو والمجون ، وأحب كما أحب غيره من الشعراء ، وتعلق بجارية ، وتغنى بها ، وطلبها ، وعجز على أن يحصل عليها ، حتى قيل أن هذه الحادثة هى التى دفعته إلى الزهد ، أو ربما هى حالة الصحو التى عاشها أبو العتاهية ، ومن الباحثين الذين رأوا ذلك المسعودى ، فى مروج الذهب فقال « إن أبا العتاهية لبس الصوف ليأسه من عتبه ، وكان ذلك أيام الرشيد »[٣٨٨] ويقول أبو الفرج « أن أبا العتاهية آثر السجن على أن يرجع إلى قول

---

(٣٨٧) د. عبدالعزيز عتيق - الأدب العربى فى الأندلس - ص ٢٢٥ .

(٣٨٨) المسعودى - مروج الذهب ومعادن الجوهر جـ ٢ ص ٣٣٦ .

الغزل »[٣٨٩] ويذكر الحصرى القيروانى فى زهر الآداب « أن أبا العتاهية ضرب مئة سوط ونفى إلى الكوفة من أجل غزله لعتبه ، وأن المهدى قال حين نفاه « أبى يتمرس ولحرمى يتعرض ، وبنسائى يعبث »[٣٩٠] ويروى ابن قتيبة فى الشعر والشعراء « أنه حبس وتشفع له يزيد بن منصور خال المهدى فأطلقه »[٣٩١] ويبدو أنه خاف المهدى فانقطع عن ذكر الجارية (كما سبق الحديث عنه) .

ومما لا يؤكد أن هذه المحنة أو هذه الحادثة هى التى حولته من المجون إلى الزهد ، عودة أبى العتاهية إلى مجونه بعد زوال الأثر الذى كان يحول بينه وبين المجون ، وهو أمر الخليفة المهدى ، وتهديده له ، فيروى المسعودى ، « أن أبا العتاهية عاد فطلبها من الرشيد بعد موت المهدى . ولكنه باء بالفشل ، ويقول المعرى فى لزومياته :

اللـه ينقـل مـن شـا ء رتبـة بعـد رتبـة
أبـدى العتـاهى تنسـكا وتـاب عن حب عتبـة[٣٩٢]

ويعلل د. أنيس المقدسى فى أمراء الشعر العربى ، زهد أبى العتاهية « بأنه رجل صدف عن سيرته الأولى ، وأنه لزم جانب التدين ، واتخذ الشعر الزهدى فنا ، فأجاد فيه ، ولم يكن زهده انقطاعا عن الدنيا ، وترفعا عن حطامها ، ولكن تقييما لمسلك مترفيها ، وانذاراً بسوء المصير »[٣٩٣] .

ومن الروايات التى تشكك فى زهد أبى العتاهية ما يرويه الحصرى فى زهر الآداب ، حين دخل أبو العتاهية على ابنه محمد ، وقد تصوف فقال له : « ألم أكن قد نهيتك عن هذا ؟ فقال ابنه ! وما عليك أن أتعود الخير ؟ فأخذ أبو العتاهية يؤنبه ويقرعه ، ثم قال : أقبل على سوقك فأنها أعود اليك ، وكان ابنه بزازا »[٣٩٤] .

إن اقتناع أبى العتاهية بالزهد ، من أبرز دوافعه إلى هجر المجون ، فلم تكن عتبه هى السبب الحقيقى والوحيد إلى تنسكه وإلى زهده ، كما رأى د. خلف الله « أن حبه لعتبة وحرمانه منها أدى إلى تنسكه ، وأن صدمته فى حبه لعتبة هى نقطة التحول الحقيقية فى دينه »[٣٩٥] وعاد بعد موت المهدى إلى مجونه مرة أخرى ، ولكنه أقلع عن المجون برغبته ، حين آمن بالزهد

---

(٣٨٩) الأصفهانى - الأغانى جـ ٣ - ص ١١٠ .
(٣٩٠) الحصرى القيروانى - زهر الآداب وثمر الألباب جـ ٢ ص ٣٦ .
(٣٩١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء - ص ٤٩٨ .
(٣٩٢) أبو العلاء المعرى - اللزوميات ١ / ١١٨ .
(٣٩٣) أنيس المقدسى - أمراء الشعر العربى فى العصر العباسى - ص ١٥٦ .
(٣٩٤) الحصرى القيروانى - زهر الآداب وثمر الألباب ٣ / ٢٢٥ .
(٣٩٥) د. محمد خلف الله - دراسات فى الأدب الاسلامى - ص ١٥ .

مبدأ واتجاها ، ولما قدم الرشيد الرقة كان أبو العتاهية قد زهد وتجنب المجون ، وترك القول فيه ، وهو فى حالة من القدرة على الاستمرار . وأمر الرشيد به ، فحبس ، فقال أبو العتاهية :

خليلى مالى لا تزال مضرفى تكون على الأقدار حتما من الحتم[٣٩٦]

ويأمر الرشيد باحضاره ويقول له كما يروى الحصرى فى زهر الآداب : « بالأمس ينهاك أمير المؤمنين المهدى عن الغزل ، فتأبى ، واليوم آمرك بالقول فتأبى جرأة على وإقداما ، فقال يا أمير المؤمنين : إن الحسنات يذهبن السيئات ، كنت أقول الغزل ولى شباب وجدة ، وبى حراك وقوة ، وأنا اليوم شيخ ضعيف لا يحسن بمثلى تصاب ، فرده إلى حبسه ، فكتب إليه :

أنا اليوم لى ، والحمد لله أشهر يروح على الغم منك ويبكر

وقال :

كأن الخلق ركب فيه روح له جسد وأنت عليه رأس
أمين الله إن الحبس بأس وقد قمت : ليس عليك بأس[٣٩٧]

فقد رفض أبو العتاهية العودة إلى الجوارى وإلى التغزل بهن ، وإلى المجون عامة ، فعصى أمر الخليفة ، وسجن ، وحين أخلى سبيله ، لم ينظم فى المجون قولا كثيرا ، ولكنه أرغم على القول فيه خشية الحبس .

والأقرب إلى الصواب ، فى تعليل زهد أبى العتاهية ، هو أن نفسه كانت تعاف هذا النوع من الحياة ، ويرى د. هداره تشابها بين ما حدث فى نفس أبى العتاهية وما حدث فى نفس رابعة العدوية « وأن عناصر الايمان كانت موجودة فى داخله تنتظر اللحظة المناسبة ، فأقبل على الزهد ، يدفعه إلى ذلك إيمانه به ، واقتناعه ، لم يتأثر بفشله فى حب عتبة[٣٩٨] .

ويتهمه سلم الخاسر بالزندقة ، وبالبخل ، ويعجب كيف يدعو العتاهية إلى الزهد وإلى القناعة ، والترفع عن أموال الدنيا ومتاعها وهو أشدهم حرصا وتمسكا بها .

وفى معجم الأدباء رواية لياقوت ، يفسر فيها غضب سلم الخاسر من أبى العتاهية لقوله فيه :

تعالى الله يا سلم بن عمرو أذل الحرص أعناق الرجال
هب الدنيا تساق إليك عفوا أليس مصير ذاك إلى الزوال

---

(٣٩٦) الحصرى - زهر الآداب - جـ ١ ص ٣٢٩ .
(٣٩٧) الحصرى - القيروانى - زهر الآداب جـ ١ ص ٣٢٩ .
(٣٩٨) د. هدارة - اتجاهات الشعر العربى / ٢٩٢ .

فقال سلم الخاسر : « ويلى على الجرار الزنديق ، جمع الأموال وكنزها وعبء البدر فى بيته ، ثم تزهد مرآة ونفاقا »[٣٩٩] .

ويروى ياقوت قول سلم فى ذلك :

ما أقبح التزهيد من واعظ ... يزهد الناس ولا يزهد
لو كان فى تزهيده صادقا ... أضحى وأمسى بيته المسجد
يخاف أن تنفد أرزاقه ... والرزق عند الله لا ينفد[٤٠٠]

وقد شكك باحثون فى زهد أبى العتاهية ، ورأوا أنه غير مؤمن بالزهد ، وغير مقتنع به ، إنما كان يتظاهر بأنه زاهد ، فهو يقتنع بزهد مأجور ، ولعله كان يربح من وراء تظاهره الكثير ، أو ربما كان يخفى وراء هذا الزهد أخطاء وعيوبا ، وأنه جعل من زهده قناعا يتستر به ، عن عيون الآخرين .

ومن هؤلاء الباحثين جابر عبدالعال الذى قال عن أبى العتاهية أنه « زنديق متخفى فى ثياب زاهد »[٤٠١] وبرانق ، حيث يقول فى زهد أبى العتاهية : « ما كان شعره فى الزهد لله وفى الله ، ولكنه طريق سلكه فى شعره لإظهار الحسرة والأسى على حبيبته عتبه ، وأنه تزهد لا حبا فى التزهد ولكنه رجل شاعر سلك بشعره هذا المسلك لأنه زعم أن فيه خيرا »[٤٠٢] . ويرى أيضا عبدالله الطيب المجذوب فى المرشد إلى أشعار العرب « أن أبا العتاهية منافق يعيش عيشة مخالفة لدعواه »[٤٠٣] .

إن تقييم زهد أبى العتاهية وزهد أبى نواس سيأتى فى مكانه فى هذا البحث فى فصوله الأخيرة ، ولكن ما يهم البحث فى هذا المكان هو وضع زهد أبى العتاهية تحت تأثير هذا الدافع الذى يبعده عن الدوافع الأخرى التى يثيرها الإجبار والاضطراب الذى دفع بعض شعراء المجون إلى الزهد خوفا من سطوة هذه الدوافع ، ولكن الدافع هنا هو الاقتناع بالزهد ، واتخاذه منهجا وفنا شعريا يطغى على الفنون الشعرية الأخرى ، وفيه يعلن الشاعر توبته ، ويكثر من استغفاره فى شعره ويندم على أعماله فى ماضيه ، ويدعو إلى الصالح من الأعمال ، ويرى النهاية المحتومة ، قد أوشكت على الإقتراب ، فلا مناص من العمل الملتزم الجاد من أجل الاستعداد ليوم الحساب .

إن هذا الاقتناع الذى آمن به أبو العتاهية ، استخلص من روافد ثقافية عربية وغير

---

(٣٩٩) ياقوت - معجم الأدباء - الأغانى ٤ / ٧٦ .
(٤٠٠) الأصفهانى - الأغانى ٤ / ٧٦ .
(٤٠١) جابر عبدالعال - حركات الشيعة المتطرفين - ١٧٩ .
(٤٠٢) د. هدارة - اتجاهات الشعر العربى / ٢٩٢ .
(٤٠٣) عبدالله الطيب المجذوب - المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ٢ / ١٦٧ .

عربية ، فقد أمدته روافد فكرية وفلسفية كانت منتشرة فى مجتمعه ، وغزت عصره غزوا مباشرا ، وغير مباشر ، ولكن اعتماد أبى العتاهية على المصدر الاسلامى كان أوضح وأبرز من غيره من المصادر ، وقد رأى البعض - كما ذكر - فى حبه للمال ، وفى بخله مع زهده تعارضا لا يتفق مع ما يدعو إليه ، وقد يعلل ذلك بتأثره « بالحكمة الهندية التى تحسن الزهد فى الدنيا والتصوف ، وهى مع ذلك تعظم شأن المال وتقدسه »[٤٠٤] واتباعه لهذا المبدأ أثار الشكوك فى زهده ، أو فى صدق زهده ، لأن من شروط الزهد الأولى ألا يزهد الزاهد فى الدنيا وملذاتها فقط ، وإنما يزهد - أيضا - فى حطام الدنيا ويحيا حياة التقشف والحرمان ، وهذا لا يتفق مع أخبار بخله وحرصه الشديد .

وأبو العتاهية نفسه لا ينفى صفة البخل ، وإنما يؤكدها ، ويعترف بها ، فنستمع إليه يقول عن شح نفسه ، مؤنبا لها :

وإلى متى أنا ممسك بخلا بما ملكت يميني
يا نفسى ! أنت شحيحة والشح من ضعف اليقين[٤٠٥]

ويؤكد ثمامة بن أشرس بخل أبى العتاهية ، وحفظه المال فيقول : « أن أبا العتاهية على حبسه فى داره سبعا وعشرين بدرة ، لم يكن يزكى ، وكان شحيحا على نفسه ، فلم يكن يشترى اللحم ، إلا من عيد إلى عيد »[٤٠٦] .

ونستمع إلى أبى العتاهية فى شعره الذى يذم فيه البخل ، ويرى أنه يضر بصاحبه فيقول :

لم يضر بخل بخيل غيره فهو المجنون لو كان فطن[٤٠٧]

ويدعو أبو العتاهية - فى شعره فقط - إلى الإستغناء عما يزيد عن حاجة الانسان إلى غيره ، فيقول :

إذا حزت ما يكفيك من سد خلة فصرت إلى ما فوقه صرت فى سجن[٤٠٨]

مما دفع العباس بن رستم إلى القول بأن أبا العتاهية « كان مذبذبا فى مذهبه يعتقد شيئا ، فإذا سمع طاعنا عليه ترك اعتقاده إياه وأخذ غيره »[٤٠٩] ..

ويرى أبو العتاهية ضرورة اتفاق سلوك الداعى مع دعواه ، فمن العار أن ينهى الداعية عن شىء ويأتى به أو بمثله ، فيقول :

---

(٤٠٤) ديوان أبى العتاهية / ٨ .
(٤٠٥) ديوان أبى العتاهية ص ٩ .
(٤٠٦) ديوان أبى العتاهية / ٩ .
(٤٠٧) ديوان أبى العتاهية / ٩ .
(٤٠٨) ديوان أبى العتاهية / ٩ .
(٤٠٩) ديوان أبى العتاهية / ٨ .

إذا عبت أمرا ، فلا تأته وذو اللب مجتنب ما يستعيب
ودع ما يريبك لا تأته وجزه إلى كل ما لا يريب[٤١٠]

لقد أضحى واضحا ذلك التعارض الشديد بين قول أبى العتاهية وفعله ، ولعلنا نفسر ذلك التناقض بالحرمان الشديد الذى عاشه أبو العتاهية ، ولعله قد تكسب كثيرا من شعره ، فى مدائحه وفى مجالسته الخلفاء ، حين كان مغرقا فى مجونه ، وربما قد بذل جهدا عظيما فى الحصول على المال ، ولكنه حين زهد أضحى لايطلب مالا ، ولا يمدح إنسانا ، ولا يسعى إليه ، ولا يتكسب بشعره ، وأكثر من وعظه ونصحه ، وأكثر من زهدياته فى أشعاره ، وماذا كان يطلب منه ؟ هل يوزع ما لديه ؟ ، وهل يفرقه على الآخرين ؟ وهو الذى لم يرثه بل عانى أشد المعاناة فى الحصول عليه ، فقد بذل جهدا عظيما لكى يفلت من سطوة الحرمان التى عاش تحتها ، فجاءته الأموال والخيرات ، التى كان يسعى إليها ، وأتى له بعضها فى زهده دون أن يسعى إليها ، ودون أن يطلبها ، فحتى هذا الجزء الذى أنعم الله به عليه وهو فى زهده لم يسع الشاعر إليه ، ولم يذل نفسه فى سبيل الحصول عليه .

إن أبا العتاهية كان ماجنا عابثا ثم تاب وزهد ، وإن أبا العتاهية اعتزل القول فى المجون ، واعتزل العبث ودعا إلى الزهد وإلى التوبة وإلى الإستغفار حتى بالقول فى أشعاره .

ويهتم البحث أيضا بتحديد دوافع الزهد فى شعر أبى العتاهية ، فلم تكن لتنصب كلها على فشله فى حبه لعتبة ، فإن نسكه لا يعود إلى ذلك فقط ، ولكن الظروف التى عاشها والحرمان الذى صادفه ، والتيارات المحيطة به الفكرية والثقافية ، جعلته يقتنع بالزهد غير مجبر عليه .

وقد رأينا - سابقا - موقف الخلفاء منه ، فهذا المهدى يمنعه عن القول فى الغزل ، وهذا الرشيد يأمره بالقول فى الغزل ، وقد استجاب الشاعر لهما ، فكان مضطرا مجبرا ، وإن لم يطعهما كان السجن مصيره ، فقد حبس ، بينما حين زهد ، لم يأمره أحد بذلك ، ولم يكن غير استعداده الذاتى ، هو دافعه الحقيقى .

أما عن الشك فى زهد أبى العتاهية ، لعارض زهده مع بخله ، فهذا لا ينفى صحة دعوته ، وكان من باب أولى أن يكون الشك فى زهد الشاعر ، أو الشك فى توبة الشاعر ، إذا استمر فى فجره ، يفسق ويعبث ويمجن ، ويشرب الخمر ويجالس الجوارى ، ثم يقول فى الزهد ، أما عن حبه للمال أو محافظته عليه فلا يقلل ذلك من توبة الشاعر ومن سلوكه لهذا المنهج الفكرى والفنى فى قصائده .

يكفى أبا العتاهية أنه قد أثرى الشعر العربى بكنوز من القول الحكيم ، ومن النصح ، فقد كانت سمة التوبة والاستغفار فى شعره من أزهى السمات ، ومن أبرز تلك التيارات التى زخر

---

(٤١٠) ديوان أبى العتاهية / ٢٣ .

بها الشعر العربى فى العصر العباسى .. وسوف يتناول البحث مضامين زهديات أبى العتاهية فى مكانها الخاص من الدراسة .

لقد اقتنع أبو العتاهية بالزهد ، فابتعد عن مدح الخلفاء ، وأمر غيره بالابتعاد عن الوقوف على أبوابهم ، ففى ذلك ذل ، وعلى العاقل أن يطلب بغيته من ربه ، لا من العبد ، فيقول أبو العتاهية :

فاستغن بالله عن أبوابهم كرما إن الوقوف على أبوابهم ذل[٤١١]

ويرسم زهده فى لوحته التى يقول فيها :

رغيف خبز يابس تأكله فى زاوية
وكوز ماء بارد تشربه من صافية
وغرفة ضيقة نفسك فيها خالية
أو مسجد بمعزل عن الورى فى ناحية[٤١٢]

لقد آلى الشاعر على نفسه ألا يقول شعرا فى غير الزهد ، وقد ترك فنون الشعر الأخرى لغيره من الشعراء ، فقد أراد الشاعر أن يحمل لواء شعر الزهد ، أو شعر التوبة والنصح فى عصره ، لاينازعه فى ذلك شاعر آخر ، وكان أبو العتاهية يخشى منافسة غيره من الشعراء فى ذلك اللون من الشعر ، وفى أخبار أبى نواس لابن منظور خبر يطلب فيه أبو العتاهية من صديق له ولأبى نواس ، أن يطلب من أبى نواس ألا يقول فى الزهد شعرا ، حتى يظل أبو العتاهية بالزهد معروفا ، وبه مشتهر ، فيقول راوى الخبر : « جاءنى أبو العتاهية ، فقال لى : أن أبا نواس لا يخالفك ، وقد أحببت أن تسأله ألا يقول فى الزهد شيئا ؟ فإنى قد تركت له المديح والهجاء والخمر والرقيق وما فيه الشعراء ، وللزهد شوقى ، فبعثت إلى أبى نواس ، فجاء إلى ، وأخذنا فى شأننا ، فقلت لأبى نواس : إن أبا اسحق (أبو العتاهية) وقد عرفت جلالته وتقواه ، وقد أحب أنك لا تقول فى الزهد شيئا ، فوجم أبو نواس عند ذلك وقال ، يا أبا مخلد قد قطعت على ما كنت أحب أن أبلغه من هذا ، ولا أخالف أبا اسحق فيما رغب إليه »[٤١٣] .

ويصور الخبر أن أبا نواس قد استجاب لرغبة أبى العتاهية ، وكان ذلك فى فترة سبقت ايمان أبى نواس بالتوبة وبالاقلاع عن المجون ، حين كبرت سنه ، فقال ما أحب أن يقول فى زهدياته ، دون قيد برغبة أبى العتاهية ، ودون محافظة على تنفيذ وصية الرسول بينهما ، ولكن الخبر المروى ، يوضح رغبة أبى العتاهية فى زعامة هذا اللون من الشعر ، وخشى أن يقول فيه

---

(٤١١) ديوان أبى العتاهية / ٣٦٦ .
(٤١٢) ديوان أبى العتاهية / ٣٠٦ .
(٤١٣) ابن منظور - أخبار أبى نواس / ٧٠ .

شاعر لا يزال فى مجونه ، فيقلل من نظرة الآخرين إلى شعر الزهد ، وإلى احترام قائليه ، وربما خشى من هذا وربما رغب فى ألا ينافسه شاعر فى لونه هذا ، حتى صار أبو العتاهية من أبرز شعراء الزهد فى عصره ، ومن أبرز الشعراءالذين اقتنعوا بالزهد منهجا ، واقتنعوا به مسلكا فنيا ، فشك فيه بعض واستخف بزهده آخرون ، ولكنه استمر يدعو إليه ، حتى صار زهده يحمل عناصر ومضامين خاصة به ، تصور سمات قائله الفنية والفكرية .

ومن الشعراء العباسيين ، الذين زهدوا بعد مجون ، وكان الاقتناع بالزهد دافعهم ، فأكثروا القول فى الزهد ، حتى عدوا من الشعراء الزهاد المعروفين ، الشاعر « محمود الوراق »[٤١٤] .

وكان الوراق ماجنا فى صدر شبابه ، يأخذ من متع الحياة بنصيب ، وكان يجالس الجوارى ، ويستمع إلى الغناء ، ويشرب الخمر ، ويقول فى الغزل ، وفى غيره من فنون أسهم فيها شعراء المجون ، « وكان محمود بن حسن الوراق صديقا لأبى عاصم بن وهب ، وكان أبو الشبل كوفى المولد ، بصرى المنشأ ، واشتهر الصديقان بالاستهتار فى الخمر والمعاصى »[٤١٥] كما يذكر ابن المعتز فى طبقاته ما ذكره الأصفهانى فى أغانيه عن مجون الوراق فيقول عنه « إنه كان من طلاب اللهو والفتك قبل أن يتزهد »[٤١٦] .

وفى فوات الوفيات قيل إنه كان نخاسا ببغداد ، يبيع الرقيق ، ويأخذ بحظه من اللهو ، وله فى الغزل قوله :

سقيا لأيام خلت وكأن أوجهها رياض
أيام يحيينا الهوى وتميتنا الحدق المراض[٤١٧]

وكان لمحمود الوراق جارية جميلة ، أديبة ، اسمها (سكن) يحبها وتحبه ، وحين ساءت حال محمود الوراق ، وآل إلى الفقر ، فكر فى بيعها ، فعرض عليه أحد الطاهريين مائة ألف درهم ، وحين همت بالخروج قالت للوراق : « أفتجلسين على الفقر ؟ فقالت : « نعم » فأعتقها ليتزوجها ، ثم قال للطاهرى : هذا مالك فخذه ، فقال الطاهرى : أما ، إذا فعلت ما فعلت فالمال لكما ، والله لأرددته إلى ملكى »[٤١٨] .

إن مجون الوراق فى غير حاجة إلى دليل ، فقد تعددت الأخبار التى تروى عن تلك الفترة الماجنة من فترات حياته ، قبل أن يصير زاهدا ، وقد صحا من غفلته ، وأبصر رشده ، فتاب

---

(٤١٤) يراجع فى شعر الوراق : الأغانى جـ ١٣ ٢٢ - ٢٤ ، وطبقات ابن المعتز ٣٦٧ - ٣٦٨ ، وفوات الوفيات ٢ / ٢٥٦ - ٢٥٨ .

(٤١٥) الأصفهانى - الأغانى جـ ١٣ / ٢٢ - ٢٤ .

(٤١٦) ابن المعتز - طبقات الشعر - ٣٦٧ .

(٤١٧) الكتبى - فوات الوفيات ٢ / ٣٥٧ .

(٤١٨) الأصفهانى - الأغانى . جـ ١٣ . ص ٢١ .

وأناب ، واستغفر عن ذنبه ، فصار من الزهاد وأكثر من شعر الوعظ « ولعل العصر العباسى الأول لم يعرف شاعرا أكثر من الحديث عن الزهد واعظا مذكرا كما أكثر محمود »[٤١٩] .

والوراق فى زهده يدعو إلى الحزم وإلى الصبر ، ويدعو إلى الاستعداد لنوازل الدهر ، وعدم الاستخفاف به ، ويكثر من قول الحكم التى تدل على تجربة صادقة ، وخبرة ناضجة ودراية واعية بالحياة وبأمورها ، وقد غلب على شعر الوراق زهده ، أكثر مما غلب عليه مجونه ، وعرف بشعر الزهد ولم يعرف بشعر المجون ، ولكنه من الشعراء الزهاد بعد مجون ، ومن شعراء التوبة والاستغفار فى العصر العباسى ، وهو من الشعراء الذين آمنوا بالقناعة ، واقتنعوا بالزهد ، وتابوا عن ذنوبهم ، واستغفروا لربهم ، دون جبر أو اضطرار ، بل عن عقيدة واقتناع .

وفى شعره الوراق دعوة صادقة إلى الزهد ، وإلى القناعة بما قسم الله ، ونهى عن الحرص على المال ، ونهى عن الطمع والجرى وراء الحياة وملذاتها ، لقد آمن الوراق بأن غنى المرء الحقيقى ، هو غنى النفس ، فيقول الوراق فى هذا المعنى :

من كان ذا مال كثير ولم ... يقنع فذاك الموسر المعسر
وكل من كان قنوعا وإن ... كان مقلا فهو المكثر
الفقر فى النفس وفيها الغنى ... وفى غنى النفس الغنى الأكبر[٤٢٠]

ويفضل الوراق الفقر على الثراء ، ويرى أن عيب الغنى أكثر من عيب الفقر ، فالغنى ربما يعصى ربه ، ويطمع فى دنياه ، ليزداد ثراء ، أما الفقير فقد لا يعصى الإله مع فقره .. فيقول الوراق :

يا عائب الفقر ألا تزدجر ... عيب الغنى أكثر لو تعتبر
من شرف الفقر ومن فضله ... على الغنى أن صح منك النظر
أنك تعصى كى تنال الغنى ... وليس تعصى الله كى تفتقر[٤٢١]

ويدعو الوراق فى شعره إلى اطاعة الله ، وإلى الاستجابة لأوامره ولنواهيه ، ويدعو إلى تجنب المعاصى ، فإن الذنوب تبعد المرء عن الجنة ، ويتعجب الوراق كيف يطمع إنسان فى ثواب ربه وهو فى ذنوبه ، يصل بعضها بالبعض ، لقد خرج آدم من الجنة بذنب واحد ، حين عصى ربه ، فيقول الوراق فى ذلك :

يا غافلا ترنو بعين راقد ... ومشاهدا للأمر غير مشاهد
تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجى ... درك الجنان بها وفوز العابد

---

(٤١٩) د. شوقى ضيف - العصر العباسى الأول / ٤٠٩ .
(٤٢٠) ابن شاكر الكتبى - فوات الوفيات ٢ / ٢٨٥ .
(٤٢١) ابن المعتز - طبقات الشعراء / ٣٧٦ .

ونسيت أن الله أخرج آدما منها إلى الدنيا بذنب واحد[٤٢٢]

ويتوسل الشاعر بالمنطق وبالقياس فى بعض وعظه ، ويرى أنه من المحال أن يجمع بين معصية الاله ، وأظهار الحب له ، فلو كان الحب صادقا لأطاع المحب ربه .. فيقول الوراق :

تعصى الله وأنت تظهر حبه هذا محال فى القياس بديع
لو كان حبك صادقا لأطعته أن المحب لمن يحب مطيع
من كل يوم يبتليك بنعمة منه وأنت تنكر ذاك فظيع[٤٢٣]

ولقد سيطر الزهد على شعر الوراق ، فاقتصر شعره على ذلك اللون ، ولم تكن أشعاره فى التوبة وفى النصح والموعظة ، مع فنون أخرى من فنون الشعر ، أو فى وسط قصيدة ، بل كان الوراق يعد قصيدته أو مقطوعته كلها فى الحكمة والموعظة الحسنة ، وفى ضرب المثل وفى الحث على الزهد والتقرب من الله - سبحانه وتعالى - لقد علم الوراق الناس دروسا فى الصبر والتحمل ، والتجمل والتجلد لمصائب الدهر ولنوازله ، فيقول فى بعض وعظه :

يمثل ذو الحزم فى نفسه مصائبه قبل أن تنزلا
فإن نزلت بغتة لم ترعه لما كان فى نفسه مثلا
وذو الجهل يأمن من أيامه وينسى مصارع من قد خلا[٤٢٤]

لقد استفاد الوراق من ثقافات عصره ، فأمدت زهده بمعين لا ينضب وبروافد روحية عظيمة ومتجددة ، فجمع بين فكر المتكلمين ، وفلسفة المسلمين ، (ونراه يشير إلى جبرية المتصوفة وتوكلهم : فى قوله :

كبر الكبير عن الأدب أدب الكبر من التعب
حتى متى وإلى متى هذا التمادى فى اللعب
والرزق لو لم تأته لأتاك عفوا من كثب
إن تنم عنه لم ينم حتى يحركه السبب[٤٢٥]

ويكثر الوراق من الوعظ ، ومن ذم النفاق ، ومن ذم من يدعون الأمانة ، وهم يسلكون طرق الخيانة ، فما أكثر من يحسنون القول ، ويسيئون الفعل ، فنظم الوراق أشعارا فى معالجة هذه الأوبئة الأخلاقية ، فى مقطوعات بسيطة ، وفى أسلوب عذب أنيق ، وألفاظ رشيقة يسيرة ، ومعان تسر الخاطر ، فيقول الوراق مخاطبا المغرور :

---

(٤٢٢) فوات الوفيات ٢ / ٢٨٦ .
(٤٢٣) الأغانى ١٣ / ٢٢ .
(٤٢٤) بهجة المجالس . جـ ٢ ص ٢٠٦ .
(٤٢٥) د. هدارة - اتجاهات الشعر العربى ص ٢٠٦ .

أيها المغرور مهلا فلقد أوتيت جهلا
كم إلى كم تحسن القو ل ولا تحسن فعلا
ظاهر بجميل والباطن لا يخفى على ربك كلا[٤٢٦]

ويخاطب الوراق المنافقين فى قوله :

تصنع كى يقال له أمين وما يغنى التصنع للأمانة
ولم يرد الاله به ولكن أراد به الطريق إلى الخيانة[٤٢٧]

ومن الشعراء الذين زهدوا بعد ما عرف عنهم من مجون ، الشاعر « محمد بن يسير الرياشى » سنة ٢٢٠ هـ[٤٢٨] ، وهو أبو جعفر محمد بن يسير الرياشى مولى بنى رياش من بنى خثعم ، من الشعراء المجان الذين تابوا ، وله شعر فى المجون ، وله شعر فى الزهد .

وابن يسير من الشعراء الذين أقلعوا عن مجونهم بعد اقتناع بالزهد وبضرورة التحلى به ، وضرورة البعد عن المآثم والمعاصى ، وكان ابن يسير الرياشى « ماجنا مشغوفا بالشراب ما بات ليلة إلا سكران ، فإذا لم يجد يوما نبيذا يشربه كاد يجن ، وكان شديد البخل ، رث الثياب »[٤٢٩] .

وابن يسير من الفريق الأول الذى أسرف على نفسه ، وأسرف على مجتمعه فى مرحلة شبابه « وقد أكثر من قول الحكمة والزهد ، واعتناق الحكمة مبدأ ، وسبيلا ، انتهى إليها كل شعراء زمانه تقريبا »[٤٣٠] .

ويروى ابن المعتز شعرا لابن يسير عن الصبر والفرج يقول فيه :

ماذا يكلفك الروحات والدلجا البر مرا ، ومرا تركب اللججا
كم من فتى قصرت فى الرزق خطوته ألفيته بسهام الرزق قد فلجا
لا تيأس ، وإن طالت مطالبته اذا استغنت بصبر ، أن ترى فرجا
إن الأمور اذا انسدت مسالكها فالصبر يفتح منها كل ما ارتتجا
أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا[٤٣١]

---

(٤٢٦) بهجة المجالس جـ ٢ ص ٢٠٧ .
(٤٢٧) الأغانى جـ ١٣ / ٢٣ .
(٤٢٨) يراجع فى شعر ابن يسير الرياشى – الأغانى جـ ١٤ ص ١٧ – ٥٠ . طبقات ابن المعتز ٢٨٠ – ٢٨٣ ، زيدان ٢ / ١٠٢ – ١٠٣ . والبيان والتبيين ٣ – ٢٠٩ : ٢٣٠ .
(٤٢٩) الأصفهانى – الأغانى جـ ١٤ ص ٣٤ .
(٤٣٠) د. الشكعة – الشعر والشعراء ص ٥٧١ .
(٤٣١) ابن المعتز . طبقات الشعراء ٢٨٠ / ٢٨٣ (الدلج : سير الليل ، مرا : مرة ، اللجج : سفر البحر ، فلج : فاز – ارتتج : أنغلق وأنسد .

وعن الموت يقول ابن يسير :

لكل أناس مقبر بفنائهم فهم ينقصون ، والقبور تزيد
هم جيرة الأحياء : أما محلهم فدان وأما الملتقى فبعيد[٤٣٢]

ويقول عن نفسه :

كأنه قد قيل فى مجلس قد كنت آتيه وأغشاه
محمد صار الى ربه يرحمنا الله وإياه[٤٣٣]

ومن شعره فى الحكمة وفى معرفة الحياة ، ما رواه صاحب البيان والتبيين . وجاء فيه :

تأتى المكاره ، حين تأتى جملة وترى السرور مجيئ فى الفلتات[٤٣٤]

وشعر ابن يسير فى المجون كثير ، وشعره فى الزهد يعادله أيضا فى الكثرة ، وابن يسير زهد بعد مجون ، ولم يكن مجبرا على زهده ، ولم يبك الشباب ويندم عليه ، بل كان فرحا بحياته الجديدة ، حياة الحكمة والزهد ، ونراه يقبل على الحياة ، فرحا مستبشرا ، كله أمل وتفاؤل .

ويتخيل ابن يسير ابنته الصغرى ، وهى تبكيه بدموع غزار ، حين يموت ، فيخشى عليها ذل اليتم ، ويروى ابن المعتز فى طبقاته أبياتا لابن يسير حول هذا المضمون ، قال فيها :

لولا البنيه لم أجزع من العدم ولم أجب فى الليالى حندس الظلم
وزادنى رغبة فى العيش معرفتى ذل اليتيمة يجفوها ذوو الرحم
إذا تذكرت بنتى حين تندبنى جرت لعبرة بنتى عبرتى بدم[٤٣٥]

ومن الزهاد بعد مجون ، الشاعر « سعيد بن وهب » ، وهو من الشعراء الذين تعلقوا بالغلمان وبالشراب ، وفى الأغانى للأصفهانى ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى أخبار تؤكد مجون سعيد بن وهب ، فيقول أبو الفرج « أنه كان مشغوفا بالغلمان والشراب »[٤٣٦] ويقول الخطيب البغدادى « أنه كان خُليعا ماجنا أول أمره ، أكثر القول فى الغزل والخمر »[٤٣٧] ثم يعود البغدادى ليؤكد توبته ونسكه ، ويعلن أنه زهد فى حياته ، وأقلع عن مجونه ، وتاب إلى ربه ، واستغفر عن ذنبه « فانطلق إلى الحج ، سائرا على قدميه ، ليكفر عما ارتكب من آثام ومعاصٍ »[٤٣٨] .

---

(٤٣٢) طبقات ابن المعتز ص ٢٨١ .
(٤٣٣) طبقات ابن المعتز ص ٢٨٣ .
(٤٣٤) الجاحظ : البيان والتبيين ٢ / ٢٠٩ .
(٤٣٥) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ٢٨١ .
(٤٣٦) الأصفهانى - الأغانى جـ ٢٠ ص ٦٩ .
(٤٣٧) الخطيب البغدادى - تاريخ بغداد ٩ / ٧٣ .
(٤٣٨) المصدر السابق ٩ / ٧٤ .

ويقول سعيد بن وهب فى هذه الرحلة مصورا جهده وعنائه ، حتى يغفر الله له بعضا من ذنوبه :

قدمى اعتورا رمل الكثيب ... واطرقا الآجن من ماء القليب
رب يوم رمتما فيه على ... زهرة الدنيا وفى واد خصيب
وسماع حسن من حسن ... صخب المزهر كالظبى الربيب
فاحسبا ذاك بهذا واصبرا ... وخذا من كل فن بنصيب
إنما أمشى لأنى مذنب ... فلعل الله يعفو عن ذنوبى[٤٣٩]

وكثرت رحلات الزهاد إلى الحج سعيا إلى الأقدام ، وقد عرف ذلك عن رابعة العدوية ، وعن غيرها من الزهاد ومن المتصوفين ، وترى الشاعر يقر بذنوبه ، ويطلب مغفرة ربه ، ومن الطبيعى أن الشاعر لم يكن شيخا عاجزا ، ، مضطرا إلى الزهد ، ودليلنا على ذلك قدرته على الحج سيرا على قدميه ، فقد انتابته صحوة التائبين ، فتاب واستغفر . وهجر المجون وهجر القول فيه .

ومن التجاوز أن يعد قول بعض الشعراء فى الغزل العفيف ، أو فى الطيف الذى يلم بأحلام النائم ، لونا من المجون ، كما لايعد بكاء بعض الشعراء على الشباب ، والترحم على أيام الصبا من أبواب المجون أيضا ، إنما يعنى بالمجون ذلك العبث والاستهتار الذى ألزم الشاعر نفسه بهما فترة من حياته ، فشرب الخمر ، وتعلق بالغلمان ، وغير ذلك .

وهناك من الشعراء العباسيين الذين أكثروا من النظم فى الزهد ، وعرفوا به ، وصرحوا بالنسك والورع والتقشف ، وأكثروا من التوبة والاستغفار ، ولكن أشعارهم لم تفصح عن اعترافات آثمة ، ولم تصرح بمجون فى ماضيهم ، ومن هؤلاء الشعراء الذين لا يمكن أن نعدهم من المجان الزهاد أو الزهاد المجان ، الشاعر « كلثوم بن عمرو العتابى » والشاعران الشريف الرضى والشريف المرتضى ، والشاعر سلم بن عياش (وهو عمرو بن المغيرة الصيرفى الكوفى)[٤٤٠] وعبدالله بن المبارك ، ويحيى بن المبارك اليزيدى ، الذى لم يعرف اللهو اليه طريق (بل كان عفيفا تقيا ، وقيل أنه حرق شعره ، ولم يترك غير الزهد والمواعظ)[٤٤١] .

وفى كلثوم بن عمرو العتابى[٤٤٢] ، سنة ٢٢٠ هـ ، يقول صاحب تاريخ بغداد « أنه كان

---

(٤٣٩) المصدر السابق ٩ / ٧٤ .
(٤٤٠) الأصفهانى - الأغانى جـ ٢٠ ص ٨٤ .
(٤٤١) ابن الجراح / الورقة ص ٢٧ .
(٤٤٢) يراجع فى شعر العتابى الفهرست ١٢١ / طبقات ابن المعتز : ٢٦١ - ٢٦٤ ، الأغانى جـ ١٣ ص ١٠٩ - ١٥٧ - تاريخ بغداد ١٢ / ٤٨٨ - ٤٩٢ - معجم الأدباء ١٧ / ٢٦ - ٣١ فوات الوفيات ٢ / ١٧٣ - ١٧٥ - بروكلمان ١ / ١٢٠ ، زيدان ٢ / ٠٣ - ١٠٤ .

يتجنب غشيان السلطان قناعة وتنزها ، وصيانة وتقززا »[٤٤٣] « وكان يلبس الصوف ويظهر الزهد »[٤٤٤] وكان للعتابى « زوجة من بنى باهلة ، لامته يوما وقالت : هذا منصور النمرى تلميذك ، قد أخذ الأموال فحلى نساءه ، وبنى داره ، واشترى ضياعا وأنت هنا ، كما ترى ، فأنشأ العتابى يقول :

تلوم على ترك الغنى باهلـة ... روى الفقر عنها كل طرف وتالد
رأت حولها النسوان يرفلن فى الكسا ... مقلدة أجيـادهـا بـالقـلائـد
ذريني تجئنى ميتتى مـطمئنـة ... ولم أتجشم هول تلك الموارد[٤٤٥]

والشاعر صالح بن عبدالقدوس سنة ١٦٧[٤٤٦] قد أكثر النظم فى الزهد ، وفى الوعظ وفى الحكم والأمثال « وكان يجلس فى مسجد البصرة للوعظ ، ويقص الأخبار ، غير أنه كان يؤمن بالثنوية ، وهى دين الفرس القديم ، فلما عرف أمره استقدمه المهدى من البصرة ، وقتله المهدى بيديه سنة ١٦٧ هـ »[٤٤٧] ثم أمر أن يعلق بضعة أيام للناس .

ومثل صالح لا يمكن أن تضعه فى طائفة الشعراء الذين زهدوا بعد مجون ، وزهدوا عن اقتناع ، وذلك لما شاب زهده من اتهام بالزندقة ، وقد اندفع البعض إلى تمجيد حكمه ووعظه ، فيقول عنه ابن المعتز فى طبقاته : « وله فى الزهد فى الدنيا والترغيب فى الجنة ، والحث على طاعة الله والأمر بمحاسن الأخلاق ، وتذكر الموت والقبر ما ليس لأحد ، وكان شعره كله أمثالا وحكما » ويقول الجاحظ فى البيان والتبيين : « لو أن شعر صالح بن عبدالقدوس ، وسابق البربرى[٤٤٨] كان مغرقا فى أشعار كثيرة ، لصارت كل الأشعار أرفع مما هى بطبقات ، ولصار شعرهما نوادر سائرة فى الآفاق ، ولكن القصيدة إذا كانت كلها أمثالا لم تسر ، ولم تجر مجرى النوادر ، ومتى لم يخرج السامع من شىء إلى شىء لم يكن لذلك عنده موقع » .

ويعجب ابن المعتز من القائلين بزندقة صالح بن عبدالقدوس ، ويتمثل بقوله :

وليس يعجـز المـرء اخـطاؤه الغنى ... ولا باحتيال أدرك المال كاسبه

---

(٤٤٣) الخطيب البغدادى - تاريخ بغداد ١٢ / ٤٨٨

(٤٤٤) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ٢٦٢ .

(٤٤٥) ابن المعتز : طبقات الشعراء ٢٦١ ، ٢٦٣ ، والأغانى جـ ١٣ / ١٠٩ ، وتاريخ بغداد / ٤٨٨ .

(٤٤٦) يراجع فى أشعار صالح بن عبدالقدوس - طبقات ابن المعتز ٩٠ - ٩٢ - تاريخ بغداد ٩ / ٣٠٣ - ٣٠٥ . معجم الأدباء ١٢ / ٦ - ١٠ - فوات الوفيات ١ : ٢٤٥ - بروكلمان ١ / ١١١ - زيدان ٢ / ١٠٠ - ١٠١ .

(٤٤٧) ت : بغداد ٩ / ٣٠٤ .

(٤٤٨) شاعر مغربى من موالى بنى أمية ، وفد على عمر بن عبدالعزيز وله فى الزهد أشعار جيدة .

ولكنـه قبض الإلـه وبسـطه فلا ذا يجاريه ولا ذا يغالبه

ويعلق ابن المعتز على الأبيات بقوله : « فيا عجبا كيف يمكن أن يقول زنديق مثل هذا القول ؟ وكف يكون قائله زنديقا » ؟[٤٤٩] .

ويعلق د. شوقى ضيف على رأى ابن المعتز ، فى زندقة صالح بن عبدالقدوس ، بقوله : « إن استمداد ابن عبدالقدوس - أحيانا - من الحديث النبوى أو من القرآن ، أو من بعض وعاظ المسلمين مثل الحسن البصرى لا يخرجه من دائرة الزنادقة المانويين ، ومما لا شك فيه أنه كان زنديقا مانويا كبيرا ، بل لقد كان رأس المانوية والمجادل عن عقيدتهم فى البصرة حقبا متطاولة »[٤٥٠] .

وعلى هذا الأساس لا يجوز اعتبار صالح بن عبدالقدوس من الزهاد المجان ، أو من الزهاد الذين لم يمجنوا ، وكان زهدهم حقيقة تؤكدها أخبارهم وسلوكهم ، ويستمدون فكرهم من مصادر إسلامية بحتة ، لاريب فيها . ولم ننخدع بما جاء فى شعر صالح من حكم ومواعظ ، ودعوة إلى الزهد ، فهى دعوة يلتقى فيها زهده بالمانوية ، وإذا كان شعره يدور كله على الزهد فى الدنيا ، والبعد عن متاعها الزائل ، والحث على مكارم الأخلاق ، وطاعة الله ، فإن شعر صالح لا يمكن اعتباره من شعر الزهد الحقيقى الذى لا شك فيه .

ومن الشعراء الذين زهدوا بعد مجون الشاعر « محمد بن حازم » ، الذى كان مغرقا فى اللهو والمجون ، حتى إذا بلغ الخمسين من عمره اقتنع بالزهد ، وتمسك به ، ويبدو أنه كان لايزال قادرا على الاستمرار فى المجون ، ولكنه أقسم ألا يقرب كأسا أو جارية ، وأن يهجر مسلك الغواية ، وأخذ ينظم شعرا يدعو فيه إلى القناعة والزهد فى متاع الدنيا الزائل .

ومن قول ابن حازم :

ومنتظر للموت فى كل ساعة يشيـد ويبنى دائمـا ويحصن

لـه حين تبلوه حقيقـة موقن وأفعاله أفعال من ليس يوقن[٤٥١]

لقد ازدهر الزهد فى العصر العباسى ، وكثر الزهاد والزاهدات فيه ، وأصبح الزهد مقدمة للتصوف ، وكثرت أشعار الشعراء فى الزهد وفى الدعوة إليه .

وهذا البحث لايهتم بتصوير زهد الزهاد ، الذين لم يعرف عنهم مجون ، أو الذين لم يكن لهم شعر فى المجون ، أو كان لهم مجون ولم يصرحوا به ، ولم يجاهروا بمعاصيهم ، أو يفاخروا بها ، وذلك لأن ما يهم البحث فى المقام الأول هو تصوير زهد المجان ، وتوبة تلك الطائفة من

---

(٤٤٩) ابن المعتز - طبقات الشعراء ص ٩٠ .

(٤٥٠) د. شوقى ضيف - العصر العباسى الثانى ص ٣٩٧ .

(٤٥١) طبقات ابن المعتز ص ١٧٣ .

الشعراء العباسيين الذين أسرفوا على أنفسهم ، ثم استغفروا لذنوبهم . وأقلعوا عن الخوض فى تيار المجون ، وعن النظم فيه .

وقد تعرض هذا الفصل الأول من هذه الدراسة - كما رأينا - إلى تصوير الدوافع التى أدت إلى تحول هؤلاء الشعراء من المجون إلى الزهد ، أو على الأقل الدوافع التى جعلتهم يقلعون عن القول فى المجون ، والعمل به ، والانغماس فى تياره ، إلى القول فى التوبة والاستغفار .

وقد حدد البحث هذه الدوافع بأربعة : هى أمر الحاكم والامتثال له ، بالاقلاع عن المجون ، أو الامتناع عن الدعوة اليه ، وإجبار المجان على التوبة والاستغفار ، ومنها المحنة أو الكارثة التى نزلت ببعض الشعراء المجان ، فدفعتهم أيضا إلى هجر المجون وإلى التوبة بعد أن اتضحت حقيقة الأشياء أمام أبصارهم ، ومنها - أيضا - الكبر والشيخوخة والشيب ، والعجز الذى لحق بأجساد الشعراء المجان ، فأوهن قواهم ، فأخذوا يصورون شيبهم ، موقنين بقرب الرحيل ، فباتوا يدعون إلى الأعمال الصوالح ، وإلى التمسك بالتقوى ، والإقلاع عن المجون ، ومن هذه الدوافع أيضا ، اقتناع طائفة من الشعراء المجان بجدوى التوبة وبقيمة القناعة وبضرورة البعد عن الخوض فى المجون ، أو الدعوة اليه ، عن فكر وعقيدة ، لا عن جبر واضطرار .

ولم يهتم البحث بدراسة زهد الزهاد الحقيقيين ، كما لم يهتم البحث أيضا بدراسة شعر المجان الذين استمروا فى مجونهم ، ولعل هناك دوافع أخرى غير تلك الدوافع التى حددها هذا الفصل من الدراسة ، ولكنها لا تصل إلى درجة تأثير هذه الدوافع العامة التى اشترك فى التأثر بها طائفة ليست قليلة من الشعراء المجان ، ومن هذه الدوافع الثانوية ، دافع الملل ، الذى شعر به بعض الشعراء المجان فتفروا من مجونهم ، بعد أن رأوا حياتهم تنهج نهجا واحدا يدعو إلى الملل من كثرة رتابته ، فأعلنوا عن رغبتهم فى التجديد ، فكان الجديد عليهم حياة التوبة وهجر المجون ، ومن هذه الدوافع الثانوية أيضا شعور بعض الشعراء المجان بالغربة الحقيقية عن الأرض والأهل ، وعن الوطن والحبيب ، فانصرفوا عن مجونهم ، وظلت متعتهم فى الحديث عن الأهل والحبيب ، ومنها الغربة النفسية والشعور بالانفصال عن المجتمع ، وعن ما يدور حولهم ، فأعلنوا الثورة على ذواتهم ، واستغفروا لذنوبهم ، كلون من ألوان العصيان الاجتماعى أو التمرد على الأوضاع الكائنة المقلوبة حسب نظرهم والطبيعية حسب نظر القائمين على أمورهم .

وكان هذا التمرد أو هذا العصيان متمثلا فى إعلان هذه الطائفة لهجر المجون ، أو لهجر الحياة بمتعها والاستمتاع بما كانوا يستمتعون به ، فقد أغرق بعض هؤلاء المتمردين أنفسهم فى تيار المجون ، يعبون من أقداح الخمر ، ويلهون ويعبثون ، لعلهم ينسون ما يدور حولهم ، بينما

البعض الآخر التزم الدين والتقوى ، يتمسك بحبل الله ، ويندم على ما ارتكبه فى ماضيه ، ويهجر مجالات المجون جميعها ، ويتردد على أماكن العبادة ، ويتحلى بثياب أخرى ، ثياب التقوى ، ويخلع عن نفسه رداء المجون والعبث .

ومن الواضح أن هذه الدوافع الثانوية هى الأخرى ، بالإضافة إلى الدوافع الأولى الرئيسية لم تكن هى كل الدوافع التى حدت بالشعراء المجان فى العصر العباسى إلى التحول من الزهد إلى المجون ، ولربما كانت هناك دوافع أخرى ، ولكن عدم أهميتها يعود إلى ضعف تأثيرها ، ويعود - أيضا - إلى قلة المتأثرين بها من الشعراء ، أو إلى عدم شهرة ذلك الشاعر ، وضعف حركته فى تيار الشعر العربى فى العصر العباسى .

ومن الطبيعى - أيضا - أن هناك شعراء آخرين ، تأثروا بهذه الدوافع العامة ، والدوافع الخاصة ، ولم يشر البحث إليهم ، فقد اكتفت الدراسة بالإشارة إلى بعض الحالات الصارخة ، التى تمثل نماذج واضحة فى هذا التيار الفنى من تيارات الشعر العربى العباسى ، فإذا استعرض البحث شعراء عرفوا فى العصر العباسى أو لم يعرفوا ، فسوف يرى أن ظاهرة المجون تكاد تكون شبه عامة عند الشاعر فى شبابه وفى صدر حياته ، وعند غير الشعراء أيضا ، وأن ظاهرة التوبة والاستغفار - أيضا - شبه عامة عند هذه الطائفة من الذين خاضوا فى المجون ، باعتدال أو بإسراف واستهتار ، ومن المحتم - أيضا - أن يكون هناك دافع يدفع هؤلاء وهؤلاء إلى الاقلاع عن المجون ، وإلى الزهد ، أو إلى التوبة وإلى الاستغفار ، وإلى الندم على ما مضى ، وإلى دعوة الآخرين إلى عدم خوض تجربتهم الأولى والاستفادة مما حدث لهم ، والتمسك بالدين وشرائعه .

وبعد دراسة دوافع الزهد أوالتوبة عند المجان العباسيين ، ينتقل البحث إلى دراسة مضامين وعناصر شعر التوبة والاستغفار عند هذه الطائفة من الشعراء ، بعد أن أقلعوا عن مجونهم ، وهذا هو موضوع الفصل الثانى من هذا البحث .